الأدب الحي

مجموعة مقالات وابحاث فى الادب والنقد

مذيلة بقصة ودراما كاملة

تأليف

ابراهيم المصري

عنيت بنشره

مكتبة الوفد بأول شارع الفلكي بمصر

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصري بالظاهر : بمصر

ابراهيم المصرى

الأدب الحى

سنة ١٩٣٠

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر : بمصر

كلمة الناشر

الى القراء الكرام .

و بعد . فها أنا أقدم اليوم لجمهور قراء العربية فى الشرق هذا الكتاب الجديد الذى لا أشك فى أنه سيلقى العناية التى هو جدير بها والتقدير الذى يستحقه فهو احدى حلقات تلك السلسلة من أعمال الادباء المعاصرين النابهين الذين أخذت على عاتقى طبع تواليفهم واذاعتها فى العالم العربى .

وقد بدأت بذلك فعلا ونشرت بعض مؤلفات الأديب الفاضل الاستاذ كامل كيلانى .

وانى لن أدخر وسعا فى المضى فى طريق معاهداً أبناء وطنى على خدمة الفكر والأدب مهما صادفنى من مشقات واعترضنى من صعاب .؟

محمد محمود

صاحب مكتبة الوفد

القوة والجمال



ابولون

الإهداء

الاهداء

الى السيدة م ...

سيدتى

لمحت فى عينيك ذات مساء ونحن نستمع لمقطوعة موسيقى أندلسية من عمل (سارازات) وتوقيع (هوبرمان)، شيئا من الأسى العميق تمازجه لوعة مرة.

لم أكن أظن أبداً ولم يكن ليبدو عليك وأنت المرأة الرصينة المتزنة الهادئة انك ممن يحملون فى صدورهم ذلك التوق الملح الأليم الى الاحساس الشامل، وتلك الغريزة العنيدة المعذبة، غريزة الفرار الابدى نحو عالم ينكره العالم...

كانت الموسيقى قد أيقظت فيك حنينك الخفى الى الحلم — الذى أيقنت حينئذ أنك اصطفيته من دون العوالم والناس ملجأ ونصيراً — فألقيت برأسك على كتفك وغشى وجهك بغتة اصفرار لامع اكسبك روعة ثابتة شارده كروعة تماثيل الفواجع الخالدة.

عطفت عليك وقلت لك فى ابتسامة خفيفة: أهو الفن الذى جعل منك مخلوقة حلم أم هى الحياة؟

فأجبتنى: «الحلم هو الفن وهو الحياة! الحلم يلهم الفن أحساس ومعرفة كل ما هو راقد فينا من قوى عظيمة مدخرة، والفن يطلق تلك القوى ويصقلها ويخلق بها حياة عظيمة تزاحم نفس الحياة وتصرعها. وأنا مازلت أهيء بالحلم والفن نفسى لأفهمها وأبتدع لى حياة خاصة عميقة أستقبل بها الحياة الاخرى وأفرضها عليها!...»

قلت هذا فى سكون مطرد التأمل والنشوة فاضطربت أنا اعجاباً ثم وجمت ولم أحر جواباً.

ومنذ ذلك اليوم دعونا تلك الاغنية الاندلسية أغنيتنا ، وأخذنا نقرأ معاً شعر (بودلير) ونتذاكر احساساتنا بمراجعة أجمل مقطوعات (كيتس) و (رامبو) و (بول فرلين) . وكنت تغمرينني عطفاً وحناناً وتعلمينني كيف أستمع وأفهم وأتذوق أغاني (تشايكوفسكي) و (رافيل) و (رمسكي كورساكوف) ؛ فكنت أصغي الى صوتك المتهدج يختلط بالالحان ، وأبصاري شاخصة اليك ، ونفسي تمتلئ بك شيئاً فشيئاً ، والموسيقى تندفق على أمواجها من كل صوب وأنا لا أعي ...

لهذا كله ياسيدتي لا أستطيع الا أن أرفع اليك أنت هذا الكتاب فهو منك آت واليك ينتهي . هو الهامك الذي أرجو أن يفيض علي في مستقبل الزمن فيضاً أهنأ ما أكون به يوم أن يكلفني حياتي بأسرها .

فعساك واجدة فيه ولو ظلا متراثياً ضعيفاً من ذلك الحلم الفني المطهر والجمال الادبي المنقذ الذي طالما عبدناه في خلواتنا الطويلة سوياً ؟

ابراهيم المصري



الحلم

كلمة المؤلف

كلمة

فى هذا الكتاب عدة مقالات نشرت فى بعض المجلات والصحف رأيت أن أجمعها على أن تكون شبه مقدمة نظرية لاعمال أدبية فنية أعالج الآن تحقيقها .

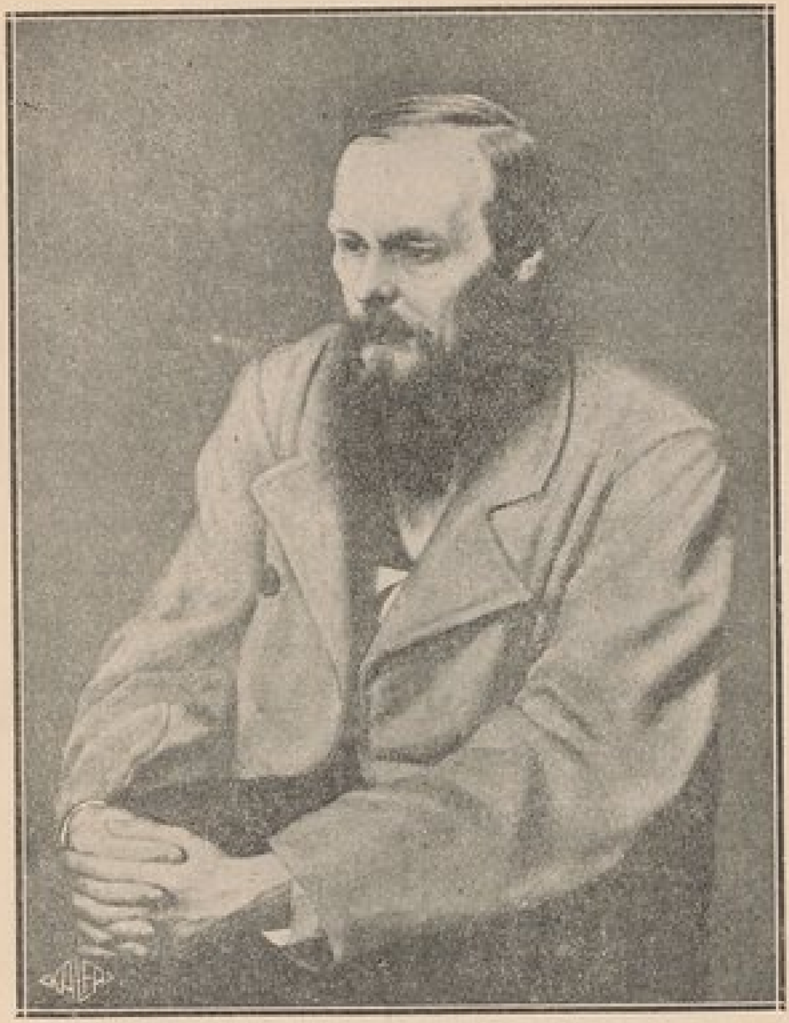
وان القارىء ليجد فيها صورة صادقة لفكر يحاول أن يتلمس بين شتى الظواهر الادبية ومختلف شخصيات الكتاب حقيقة مستقلة وجمالا فنياً خاصاً يساعده على ابتكار عمل فنى مستقل خاص .

أما الاديب الناقد فقد يرى فيها شيئاً من التناقض فى الفكر والمنزع ولكن هذا التناقض نفسه دليل البحث وعدم الاستقرار وهو ما يمتاز به أول عهد الشباب من حيث الرغبة الحارة فى تقبل الافكار والشخصيات جميعاً ولو أنها لا تصادف برمتها من نفسه كل الهوى وكل الايثار .

الى جانب هذا أردت أن أودع الكتاب شيئاً من الادب المبتكر الذى لابد أن تثمره نظرتنا الخاصة الى الحياة والا كنا محض أدوات عاجزة الا عن نقل الثقافات الاجنبية فحسب .

وان قصتى (سخرية الميول) و (الانانية) المذيلة بهما هذه المجموعة هى محاولات فى هذا السبيل أرجو ان أوفق فيما بعد لاستكمالها فى عمل فنى يمكن أن يقنعنى وترضى عنه نفسى ولو بعض الرضاء

ا . م .



فيدور دستويفسكى

التصصى الروسى الكبير

(تجد عنه مقالا فى صفحة ٧٧)

فهرست

مقالات وابحاث

شخصية الاديب الفنان

كثيرا ما يدور على الالسنة فى محافلنا ومنتدياتنا وكثيراً ما نطالع فى مجلاتنا وصحفنا أن غرض الفنون فى الامم المتحضرة هو الاصلاح الاجتماعى وأن الفنان سواء أكان شاعرا أو موسيقياً أو مصورا أو قصاصاً فهو قبل كل شىء مصلح اجتماعى يدعو الى الخير كما يفهمه السواد الأعظم من الناس فينهى عن الرذيلة المألوفة ويحض على الفضيلة الشائعة ويساعد أولى الامر فى تثبيت دعائم المجتمع والاحتفاظ بأنظمته القائمة . لذلك نحن نعجب مثلا بالشعر العربى الحكمى ونعد القصائد المطولة الملأى بالارشادات والمواعظ أعمالا فنية خالدة ودروساً في الأخلاق ذات أثر بعيد فى تكوين الشخصية الانسانية الممتازة . وكذلك نحن نرغب الى الفنان أن يكون رجلا فاضلا سامى الوحى نبيل الالهام لا يكتب أو يرسم أو يلحن الا عن غاية أدبية شريفة وقصد لا يتنافر والعرف الخلقي السائد . ونطلب الى الروائى القصصى أو المسرحى أن يكون قبل كل شىء علامة اجتماعياً يصف ادواءنا ويلتمس لها الدواء وأن يودع قصته مغزى خطيرا أو موعظة جليلة تتفق فى نتائجها العملية وما ألفناه من عواطف وما غرسته فينا بيئتنا وتربيتنا وتقاليدنا ومثلنا الأدبى الشرقى الاعلى من مبادىء وآراء

هذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على أننا فى عصر تحول وانتقال ننشد الرقى السريع من أقرب السبل تختلط فى رؤسنا شتى الغايات الأدبية ولما تتكون بعد فينا فكرة تقسيم منتجات الذهن الانسانى وفصلها وتحديدها تحديدا علمياً يحتفظ معه كل منها بأصوله الخاصة ومستلزماته وطابعه واستقلاله الذي لا حياة له بدونه ولا ازدهار

نحن بالرغم منا نحاول أن نقيد المظاهر الفكرية بغرض اصلاحى هو فى الواقع أثر من آثار الرجعية نحن اليه و نضن به كالبقية الباقية من تقاليد السلف الصالح نخشى إعمال النظر فيه و نتحاشى جهد طاقتنا الاقبال على درسه و فحصه و معرفة ما اذا كان يتلاءم و النهضة المنشودة التى تنزع اليها بكل قلوبنا

اننا نود أن نأخذ عاجلا بأسباب الرقى و لكننا نبتكر لذلك أسلوباً مستحدثاً طريفاً لو تأمله باحث غربى لانكر علينا النهضة و الناهضين

و هذا الاسلوب هو الاحتفاظ بالماضى و احياء مواته و العمل على اذاعته و نشره و جعل البلد صورة مجسمة منه و رمزاً حياً له مع اضافة ما يحتمل اضافته الى ذلك من شؤون العصر الحديث على شريطة ألا تمس جوهر البناء و ألا تتنافر مع روح الماضى التى نصبنا أنفسنا قوامين عليها و حراساً على مجدها التالد من الفناء و الانقراض

ان الغالبية فينا تود منا أن نكون غربيين في نظام حكومتنا و فى أوضاعنا الصناعية أى فى مرافق الحياة المادية العامة . شرقيين محافظين فى احساسنا و ميولنا و تقديسنا العادات و التقاليد الدارسة التى يزعمون أن لا شخصية لنا و لا ميزة و لا قومية بدونها

هذه الغالبية هى التى ثارت على بعض المؤلفات الحرة التى كتبها فريق من مفكرينا و هى التى لا تفتأ تقرن رغبة التجديد بالدعوة الى الانحطاط الخلقى. و هى التي تطلب الى الفنون والآداب أن تخضع لذلك المثل العجيب من الاصلاح الاجتماعى و أن يسخر الفنانون و العلماء عقولهم و أقلامهم للدفاع عنه . لذلك هى لا يمكنها البتة أن تسلم بقاعدة تقسيم الاعمال الفكرية. و احترام شخصيات أصحابها و أقصاء العلم و الفن عن التبشير بالاغراض الاجتماعية و السياسية و منحهما حرية واسعة شاملة . لانها انما تلتمس من الفكر تأييد تلك النزعة الاصلاحية المزعومة أما العلم و الفن فيلتمسان الحقيقة.

لذاتها و يلتمسان الجمال لذاته بلا فرق فى مختلف العصور و الامم

وانى لم أتقدم بهذه الكلمة الا لاستطيع أن أتناول بالوصف شخصية الاديب الفنان كيف هى وكيف يجب أن ننظر اليها نظرة بعيدة عن التأثير الاجتماعى وكيف أن معنى الادب لابد أن يتحول بجملته ويتطور لو أحطنا علماً بمناحى تلك الشخصية و أدركنا سر تكوينها الحقيقى

°°°

ليس فن الادب محض فكاهة . أو ضرباً من التسلية أوطريقة من طرق التبرج العقلى . وان من يفهمه كذلك ينكر حقائقه الثابتة التى ترفعه بقوتها الى مصاف العلم الصحيح مادام يحاول مثله اماطة اللثام عن دفائن النفس الانسانية والهبوط الى أعمق أغوارها واستكشاف الجديد من نزعاتها واحساساتها التي تختلف و تتباين حسب أوضاع كل عصر و مدنيته وعقليته . فالفن الادبى هو التاريخ الذى يسجل أرواح الاجيال و ما تقلبت عليه من صنوف العاطفة . وكما أن سلسلة تاريخ الحوادث والاعمال تخدم المدنيات فى انتهاج أصلح طريق لاعمال المستقبل كذلك فن الادب أو التاريخ المعنوى فانه يخدم رقى النفسية العامة التى ستقوم بهذه الاعمال . وان قيمة العلم فى تسلطه على المادة وفخاره بالعمل فى دائرة الظواهر المحسوسة لا تقل عنها قيمة الادب فى اشتغاله بتصوير جمال تلك الظواهر مع العناية الخاصة بتحليل أطوار الوجدان و تقلباته الامر الذي يدمجه فى علوم الاجتماع بما يحدثه من تأثيرات هامة فى مجري الحياة الانسانية العامة

أما الاديب الفنان المنوط به القيام بهذه المهمة فهو الشخصية المجيدة العظيمة التى لا تضارعها اخلاصاً و نزاهة غير شخصية العالم المكب فى معمله على أدواته برصد الحقائق العارضة و لو أنفق العمر في سبيلها شهيداً

°°°

ان الاديب الفنان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يكون حرا ، وأن

يحقق فى شخصه مثل الحرية الاعلى ، وهو دون سواه من الناس الرجل الذى يمكنه فى غير أسف أو حسرة أن ينفض عن كاهله عبء التقاليد و أن يخلص من وراثات القرون وان يجبه مصطلحات المجتمع الحاضر وأن يعيد النظر فى الانسانية من جديد كأنها خلقت له وحده ساعة ان استيقظت فيه خصائص المخيلة و وظائف التفكير

ان الماضى لا يخيفه اذ هو يشعر بنفسه متمردا بالفطرة نقادا بالسليقة متشككاً بالطبع و الهوى . لا مفر له من اطراح تعاليم السلف اذا رام تحقيق آماله و اكتمال شخصيته

هو رجل فوضوى النزعة لا يؤمن باختبارات سواه لا سيما اذا اجمع لرأى العام على احترامها واقرارها وأشد ما يكون حذره منها متى كانت أفكارا ثابتة أبدية مجربة . لأنه يربأ بالانسانية أن تساق بحكم العادة فى طريق فرد كقطيع أعمى . فتراه يتولى بنفسه كل شىء ليسمع الناس كلمة جديدة لم يألفوها من قبل

ان رسالته التى حملته اياها المقادير هى أن تتضاعف قوى الكون فى نفسه تضاعفاً براجع به خلق الحياة مرات حسب نزوات الهامه وطارئات وحيه

انه يأنف أن يكون مصلحاً اجتماعياً ليقينه الراسخ ان جلال عمله الفنى مستمد من قوى الغريزة والوجدان والمخيلة لا العقل المجرد

وهو يعلم تمام العلم أنه اذا خضع لشخصية المصلح فسيسيطر فيه المفكر على الفنان أو العقل على العاطفة فيركن للخيالات الفكرية لا الحقائق النفسانية و يتعصب برغمه لفكرة ضد فكرة فبدلا من أن يكون فناناً حرا مستمتعا بجمال الطبيعة دارساً غرائبها عارضا تلك الغرائب فى حيدة تامة وأمانة مطلقة يصبح رسولا مجنونا بفكرته صادعا لدعوته لا يرى فى الكون

سواها و يفسر الكون طبقا لها غير متردد لحظة فى التضحية بفنه من أجلها و استخدامه لاذاعة نظرياته وترويجها . وحينئذ لا تكون المسألة مسألة بحث عن الحقيقة وتطلع الى الجمال بل مجرد نشر فكرة محببة والتبشير بمذهب خاص

ان عمل الاديب الفنان هو نقد الحياة أى وصفها وشرحها و تحليلها دون ما تعصب أو ايثار وانا لنستطيع أن نتصور شكسبير مثلا كيف تكون رواياته لو أنه كان مصلحاً فى ثوب فنان و فقيهاً أو قساً فى جلد شاعر . ان نظرته الى العالم اذاً تكون ولا ريب محدودة الآفاق كمبادىء الفقه أو اللاهوت المستولية عليه وكان لا بد أن يسخر فنه لنشرها و يمسخ مخلوقاته لتأييدها وعندها كنا نري روميو يقترن بجوليت وهملت بأوفيليا وديدمونة المسكينة سعيدة الحظ بين أحضان عطيل المغربى . ولكن شكسبير كان غير هذا . كان الحياة بظلمها وعدلها . كان القضاء بقسوته ونهكمه . كان الفنان !

و ليس معنى هذا ان فن الأدب لا علاقة له بالاصلاح الاجتماعى وانما أقصد أن الفنان الاديب نفسه يجب ألا تكون له وجهة اصلاح محدودة لان الاصلاح أياً كان هو مجموعة مبادىء وأفكار ونظريات ترتبط ببيئة خاصة فى زمن خاص قد يستفيد منها عصر ولا تصلح لآخر فهى بحكم تقلبها واضطرابها وقابلية التحول والتبديل المودعة فيها شىء زائل عرضى ينافى طبيعة الخلود التى يجب أن تمتاز بها الاعمال الفنية العظيمة . وما العمل الفنى الكامل الا العمل الذى يجد فيه كل عصر حاجته والذي يتطور بتطور الاجيال فلا يبلى شبابه بل يظل على الأبد ناضرا جديدا كالحياة نفسها

ونظرة واحدة لاعمال أكبر أدباء الاغريق وعصر النهضة وصفوة المتاخرين كافية للدلالة على ذلك فهولاء جميعاً لم ينصبوا أنفسهم وعاظاً ومبشرين بل كانوا مجرد مراء حية تنعكس عليها الطبيعة . ولم يكن الادب في عرفهم كما نفهمه نحن من مطالعة كتب العرب أى أشباع شهوة الحس

والتحليق فى أجواء الوهم وارضاء نزعة الزهو والخيلاء بل كان دراسة تمجيدية للانسان واهوائه . كان نظرة خالصة بريئة تحاول أن تستشف جوهر الاشياء كى تستكشف لوناً من العاطفة غريبا أو حقيقة انسانية جديدة تنضاف الى مجموعة الحقائق التى هى ثروة الادب البشرى

ومن هذه الناحية كان الادب الحر يعود على المجتمع باضعاف الفائدة التي يعود بها عليه لو أنه امتزج برغبة الاصلاح المباشرة لانه وهو حر يرتفع بنا الى أن نكون أحرارا بمعنى أنه وهو يرسم لنا الحياة كما هى بدون مبادئ أو آراء مهيأة فى ذهن الفنان من قبل يحفزنا الى التفكير في تلك الحياة تفكيرا حرا وينتهى بنا الى استخلاص أفكار وآراء عنها خاصة بنا هى وليدة شخصيتنا المفكرة المستقلة ونتاج اختبارنا الفنى الطويل أى ثمرة ثقافتنا. وعندها يصبح العمل الادبى الفنى بتأثيره العميق في عقل الافراد والجماعات هو عمل التطور بل قل عمل الحضارة نفسها

وفي الواقع أن مطالعة قصة لشكسبير أو بلزاك مثلا لا يمكن أن تشعرك أنك أنفقت قواك عبثا وانك ستخرج منها بلا غاية اذ أن استيعابك لها وادراكك محاسنها ليس ادراكا تأمليا سلبيا تختلط فيه الدهشة بالاعجاب فحسب بل هو ضرب من الاشتراك الفعلى مع المؤلف وأشخاصه لان الاشكال الجميلة التى أحسست بها هى فى جوهرها عواطف عاملة والحركات التى شاهدتها هى في الحقيقة حركات قد تنقم أنت عليها وقد تنعيها على أصحابها وقد نرى فيها الخير كله فتقوم بتنفيذها أنت نفسك وقد قويت فيك أجل مميزات الحياة أى الاحساس والادراك والارادة

°°°

وعندي أننا كما يجب ألا نقيد الاديب الفنان فى نظرته الى الحياة كذلك يجب ألا نقيده فى فنه . يجب أن ندعه حراً طليقا يرسل ملكات ابتكاره فى

أى الاجواء أراد . يجب أن نضع شخصيته فوق الاعتبارات الادبية الموروثة والقواعد الكتابية الثابتة والنماذج المخلفة العظيمة فلا نحتكم أبداً اليها فى الحكم عليه ولا نهتدى على الدوام بها فى فهم أعماله ونقدها . بل على الناقد قبل أن يبدأ عملية المفاضلة والموازنة بين عمل الفنان واسلافه وقبل أن يبحث فى الجانب الاثرى التقليدى منها أن ينزل عند حلم الفنان الابتداعى ويحاول مااستطاع أن يتفهم ناحية الحرية فيه أي ناحية الاستحداث والتجديد. وهكذا لاتكون ثقافة الماضى هى المقياس الفرد في حكم الناقد على العمل الفنى بل تصبح صورة البشرية الجديدة الغريبة ورؤيا الكون المبتكرة الطريفة وروح الشذوذ الانسانى العميق المحلق على العمل الفنى هو الذى يحدد قيمته وهو الذى يصيبه القسط الاوفر من عناية الناقد النزيه وعدله . ولو أن أكابر نقاد الغرب لم يتبعوا هذا الاسلوب فى دراسة أعمال فنانيهم لما اكتشفوا لنا أمثال دستويفسكى وجوركى ومارسيل بروست ولظل الادب حتى يومنا هذا محض تكرار ممل شائن لما خلفه أساتذة الفن الاولون فى عصور مضت

***

والفنان الاديب من حيث هو انسان مثلنا مخلوق معقد غريب فهو يريد أن يستمتع كغيره بالحياة ولكن الانسان العادى يستمتع ولا يرى . بل ويجتهد رغمه أن ينسى متعته مهما حلت كى لايفكر ولايرى . أماهو فيستمتع فى شراهة حتى لاينسى البتة . حتى ينقش فى حافظة وجدانه وحسه جنون لذائذه . حتى يستعيدها على الطرس يوما . حتى يرى نفسه كما هى . حتى يشرف على غريزته صائلة فى معترك الخير والشر . حتى يفهم لماذا هو يستمتع وهل الحياة ليست سوى مجرد متعة ؟ ! . هذه الخلة فى الفنان قد تهوى به فى عرف الرجل العادى الى أحط مستوي خلقي ولكنها ألزم لنموه وازدهاره من الملق والرياء والخنوع

لذلك الرجل العادى . وقد ماكانت مثار سخط الناس عليه ومجلبة استنكارهم حياته وعدها خطرا على المجتمع ونظامه

وانا اذا تأملنا بعض الشيء وجدنا الامر على النقيض تماما فالناس فى شهواتهم أدنى الى البهيمية الاولى منه وفى ميولهم أحدر غبة وأخطر أثرا لانهم انما يجتهدون فى اخفاء شهواتهم ليباشروها فى الظلمة مسترسلين كالحيوان فى أوجاره أما هو فيعرضها على الملأ أجمع فى وقاحة ساذجة دون ماخشية أو خجل لانه لايأبه لها حتى يكلف نفسه عناء اخفائها ولانه لايستوقفه فيها عرضها الزائل ولذتها الباطلة وانما جوهرها السري الرهيب هو الذى يجتذبه وتعاليمها ونتائجها هى كل متمناه

وإنى لاسائل نفسى أى نفع يرجى من الفضيلة المعطلة للفنان العبقرى ؟

ما الفضيلة الشائعة الاعزاء الضعيف ومقبرة عقل القوى . انها كسيف هرأه الصدأ أو كراهب فقد مخيلته. وليس توق الفنان الشديد لما نسميه نحن رذيلة الاتوقا للاستمتاع الكامل بالحياة توصلا للمعرفة الكاملة

إذن فالفنان مهما كان شهويا فاسقا عربيداً فهو ليس كبقية الناس

ان الشهوة فى الجميع هى الغاية أما عنده فهى وسيلة لاغير. لذلك هو لايفتأ يمسح الزيوف عن وجه الدنيا . يهيم فى أبعد مجاهل النفس وأخفاها . يهبط الى قرارة اللذة كى يحس اقصى الالم ومتى تألم فعندها تستيقظ نفسه على لجب الحياة وتنفتح مغاليق وجدانه لشتى فضائل الحب ، الشفقة والبطولة والتضحية فتأخذ أعصابه فى التحفز وخصائصه الذهنية فى التفتق والتوتر وتبدأ وظائف المخيلة والذاكرة والاحساس والعقل في اختزان مادة الخلق واعدادها للعمل الفنى المنتظر !

٥٥

هذه بعض الجوانب الظاهرة من شخصية الفنان الاديب حاولت اثباتها

جهدى ليعلم المحافظون والرجعيون ومن على اضرابهم ممن يحلمون أحلام الزواحف فى أغوار الماضى السحيق ان الادب حر وان العلم حر وان الجهالة مهما أوتيت من حماقة وتعصب وغباء فلن تستطيع قطع الطريق على الشرق الناهض الذي يحس تمام الاحساس بأن لاحياة له ولا حرية بغير أدب حر وفن حر وعلم حر

التيارات الادبية

فى القرن التاسع عشر الاوربى

نظرة عامه

في غضون القرن التاسع عشر شاهدت أوربا بل العالم المتحضر قاطبة حركة خطيرة من حركات التجديد الفكرى فى دائرة الطبيعيات فازدهرت فروع العلوم المادية ازدهارا لم يكن ليحلم به أبطال الرينسانس أنفسهم حتى ولا ليونار دافنشى حين قال فى عرض كلامه عن الدين « لقد صاح القديس بولس ان الايمان نور العالم ولكنى أقول لكم أن العلم هو نور عالمنا الجديد ! »

توالت المخترعات والمكتشفات وأصيبت أوروبا بضرب من الافتتان بالعلم والاعتقاد المطلق بسلطانه فى تأسيس الحضارة وتبديل الكون الى حد أنها جعلت منه دينها الحديث ومن طرائقه العملية الخاصة كالملاحظة والاستقراء والتحليل وسائلها الوحيدة فى درس نواميس الحياة وتفهم أية ناحية من نواحيها سواء أكانت مادية ظاهرية أم نفسانية باطنية

غمرت الابحاث العلمية عقول أكبر المفكرين فقام الطبيعيون كداروين وبخنر وهيكل وأعادوا النظر في نشأة الخليقة وأصل الانسان وتبعهم الفلاسفة والمؤرخون كرينان وستراوس وشوبنهور ونيتشه وتاين فاخذوا فى فحص الحياة الانسانية من وجهتها الاجتماعية ناظرين من جديد فى قوانين الاخلاق متناولين بالفحص ما كان لم يزل ثابتا من عرف ومصطلحات وتقاليد وأديان فكتب (رينان) محطما الوهية المسيح ونادي (تاين)

بمذهب محدودية الانسان وخضوعه لعنصره ومزاجه وبيئته وقال شوبنهور بحكم الغريزة وبشر نيتشه بفلسفة القوة الارستقراطية وتآلف الجميع في سبيل تطهير جو الفكر الحر على هدم أفلاطون وارسطو ومن ناصرهم من علماء الكنيسة كالقديس توماس الاكيني فاعملوا ضرباتهم فى اللاهوت وفلسفة ماوراء الطبيعة وقضوا عليها بعدم صلاحيتها للحياة ووصفوها بانها محض تقهقر عقلي أو مجرد قوة عقيمة تسبح فى جو من الافتراضات الخيالية عن الله والخلود لاتستند إلى دليل من الواقع المحسوس وليس فيها أى نفع مباشر فشاعت آراؤهم وساعدتها روح العصر فانتشرت بين القادة والمثقفين ثم انحدرت الى الطبقات المتوسطة فعم الالحاد وأينعت الزندقة وأصبح كل فرد أوربى يحاول تثقيف ذهنه مااستطاع ليتحرر هو أيضاً ويكون له فكرة خاصة عن الحياة بتحكيم خصائصه العقلية البحتة فى كل مايعترضه من أسرار الكون

وكان لابد من سريان هذه الافكار فى جميع مناحى المعرفة البشرية فتطرقت الى الآداب لاسيما فى النصف الاخير من ذلك القرن . وعندها كانت حركة ثانية أشد وقعاً من الاولى وأبعد مرمى وأبلغ صدى لاتصالها الوثيق بالوجدانيات وعلاقتها المباشرة بالاغلبيات الساحقة قام بها الادباء لتحقيق الفكرة العلمية فى عالم الادب فحملوا حملة هائلة على المذهب (الرومانتيكى) أياكان منبعه وسموه للناس كفن قائم على المبالغة فى وصف العواطف والولع بمحسنات البلاغة وجنون الطرب اللفظى والتحليق الشعرى فى اجواء لاصلة لعالمنا بها والتمويه على النفس باحساسات تبتكرها مخيلة الكاتب ولا يحس منها قلبه شيئاً . أراد الادباء التحرر مما نعتوه بأدب النفاق ليحلوا محله أدباً جديداً وفناً جديدا رائده الصدق التام وقوامه النظرة العلمية البحتة أي تصوير الواقع دون سواه ووسائطه نفس وسائط العلم أى الملاحظة والاستقراء والتحليل .

نشأت من هذه الثورة مذاهب (الريالسم والناتور السم) وكان من أبطالها فلوبير وتاكرى وزولا وموباسان والاخوة جونكور واضرابهم أولئك الذين اجتهدوا في رسم الطبائع الظاهرية والعادات الشائعة وما يبدو على سطح الشخصيات البسيطة العادية من أخلاق عارضة وما ينتاب المرء من شعور واحساسات أساسها في تركيبها الجثمانى ومرجعها الاول والاخير غريزته الحيوانية وقوانينها

هذا الادب الجديد أعطى فى معظم منتجاته — ولا أقول كلها — صورة عن الحياة قاتمة الالوان ضيقة الجوانب محدودة الفسحات نزلت بالنوع الانسانى الى مستوى ، الفطرة المسيطرة الوحشية كأن ليس هناك علم ولا حضارة ولا ثقافة وراثية أثقلت طبقة من الناس وانمت عقولهم ولطفت مشاعرهم وألهبت مخيلاتهم وجعلت منهم شخصيات ممتازة مركبة تتصادم فيها عوامل التفكير بعوامل البدن . وكأن الشخصية الانسانية مقصورة فى تصرفاتها على أحكامها الفيزيولوجية وكأن خصائص الدماغ البشري كالذاكرة والمخيلة والفكر لاتعمل جنباً الى جنب مع الحواس فى تكوين الميول والاهواء بل كأن وظيفة الادب أصبحت عند البعض منهم كزولا وجونكور مثلا ولا غاية لها سوى الاغراق والتفنن فى وصف أفراد منحطين هم فى الواقع حثالة المدنيات

وإن من يرجع الى أعمال هذين الكاتبين (كالارض) و (هفوة الاب موريه) و (البغى اليز) و (جرميني لاسرتو) ثم يقارن بين ما كان عليه الفن القصصى منذ نصف قرن وما آل اليه اليوم لتستولى عليه الدهشة ويتملكه العجب لفرط مايشاهد فى ذلك الادب من أسفاف الوحى وفقر التحليل وضآلة التفكير وانعدام الذوق وتسلط ابحاث (كلود برنار) الفزيولوجية على الادباء تسلطا جعلهم يسخرون لتأييدها أبطال قصصهم

ويسيرون بموجبها حركاتهم وسكناتهم حتى أضحى أدبهم مجموعة تصويرية من مجاميع العلوم الطبيعية

لم يكن في استطاعة هذه الانواع الادبية أن تعيش طويلا لما كان يعتورها من نقص فاحش فى درس الشخصية الانسانية فقامت عليها قائمة المجددين من الكلاسيك (كاناتول فرانس) ودعاة المذهب التحليلى أمثال (بول بورجيه) و (هنري جيمس) أولئك الذين استعانوا بآخر مكتشفات علم النفس وأحدث تجارب الفزيولوجية والذين تتلمذوا على (ريبو) و (شاركو) وطالعوا بامعان تواليف الأول فى أمراض الشخصية والارادة والذاكرة وابحاث الثانى عن الهستريا وأمراض الجهاز العصبي . ثم أقبلوا على الادب فى مناعة علمية جافة يخلقون الشخصيات المركبة العقيمة التفكير المضطرمة الوجدان المعقدة العواطف ويرسمون أزمات الميول من وجهتيها النفسانية والبدنية كمثل أعلى لما يجب أن يكون عليه الفن العلمى الصحيح

الا أن طابع هذه المدرسة العلمى ومنطقها الفلسفي كان يحدوها لرؤية النفس البشرية ومحاولة درسها عن طريق العقل وحده . عقل العلماء وعقل الفلاسفة دون ما استعانه بمخيلة الفنان ونقائها .

لذا فقد جاءت شخصياتهم التى أرادوها معقدة مركبة كالشخصيات الحية ذات اتساق غريب فى تصرفاتها ووحدة نفسانية مدهشة فى تطوراتها ومنطق على تحليلى فى أفواه أصحابها هو فى الحقيقة منطق المؤلف نفسه الذى اهتدى بهديه ساعة الخلق دون وظائف الفنان الاخرى . هؤلاء الادباء شرحوا لنا أعراض شخصيات أبطالهم فى تناسب ونظام أحال النفس الانسانية كتلة واضحة الاجزاء كآلة ميكانيكية . هم قد عبروا عما يدور بها من خلجات خفية ، ولكنهم لم يرسموا حالتها السرية أثناء مرورها بهذه الخلجات . لم

يرسموا ذلك الجو المكفهر الذي تتناوبه الاحلام والرؤى والذي لاتلبث أن تنتابه عاطفة حتى تتلوها أخرى كموجات البحر ليس لها انتهاء.

لقد كانوا علماء فحسب أما فنانون فلا. وعلى ذلك كان لابد من تلقيح هذا الادب بلقاح جديد لتزدهر فيه خصائص الفن الصحيح وإذ ذاك جاءت المدرسة الروسية وعلى رأسها تولستوي ودستويفسكي وجوركي وجوجول تطالب بالفن الحر وتنادى بأن مماشاة علم النفس فى اكتشافاته والخضوع لاحكام الادب الكلاسيكي كالمنطق والقياس والوضوح والاعتدال ليست من شروط الفن الابدية المطلقة. وان الاصل فى عملية الخلق الفنى هى الغريزة لا العقل وان الاديب الفنان العبقري رجل مشحوذ الاعصاب خاضع لمزاجه يرى ويشعر باحساسه فى لحظة مالا يراه العقل فى سنين — وأن كل مايصادفه فى حياته من الظواهر المرئية أو الانفعالات النفسانية ينطبع فى مخيلته رغما عنه ويرسب في قرارة روحه على كره منه. فاذا ما اعتزم الخلق هوى فى شبه نوبة نورانية من نوبات الصرع تتفتق تحت تأثيرها وظائفه الخالقة فيفيض على شخصه روائع لم يكن ليحلم بها هو نفسه

هذه النظرية هى التى سادت الادب فى أواخر القرن التاسع عشر. على أنها لم تكن جديدة بالمرة بل على النقض عتيقة جداً أبدية كالعبقرية نفسها. وقديماً كانت تتمثل فى دانت وشكسبير ورابليه وموتانى من رجال الرينسانس وبلزاك وبتهوفن ورامبرانت من المتأخرين غير أن أوربا التى رزحت تحت وطأة العلم ولم تعد تنبت بوفرة أمثال ذلك النوع من العبقرية كادت تظنه قد انقرض وتلاشى. لذلك هللت لمقدم الادب الروسى وعدته بمثابة المنقذ لفنها من الفناء في روح العلم.

وهكذا قد يهمل الفكر شأن أمة ويخطىء فى تقديرها لسوء القائمين بشؤون الحكم فيها فتكون هى الأمة المصطفاة التى يشع منها نور الخلاص على العالم باسره

بين النبوغ والعبقرية

اذا لم يكن الناقد المسؤول المتصدر لتحديد مجهود العقل . والقارىء الاديب الشغوف بالاطلاع والبحث . على علم تام بالفوارق الطبيعية التى تفصل النوابغ عن العبقريين تعطلت حركة التطور الفكرى واختلط صالح الانتاج بفاسده . وانتشر السخف والهراء فى الحكم على اعمال المفكرين . ودبت الفوضى فى اذهان الجماهير التى يستحيل عليها اكتشاف عظمة حقيقية. وابداء أيما رأى صائب فى مخلوق عظيم . لجهل أغلبيتها الساحقة وخضوعها التام لسلطان الغريزة والعادة والتقاليد والعرف

لذا فالناقد والاديب متى اهتديا فى فحص أعمال العظماء بالقواعد التى فرق بها تاريخ الفكر الانسانى بين النبوغ والعبقرية أمكنهما طرد كل عنصر دعى دخيل واقتلاع كل شهرة طنانة مزيفة وهداية الجمهور لغرر الأعمال الحقة واقامتها فى معزل عن الاقزام فوق صرح الخلود .

وهذه القواعد أو الفوارق الثابتة نبسطها فيما يلى :

النبوغ ضرب من التخصص المحدود . والعبقرية نوع من التفوق العام : فاذا كان أحد الفنانين مثلا . قد سما الى أوج فنه حتى طاول العبقرية فيه . تراه لا يستقر عليه فقط . بل يسرح الطرف فى الفنون جميعاً . محلقاً عليها مكتنها أسرارها مستشفا مكامن الروعة منها . ينقدها عن كفاءة ومقدرة ويصدر عليها أحكاما عنيفة صارمة ولو أنه قد لا يستطيع الاشتغال بها لعدم اتفاقها ومزاجه أو تربيته أو مثله الاعلى

ذلك رجل ممتاز وهبته الطبيعة روح الفن فانفتحت أمامه مغاليق الجمال . اذا ما أحس يوما بضرورة الخلق أخذ فى الكتابة أو التصوير أو الفلسفة أو الانشاد حسب ميله منطلقاً فى عمله كالاعصار العاتى مندفعاً كالسيل

الجارف يكتسح فى طريقه أصول الحقائق و دعائم الحياة . ليلقى بها في قصيدة أو لوحة أو رواية أو مقطوعة كتلة مختلجة حارة هى عنوان الخليقة و رمز الوجود .

أما النابغ فيظل قابعاً في عقر داره مكتفياً بها متطلباً الكمال الممكن فى دائرتها التى اصطنعها لنفسه . و قيد بها ادراكه واحساسه وارادته لهذا يسهل على الناس تقدير النابغة ويعسر عليهم فهم العبقرى إذ العبقري باجلاله لشخصه واعتداده بمكانته واحترامه ذهنه وعدم اسفافه الى مستوى عقلية الجمهور يجبر العالم على النظر اليه نظرة خاصة و يكرهه على اماطة اللثام عنه

غير أن قناع (إيزيس) لا يكشف لغير المحبين الأتقياء المؤمنين ومعظم الناس ملاحدة . يكرهون العبقرية بقدر ما يكرهون عناء التفكير

يقول بعضهم أن العبقرية قد تكون نتاج الممارسة المتوقدة والخبرة الشاقة . والصبر الطويل . وهذا محض وهم يعزون به بعضهم البعض على حقارة معدنهم و فقر طينتهم من لقاح الابد .

فما العبقرية الا نظرة نسرية هابطة من عل تستطلع وتقتنص فى لحظة ما يجمعه النبوغ فى سنين من العمل و الكد . انها تستشعر الحقيقة استشعاراً عاصفا غلابا مفاجئا . لذلك هى أقوي من قانون الزمن . وان ما تدركه فى بارقة لامعة لأعمق تأثيراً وأبعد صدى مما تتهالك على فهمه الناس فى قرون

أنها عدوة البطء و الدربة اليومية الصابرة التؤدة و الرشيدة الحذرة لانها لا تخضع للعقل وناموسه والحكمة و منطقها . بل بالعكس تتجلى فى شآبيب عصبية مباغتة تغمر الكيان البشرى كله . و يندلع منها برق يضرب الجسم بصاعقته فيحرقه ويدمره كى تخلص الروح عنصراً طليقاً جامحاً يشترك والطبيعة فى توحيد القوي الخالقة . وأن من مميزات العبقرية تطرفها فى كل

شيء . وعدم تسامحها فى أى شيء . بل وعدم استطاعتها الوقوف بالاراء جميعاً . ودرسها على علاتها وحبها والعناية بها على السواء كما يفعل المستنيرون من الاجتماعيين أو رجال القانون . اذ هى تبغض المعرفة المستقلة المحايدة الداعية الى التوازن العقلى وحسن التفكير ولا تطيب لها الحياة الا فى الانحياز الكلى لفكرة أو مبدأ أو عقيدة . يقيناً منها باستقرارها على حل نهائى لمشكلة الكون ومعرفتها فى أى جحر يكمن الشر . وعلى أية صحيفة تترقرق الفضيلة وهكذا فهى تتعصب تعصبا قاطعا لما تعتقد فيه خير الانسانية وسعادتها وقد يذهب بها الامر حتى التضحية والاستشهاد فى ابتسامة فوز وأمل : لماذا ؟ لان . العبقرية على حد التعبير الصوفى ليست سوى محبة الله لعباده احتواها فؤاد انسان

الشاعر دانونزيو

تفكيره وفنه

أن اشتراك دانو نزيو فى الحركة السياسية الايطالية منذ بدأ الحرب العظمى أكسبه شهرة عالمية تحدث بها المصريون أنفسهم دون ما علم بقيمة الرجل الحقيقية كشاعر من كبار شعراء أوربا فى القرن التاسع عشر وهذا مانريد التكلم عنه.

أن دانونزيو يبغض العصر الذي يعيش فيه عصر المدنية الآلية النفعية التى هدمت ارستقراطية الاقطاع والاسم لتحل محلها أرستقراطية المال والفتح فهو يكره حقائق الحياة الأرضية اليومية ويتوق الى المناداة بمثل أعلى تخلص فيه الانسانية من ربقة الأنظمة والمصطلحات والفروض التى تعقد فى جو العاطفة سحباً كثيفة تحجب عن الأبصار مظاهر الروح

أنه يبشر بمثل أعلى هو مجموعة الكمالات التى تتكون بعيداً عن العقل فى دائرة الوجدان المحض لا لتخضع للحقائق الحيوية الواقعة وقوانين الطبيعة الابدية ولا لتعرف كيف تسلك حياةها وتعمل بمقتضى نواميسها بل لتستطيع أن تسيطر عليها وتسيرها فى السبيل الأوحد الذى يسهل للفرد التمتع بامتلائه النفسانى التام بمختلف العواطف والأهواء.

ليس دانونزيو بالمفكر الاجتماعى ولا بالرجل الذى عرك الحياة وفرق بين متعدد شؤونها وانتزع منها حكما عليها فخرج بعقيدة روحيه جديدة أو مذهب اصلاحى مبتكر وانما هو فنان طليق حر عابد للجمال فقط يقدس احساسه الخاص الذى يميط له اللثام عن كل ماهو جميل فى الدنيا.

أنه شغف بنفسه مزهو بكبر بانه مجنون بشخصيته مدله بأنانيته يري أن العالم لم يخلق الا له وحده ولاقيمة للكون الا بما يبتعث فى روحه من عواطف زاخرة وما يؤجج فى أعصابه من أزمات نورانية وما يرسله الى مخيلته من شتى الالوان والصور، فهو يتأمل الحياة من خلال وجدانه ويتعمدان يضفو

عليها من حلل خياله مايقصيها عنه و ينكرها فى نظره فاذا أمدته بسيل من الاحساسات لذلك طرح العقل جانباً وراح منطلقا معها مرتطما فيـا متمرغا فى حمأتها معتقدا أنها المظهر الأكبر لقوة الحياة وان انتشاءه بها هو انتشاء بجمال الحياة ، لذلك هو لايعرف قانو نا اجتماعيا أو مبدأ خلقيا أو عقيدة دينية أو فضيلة ساميه الا ماتوحى به العاطفة المسيطرة المطلقة أي القسم اللاتنبهى السلبي فى النفس حيث تخضع الميول الروحية الطيبة والجوانب السامية الالهية في الانسان للفطرة الشهوية الوحشيه الاولى

فتراه يرسل معظم أشخاص رواياته كما فى (الانتصار على الموت) أو (النار) مثلا أجساما مريضة الاعصاب حادة المزاج سريعة الانفعال غرزية الشعور مجردة عن العقل الناقد أضعف ما تكون حيال التجارب الحيوية لا مانع يمنعها من انتهاب أروع لذة واستلاب أضأل شهوة ولو ألحقت بغيرها الويلات بل لو تحطمت من جراء ذلك هى نفسها . ان أبطاله جميعا لايفكرون الافيما يستطيعون تحويله الى مادة شعرية يهرعون اليها كمنجاة لهم من عسف الحياة . التي يشعرون أنها أقوى منهم وأن لاقبل لاذهانهم الخائرة بفهمها واحتمالها فهم يهيمون بتعذيب رؤسهم لاكتشاف أسلوب تفكيرى مبتكر من أساليب الاستمتاع العقلى بالمرئيات ولايأبهون الا للتلذذ بقلقهم واضطرابهم وضعف انسانيتهم تجاه أسرار الكون ولا يطيب لهم العيش الا اذا جعلوا أنفسهم من ضحايا القدر وشهداء الطبيعة وفرائس القوانين البشرية الأولى : كالشهوة والحب والمجد والموت .

يفعلون ذلك على ثقة منهم بانحطاطهم وضعفهم ولكنهم يفعلوه ليظل لهم على الاقل عزاء الخوارج الأبطال ولو فى الرذيلة والشر

الا أن مايميز أولئك الأبطال عن الفئات الحقيرة التافهة من أغليات الناس هو أنهـم يتخذون من أنفسهم مقياسا للعالم فيحتفظون فى صميم فوضاهم

الأدبية ودعاراتهم المشروعة واستهتارهم الوقح بعظمة إحساسية وجلال وجداني يكسبهم نوعا من الكبرياء والانفة ويرشدهم الى ادراك معنى الجمال عن طريق العاطفة فبقدر مايتمادون فى العاطفة بقدر مايتهذبون ويشعرون بمعنى الجمال ويفهمونه ويجعلون منه الفضيلة الوحيدة التى يهتدون بها فى ظلمات الحياة .

غير أن الجوهر النفسانى الغريب فى أشخاص دانونزيو ليس الاجوهراً مفتعلا وهميا ينكر قوانين الطبيعة بارتكازه على التخيل والشاعرية المحضة إذ أن المشاهدات اليومية والاختبارات التحليلية وتجارب العلماء أثبتت لنا أن ليس في مقدور العاطفة أن تختط للحياة سنة قويمة جليلة وان العاطفة تخضع للغريزة بما تنقله اليها المشاعر من تأثيرات ذات صفة مادية بحتة وأن الغريزة لاتفتأ تعمل على تحطيم الفرد فى دائرة الأنانية الشهوية وأن العقل وحده هو الذى بمكنه بتثقيف كامل وتفكير سليم وارادة قوية ثابتة أن يكبح جماح العاطفة ويسيطر على الجزء الفطرى الحيوانى ويخلق فى الانسان فكرة البطولة والمثل الأعلى .

ولكن دانونزيو يطلب تجريد الأدب من التفكير وسيادة العقل أو جعل التفكير من عناصره المكملة الثانوية ملحقا الادب بالصوير والموسيقي والنقش كى يخاطب لفوره حواس الناس ومشاعرهم

وهولا يعتقد أن مهمة الادب هى التعبير عن مختلف الاراء وتفهم شتى العواطف والنظر اليها ودرسها كحالات ترتبط بالقسم التفكيرى فى الانسان بل يريد الخروج على كل مألوف وجعل الادب نوعا من طرب العاطفة الجامحة بما تصادف من أشكال جميلة فى الحياة

فيستخدم لذلك أسلوبا انشائيا عجيباً تتجلى فيه كل مواهبه ويعرف به من بين الكتاب جميعا مداره الجراءة على الاستعارة فى غليان وحمى ومراكمة

التشابيه فى غير وعى أو حساب وصقل العبارة صقلا متزنا تارة يرن رنينا أجوف وتارة يتدفق شعراً وموسيقي وطريقته فى الوصول الى غايته هى ألا يجعل للكلمات كيانا مستقلا والا يحاول أن يترجم بها عن فكرة ما أو يثير بواسطتها أية ظلمة احساسية بل يختار منها ماير وق له فيدبجه وينظمه على نسق يوحى بالعاطفة دون أن يشرحها ويشعر القارىء بتأثيرها دون أن يحللها له أو يفهمه اياها أو يطلعه على دفائن أسرارها فيلتبس الأمر على القارىء ويختلط فى ذهنه جمال الاستعارات والاشكال بصخب العواطف وزئيرها وروعة الخيال وسحره وضخامة اللفظ ووقعه ودوى الموسيقى وهديرها فيتملكه مزيج غريب من الدهش المزعج والافتتان المذعور ويحس تماما بانه لايشاهد الحياة الواقعة بل سرابها الخادع وحلمها الزائل وطلاءها الغشاش فيغلق الكتاب ويخلو بنفسه ويأخذ في التأمل ثم يبتسم ويعجب كيف استطاع الشاعر أن يجعل من وهم الحياة مادة الجمال؟...

الفريد دى موسيه

ضرب من العبقرية

انتهيت من مطالعة « ليالى » موسيه ولبثت أفكر فى ذلك الاحساس الساذج المتقلب وتلك العبقرية اليافعة النارية ، وهاك مااستخلصته :

إذا كان الفن لايزهر الا حيث يكون الحب والحب لايزهر إلا حيث يكون الالم . فتلك نعمة أسبغها الله على موسيه اذ آثر الاتكون حياته عادية متشابهة فافعمها بالميول تخفيفا لوطأتها واسترشاداً بنورها الى مستقر العبقرية ومجثمها

وهكذا استطاع الشاعر أن يذوق لذة التقرب من عروس الشعر المغشاة بالضغائن والاحقاد وأن يستبين تلك الاشباح الآلهية التى تمر مضطربة تحت أشجار الاسى الخالد — كما يقول أناتول فرانس — فابرز العالم ملحاهى النفس وطبائعها . تقلباتها الغريبة ومعاركها المفزعة خاضعاً في ذلك لضرب من العبقرية رهيب لايجاريه فيه سوى (هاينى) و (بايرون) من الشعراء و (برليوز) و (بتهوفن) من الموسيقيين واليك صورة منه :

هناك عبقرية لاتستطيع اعتلاء صهوة الفن والنهوض بخصائصها إلى مثالها الأدبى الأعلى الا اذا رضخت لشبه صرع أدبى . أن تلك العبقرية إذ تتقدم الى عملها الفنى ناشدة فيه دواء أو خلاصا كما يقول (جوت) يعز عليها السكون والتفكير الهادىء فتجف احساساً فينتكس للفور جرحها فتساقط عليه أدمعها كبلسم شاف على جرح ملسوع . فهى تتطلب الاحساس صارخة ولا تستخدم القلم الا لاستفزاز غضب أعصابها واستعادة نوبات شقائها شاعرة بلذة غريبة فى تعذيب نفسها مختارة كالشهداء .

هكذا كان الفريد دى موسيه يستنبط وحى شعره من آلام قلبه وينشد أروع قصائده فى نفس الليلة التى يتحقق فيها أن عشيقته خدعته مع أحب صديق اليه

كان يحب الكاتبة الشهيرة (جورج ساند) وكانت تخونه فلم يكن له ملجأ يهرع اليه سوى قلمه يرسم به على الطرس فاجعة حياته و خيبة هواه

الا أن أغرب مافى هذه العبقرية هيامها باعتلال مادتها و بغضها لتوازنها اعتقاداً منها أن فيه ضعفاً لقوتها ، لهذا هى تنفر من محاسر القواعد الموضوعة إلى أكنان التأمل المطلق حيث ترفرف الروح مختاجة اختلاجا جنونيا . وكأنى بها تأنف أن تعمر طويلا هربا من الشيخوخة التى تقتلها بقتل أحلام الصبي و نزق الصبي وحمى الصبي . فهى تهوى نفسها أبداً صبية مجنحة العواطف لعوب الخلق زئبقية المزاج تشق حكمتها المتوهجة لهيب حنجرتها فتنطلق و قد خنقها الدمع كحمم بركان ثائر

وإذا امعنت النظر فيها الفيتها ترحب بالحياة كيفما كانت باسمة لشرها الابدى غير حانقة عليه ولا راغبة فى اصلاحه يقينا منها أن وجوده متحتم والا لما تمخض ابن آدم عن شي يذكر ولكان معني الحياة مبهما غامضا ولعمرى كيف تكره تلك العبقرية الشر و الألم شقيقه وهى بنت الالم ؟ ألم تشيد على صخرة الألم اسمى احساساتها كالحب والشجاعة و الشفقة و التضحية أجل وأبلغ ماتكون التضحية فيها فأن فى كأس مجدها علقما لانها بينما تخدع في حبها فتبكي و يتعب ذهنها فيتدجى و تترجح كريات عقلها فتنخلع ارادتها وتثور أعصابها فيستفيق خيالها ، بينما تجرى كل هذه العذابات عليها تأخذ فكرتها الفنية فى النمو والنضوج لترسل هائمة كالطائر الغرد فى سبيل الخير البشرى العام !

نظرة

فى الشاعر الهندى تاغور

ولد تاغور في مدينة كالكوتا سنة ١٨٦١ من أسرة بنغالية نبيلة اشتهر أفرادها بالعلم والسلطان . فجده البرنس دوار كانات تاغور كان من كبار متمولى الهند . ووالده المهارشى (الحكيم) دابدروناث تاغور تميز كمفكر دينى . أما هو فنبغ فى الشعر الصوفى وفي كل يوم يرونه لجماعة النساك المتجردين يسبح ساعات طويلة فى تأمل عميق

أنشأ فى مدينة بلبور بجوار كلكوتا مدرسة فى الهواء الطلق يدرس فيها آراءه الصوفية على أكثر من مائتى تلميذ . وهو على وطنيته الملتهبة وتعصبه لقوميته وفخاره بها لا يتردد فى درس الحضارة الاوروبية وعلى الاخص شعراء الانجليز .

بدأت شهرته فى الثامنة عشرة من عمره كشاعر وموسيقى إذ الف مأساة شعرية أعقبها بقصة خيالية . ولكنه لم يعرف تمام المعرفة الا حينما منحته أكادمية استوكهلم سنة ٩١٣ جائزة نوبل للآداب وذلك بعد ن ترجم هو بنفسه من البنغالية الى نثر انكليزى منغم كتابه المسمى (القربان الشعرى) وهو الذي نقلنا فى بساطة تامة عن ترجمته الفرنسيه بعض المقطوعات افى هذا المقال .

كلمة عامة فى شعره

هو شعر رجل شرقى . ومع ذلك فليس فيه أى أثر للصنعة . هذا الشعر لا ينزل الى ذلة المديح وتملقه المخجل المحط بكرامة الشاعر في عين نفسه والناس ولا الى تفاهة الهجاء الخسيس وغطرسته الحقيرة . ولا الى ذلك الضرب لمضحك المبكى من اللعثمة الصبيانية فى التغنى بالوقائع السياسية العارضة . ولا الى ذلك الكلام الضخم المتزن الطنان . الرخو فى وحيه . الاجوف فى مبناه الذي

لا يرسله النظام الا خاضعا لأزمة انحطاط نفسانية هى مجرد حاسة الطرب البربرية بهزج القوافى المتسلسلة فى غير عاطفة ولا فكرة ولا معنى سوي الموسيقي اللفظية المتهالكة المتشابهة المغرية بالسخف و الغباء

هذا الشعر هو شعر التطهر بالدين تكسبه العقيدة الراسخة صدقا فى العاطفة لو انتفي لانتفت معه أولى فضائل الشاعر. أى الايمان

وان الدين بمعناه السائد المشترك وكما تطبقه رجاله و تفهمه الجماهير ليس بدين تاغور، فهو يكره الطقوس الشكلية أشد الكره و يستنكر فناء العقل فى الايمان ايما استنكار و يربأ بانسانيته الكاملة المثقفة أن تتخذ من أوضاع مذهب خاص غاية لها فى الحياة تقصر عليها وظائفها العقلية . وتحد عند تعاليمها خصائص فكرها الحر . كما تستحيل الروح أداة تنعم بجمودها فى ظل اله مخيل يحوطه ضباب اللاهوت أيا كان اسمه ونوعه .

لذا فتاغور لا يؤمن بالمذاهب وعقائدها بل بالطبيعة وجمالها مستشفا خلف مفاتن الكون الزاخرة صور الآله . ناظراً الى الدنيا نظرة العالم الذى لا يدرس الاجهزة الا للوقوف على قوانينها المسيرة الاولى. معتبراً كل ما يرى كسلسلة رموز خاضعة لعدة أفكار تقودها قوانين عامة تعبر فى مجموعها عن الالوهية المستقرة فى كل شيء .

أما الفن ففي رأيه أنه لا يجب أن يستخدم جمال المادة و شعر الوجدان لمجرد التغنى بهما بل لاكتناه ما يحملانه من أسرار الابدية وأغوار ما وراء الطبيعة . فيصبح الفن هو المقرب بين الضمير الانسانى والله .

وهكذا يفيض ايمانه عليه شعراً و بما أن الايمان في الادباء العباقرة قوة سلبية وايجابية معاً تمتزج فيها العاطفة الدينية الموروثة بالعقل الفاحص المميز الخارق . فهو ايمان مدعم على النزاهة و الصراحة والتحقيق و الرغبة الصادقة فى النور . اذا انقلب دعوة دينية أو شعرا صوفياً كان رائده الصدق الذى استحثه على المعرفة فى بدء تكوينه

شعر تاغور الغزلى

ان شعر تاغور الغزلى هو شعر الشباب . شعر الوجدان فى طوره الابتدائى ، اذ يسيطر على النفس فلا يستكشف تحت كل عاطفة سوى مبعثها الظاهرى الاول المحسوس من جمال الرسوم والاشكال . فينطلق والمادة مرحا . مشدوها بها . متيماً بجديدها مبهوتا لغرائبها . لا يقر قراره حتى يشدو بها شعرا . مخلدا فتنتها للناس وله . غير أنك مع ذلك تلمح من خلال غليان عاطفته وتدفق دم الصبا الى شرايينه . واندلاع نار الشهوة فى جسمه والتماع مخيلته بصور المرئيات انبثاق نور الحكمة فى عقله . كنتيجة محتمة لشاعر يحمل بين جنبيه شخصية فيلسوف ناشىء تلازمه فى لذائذه . وتعد عليه ميوله . وتعكر صفو هناءه . وتحاسبه بمقتضى قانون مثلها الاعلى ويهرع اليها كمنجاة إلهية فى أشد الازمات الشهوية قسوة وجبروتا واليك مثل ذلك .

« أنى ممسك بيديها . أنى أضمها الى قلبى . »

« أحاول أن أملأ ذراعى من جمالها »

« أن أرشف ابتسامها اللطيفة تحت قبلاتى »

« أن أشرب فى ظمأ نظرتها القاتمة »

« وأسفاه ! أين كل هذا ؟ »

« من يمكنه أن يعكر زرقة السماء ؟ »

« أريد أن احتضن الجمال فيفر منى ولا يبقى سوي الجسم وحده بين يدي »

« فأستطرد مسيرى خائبا تعبا »

« كيف يمكن للجسم أن يلمس الزهرة التى لا يمكن الا للروح وحدها أن تلمسها ؟! »

أنه يمزج عنف الشاعرية الوجدانية بعنف الشهوة الجسدانية ولكنه لا يكاد يتوه فيها حتى يستشف قرارتها فيشرف على العدم فيراجع نفسه

فينقلب احساسه الشهوى الى ظما لن يبل أبدا . أو الى أسى مرير ممزق لا يعرف الخلاص منه الا بالارتماء فى حضن الله الذى يسع كل حب ويعزي عن كل ألم . كقوله :

« ان قلبي يا حبيبتى يحترق ليل نهار فى سبيل أن يلقاك كما يلقى الناس الموت المفترس »

« فلأكتسح بك كما اكتسح بعاصفة ! »

« خذى كل ما أملك . خربى نعاسى . وانهبى احلامى . واستلبى حياتى »

« ولنصبح بدمار نفسى . وعرائها التام . مخلوقاواحداً من جمال ! . . . »

وأسفاه ! باطلة هى رغبتى ! »

« أين الامل فى اندماج تام الا فيك أنت يا الله ! »

وأنه لسواء عنده أن يبنى قطعه الغرامية على أتفه الاشياء أو أعمقها . لوثوقه بصلاحية أي جمال للشعر . وعدم استصغاره ما يبدو للتافة صغيراً بل وعدم استطاعته الاعتقاد بأن فى الكون ذرة تحتقر . أو خيال ينبذ . أو لحظة من عمر العالم انصرمت غير محملة من الافراح والاتراح ما قد اجترف حياة الملايين من البشر فهو يقيم أناشيده على حالة نفسانية أو فكرة فلسفية أو على مجرد الوصف الحسى أو المعنوى أو على حكاية وجدانية ينخصها فى مقطوعة أو على شبح امرأة مخيلة يطبعها بطابع جنسها فى حركة بسيطة من حركاتها فيخلدها كأنها رمز لبنات حواء . مثال ذلك هذا الموقف بين عاشقين

« قال فى غمغمة : ارفعى عينيك يا غرامى »

« فعنفته وقلت : اذهب ، ولكنه لم يتحرك »

« ظل تجاهى وابقى يدى الاثنتين فى يديه فقلت : دعنى ولكنه لم يذهب »

« قرب وجهه من وجهى . فنظرت اليه وقلت : يا للعار ولكنه لم يأت بحركة »

« لمست شفتاه خدى فارتعشت وقلت أنت تجسر على الكثير ولكنه لم يخجل »

« وضع زهرة فى شعرى فقلت عبثا تحاول ولكنه لم يضطرب »

« أخذ عقد الزهر من عنقي و ذهب »

انى أبكى ، اسأل قلبي : لماذا لا يعود ؟ !.. »

هذه المقطوعة لا أظن أن فى أدب أوروبا كله ما يمكن مقارنته بها ففيها موسيقى جديدة ناشئة عن طريقة مبتكرة فى الحبك وتدرج فى التأثير بسيط منطقى متسق ينتهى بانفعال نسوى كثير مشهور بين نساء الهند خاصة والشرق عامه

هذه المقطوعة وأمثالها كان لها أبعد أثر فى الأدب الاوربى حتى أن بعض أكابر شعراء فرنسا المعاصرين أمثال (فرنسيس جام) و (بول فور) قد استمدا منها وحياً شرقياً جديدا لاسيما الاول . وان تاغور ليجمع فى غرامياته الى صفات الشعر الشرقى الوراثية كالرقة والجذالة والعذوبة والحكمة والشهوة والدعابة ، صفات الشعر الغربى أى الولوع بالصدق ، والامانة فى الاداء وغريزة التحليل و البساطة فى العمق وتأهب العاطفة الدائم واستعداد الذهن المفكر لاقتناص الملاحظة . كل ذلك من غير تعمل ولا افتعال ولا كلفة بل بالعكس فى اطار من السذاجة والبراءة الى حد عقلية الطفولة الساحرة وأنك لتجد هذه الاوصاف ناصعة فى هذه القطعة :

« أيتها المرأة . لست ملحة الله فقط . بل ملحة الرجال أيضاً »

« فهؤلاء يزينوك من جمال قلوبهم »

« الشعراء ينسجون وشاحك من خيوط هواجسهم الذهبية و المصورون يخلدون شكل جسمك »

« البحر يعطى لآلئه . والمناجم ذهبها وحدائق الصيف أزاهيرها لتجملك وتجعلك أثمن مما أنت عليه . شهوة الرجل تجلل شبابك بالمجد »

« أنت نصفك امرأة . و نصفك حلم !... »

أو هـذه القطعة أيضاً وهى من أعمق وابدع ما كتب وفيها تخاطب امرأة حبيبها ..

« انى أحبك ياحبيبى . سامحني على حبي . كنت عصفوراً ضالا فأخذتنى ..

وزعزعت قلبي حتى سقط عنه قناعه . فأغمره بالشفقة يا حبيبي وسامحني على حبي ؟ . »

« إذا لم تستطع أن تحبني يا حبيبي . فسامحني على ألمي . لا تنظر الى عن بعد بازدراء فسأقبع في زاويتي. وأظل جالسة في الظلام أحجب عاري بكلتا يدي ؟

فلا تلو بوجهك عني يا حبيبي وسامحني على ألمي »

« اذا أحببتني يا حبيبي . فسامحني على فرحي ومتى رأيت قلبي وقد اجتاحه سيل السعادة فلا تبسم لاستسلامي الخطير ومتى رأيتني جالسة على عرشي استبد في حكمك يا غرامي وامنحك كالهة نعمي . فاحتمل كبريائي يا حبيبي . وسامحني على فرحي ! . . . »

٠٠٠

كل هذه المقطوعات فيها جمالها الخاص غير ان ما يستوقف الاديب المطالع اعجابا ويستفز الناقد حماسة وتقديراً بلوغ تاغور في غرامياته الاوج الاعلى في التوفيق بين الطريقتين الأديبتين الكبيرتين الطريقة الذاتية . والطريقة الموضوعيه فهو وقد أزمع الهبوط بالكون . والاقتران بالطبيعة . فاطلق أعصابه من عقالها . وأرسل احساسه على سجيته . وترك أهواءه تنساق في الحياة ملتحمة غرائزها بعناصر الفناء والبقاء يظل متمالكا روعه ، مرهفاً عقله حافظاً توازنه مرصداً روحه . مرتقبا نزول أعمق الحالات النفسانية بها حتى اذا ما وقع على أبلغها خطورة . وأجلها قيمة . وأبعدها مرمى وصدى انقض عليها وتشبث بها . وأخذ في اكتناه أفاعيلها وتحليل أطوارها الى أن ينفذ في صميمها حيث تشترك اعراض نفسه باعراض نفوس الناس جميعا . فيحيلها عندئذ من حالة تاغورية خاصة الى حالة انسانية عامة يحس بها كل انسان وتقر رحقائق ثابتة في كل روح . واليك شيئاً من ذلك وفيه يخاطب الشاعر حبيبته :

«نظرتك القلقة حزينة

«تحاول معرفة فكري»

«كذلك القمر يريد أن ينفذ الى البحر هو أيضاً»

«انك تعرفين كل حياتى . فما أخفيت عنك شيئا»

«لهذا انت تجهلين كل شيء عني»!

«لو أن حياتى كانت جوهرة كريمة لحطمتها مائة قطعة وصغت لك من هذه الاجزاء عقدا أضعه على عنقك»

«لوأن حياتى كانت زهرة لطيفة صغيرة لاقتطفتها من فرعها كي أضعها فى شعرك»

«ولكن حياتى قلب ياحبيبتي . فأين حدود القلب؟»:

«انك لاتعرفين حدود هذه المملكة . ومع ذلك فأنت ملكتها»

«لوأن قلبى لم يكن غير لذة لابصرته يزهر فى ابتسامة سعيدة ولا كتنهت أمره فى لحظة»

«ولوأنه لم يكن غير الم لذاب دموعا يعكس عليها سره دون ما كلمه»،

«ولكنه حب ياحبيبتى !...»

«لذته وألمه غير محدودين كما أن بؤسه وغناه أبديان.»

«أنه قريب منك بقدر ماهى قريبة منك حياتك.»

ولكنك لن تعرفيه بجمعه أبدا !...»

***

ومع ماتقدم فان كمال هذه القطع لايرجع الى ملازمة العاطفة فيها التفكير ولا لانها تكون وحدة احساسية فكرية متماسكة الاجزاء فحسب . بل لانها تحمل فوق هذا وحدة موسيقية غمرت الوحى الشعرى منذ بدء انطلاقه ومازجت أنغامها المهللة أول اندفاقات القصيد مسبحة بما يقتلعه فى سيره من جذور الحياة . هذه القطع اشترك فى خلقها الوجدان والعقل وموسيقاهما . أى روح الاشياء ومعناها ورنينها

ثم أن لتاغور بعد اذ برسم أزماته النفسانية الكبيرة ولع خاص برسم هدآته القلبية اللطيفة التى لا تخامره الا حين يحس أنه اكتنه الحياة تماماً وأنها مودعة فى صدره وأنه يحنو عليها وأنه والعالم سواء فتراه يروح فى نشوة قريرة ويستغرق فى شبه حلم ملائكى . ويسبح فى روعة تمجيدية عابدة ويتوه فى فرح فاتر لين محمولا على موسيقى أعصابه تتقاذفه موجاتها بيناهو فى صفائه الطاهر المحلق ينظم شعراً مسير الحياة الساكن وأطراده الساخر المتشابه ولحظاته البسيطة . الهاربة الى العدم فى صمت المنصبة بهدوء فى الابدية وهذا هو المثل الاخير وفيه يخاطب الشاعر الجمال :

« فى لجب الحياة وأعصارها · تظل أيها الجمال المنحوت في الصخر أصم هادئاً مستوحدا بعيدا »

« عند أقدامك يغمغم الحب الابدى قائلا تكلم ! »

« كلمنى يا معبودى . تكلم ياحبيبى ؟ »

« ولكن ألفاظك تظل فى الحجر جامدة أيها الجمال العديم الشعور ! »

ooo

شعر تاغور الصوفى

لقد درس تاغور مختلف المذاهب الفلسفيه الهندية ووقف على تأثيراتها العميقة فى العقائد والشعائر الدينية . فاولع بها وتملكت نفسه . وسرت فى شعره فكان أصدق معبر عن نفسية قومه وعقليتهم وأنك لتستطيع متى عدت بقصائدة الى ينابيعها الأولى أن تتبين العناصر التى اشتركت فى تكوين الرجل وتفهم سر عظمته ومقدارها وتدرك فى النهاية أن عبقريته ليست الافلسفة جنسه ـ ولا أقول دين جنسه ـ استوعبها الفنان عن طريق عاطفته المتقدة فاشربها خصائص وجدانه وأضفى عليها حيوية خياله فانطلقت شعرا . لم يكتف به الشاعر كمجرد انشاد تستكن فيه أبدع أمثلة الجمال ، بل حوله الى

حقيقة عملية يعيش بمقتضاها كما عاش فلاسفة الاغريق كى يوفق بين مستلزمات الحياة اليومية وقوانين المثل الاعلى

وهذه الحال يمتاز بها تاغور عن شعراء الغرب المعاصرين أيضا وهى أنه لا يحس بالشعر فقط بل يطبقه ويعيشه . وان شعره فى الواقع حقيقة حية . لاتفصل الانسان الدنيوي عن الانسان الروحى كما هو المشاهد الآن فى معظم شعراء أوربا . أولئك الذين يتأثرون بجو حياتهم العنيفة ونظام مدنيتهم الآلية التى تقصيهم عن المعيشة الطبيعية وتفرق ما بينهم وبين عناصر الكون الاولى فيضطرون بالرغم منهم لشطر شخصياتهم شطرين : أحدهما يباشر الحياة الدنيوية وأوضاعها العامة والآخر ينطوى على نفسه أشد الانطواء معتمدا على أسرار روحه وأفاعيل وجدانه فى استنباط وحى الشعر لذلك كثر عندهم الشعر التحليلى وقل الشعر (الليريكى) الوجدانى الحماسى كما قلت الملاحم أيضا . ان لم نقل أنها انعدمت تماما حتى ان الحرب الكبرى وهى أروع ملحمة عرفها التاريخ لم تجد فى الغرب شاعرا (كهوميروس) أوشبه هوميروس يخلدها من الوجهة الانسانية المحضة

ولقد كان (لليوبانيشاد) كتاب الفلسفة الهندية الاول اشد تأثير فى تاغور . وأنه لمن الواجب ان نتقدم بكلمة عنه لتسضىء على نوره القصائد

ان اليوبانيشاد يبحث عن سر الفرد فى روحه . ويقول بتجريد الانسان من مظاهر الحياه الباطلة . كى ينبثق فيه المخلوق النقى أو الجوهر الاوحد العام الذى يسمونه (براهمان) وهذا الجوهر هو الحقيقة الاخيرة التى يستحيل وجودها فى العالم الخارجى ذى الظواهر المطردة لزوال . وانما يمكن الوصول اليها بالروح التى يسمونها (اتمان) ولكن هذه الحقيقة الباطنية ليست كالحقيقة التى ينادى بها فلاسفة الغرب أى كمال الشخصية العاقلة المتنبهة العاملة . بل هى بالعكس فناء الشخصية المفكرة فى القوة الالهية التى تهبها التفكير أو ملاشاة

الشخصية فى ينبوعها اللاشخصى . أو ركون الشخصية المطلقة للجانب اللاتنبهى فى النفس الذى يمثل قوة الله والذى لايمكن للعقل معرفته والاتصال به الامتى اندمج فيه أي فى الله ، اندماجا تجرديا صوفيا تاما . غير أن تاغور وهو الشاعر المفكر الفنان الذى يشتار من عسل الفلسفات مايتفق ومزاجه وشاعريته وعقله لم يكن ليقف عند اليوبانيشاد أو يطمئن لتعاليمه القائمة على انكار حقيقة الوجود الانسانى مادامت تقول ان المظاهر الدنيوية محض خيالات يولدها على سطح النفس وهم الحياة . وان العقل ليس فكرة مدركة متنبهة عاملة بل قوة سلبية غير محدودة بقدر مااستقلت عن العمل اليومى بقدر مادنت من قوة الله .

أجل لم يطمئن تاغور لمثل هذا التفكير . وراح يجوب الفلسفة الهندية كلها عله يصادف مايستقر عليه فدرس مذاهب (الفيشنويين) أهل القرن الثانى عشر للميلاد (كرامانوجا ونيمباركا) فالفاهما ينقضان تعاليم اليوبانيشاد ويقولان بان المادة أو (الجادا) و(الروح الفردية) أو (الجيفا) حقائق واقعة ثابتة لا أثر للوهم فيها .وان روح الانسان ليست جوهرا فرداعاما كروح الله بل هى بحكم تكوينها منفصلة عن الله انفصال الخليقة عن الخالق .فاصغى تاغور لهذه التعاليم واودعها قرارة نفسه .الا أنه عز عليه انكار اليوبانشياد فواصل ابحاثه حتى اهتدى الى الزعماء النهضة الفيشنوية (كراماماندا . وكابير . وستانيا) أولئك الذين أثبتوا بدورهم أيضا عظيم الفارق بين الخالق والمخلوق ولكنهم أرادوا التوفيق بين مذهبهم ومذهب اليوبانيشاد فاستعانوا بتعاليمه وابتكروا أسلوبا فى العبادة جعلوا به الدين حرا من الرموز والعقائد والطقوس وحولوه الى ضرب من (الحب الصوفي) يجمع الانسان بالله مهمين عليه الا أنه محب له رؤوف به . وهذا الحب الصوفى الآلهى هو مايتغنى به تاغور في أمثال هذه القطع التى يخاطب بها ربه : ـــ

« حين تأمرنى بالانشاد يخيل الى أن قلبي يجب أن يتفطر كبرياء»

« فانظر الى محياك و يتوارد الدمع الى عينى »

« كل ما فى حياتى من نغم أبح غير متناسب يذوب فى أنشودة فردة منسجمة صافية ، و تنشر عبادتى أجنحتها كطائر في فراره على عرض اليم »

« انى عالم بأنك تجد لذة فى نشيدى »

« انى عالم بأنى لن أحظى بالمثول فى حضرتك الا كمنشد فقط »

« ان نشيدى المبسوط عن آخره يلمس بطرف جناحه أقدامك التى كنت قد يئست من الوصول اليها »

« و هأنذا في نشوة الفرح بالانشاد أنسى نفسى و أدعوك يا صديقي أنت الذى هو ربى ! . . »

° ° °

« نهر الحياة الذى يركض ليل نهار فى عرض شرايينى هو بعينه الذى يركض فى عرض العالم و يرقص نبضات منسجمة »

« هى نفس الحياة التى تدفع بفرحها من خلال تراب الأرض أعشابا لاتحصى و تنفجر أمواجا جائشة من أزاهير و أوراق »

« هى نفس الحياة التى يؤرجحها المد والجزر فى الاقيانوس الذي هو مهد الميلاد و الموت »

« أحس أعضائى ممجدة بلمسها هذه الحياة العامة و يتملكنى الكبر ، لأن خفق حياة العصور العظيم هو الآن يرقص فى دمى ! »

° ° °

هذه القطع الملتهبة تدل على ان تاغور طموح النفس جدا نهم الوجد ان يحاول ان يضم اليه الحياة بأسرها . وترى هذا الاحساس يتملقه و يستحوذ عليه الى درجة تقرب من الفكرة الثابتة . الا انه ينساق اليه فى اتضاع و حب

وتق ليستبين بعظمة الله و بالتالى ضآلته هو . فهى أحس بهذه الضآلة لم يبدها فى ذلة و ابتئاس وصغار بل يرسلها نشوة بالطبيعة وفرحا مخبولا كلما تمادى فيه مجد نفسه وجن بها ، لا عن زهو با كتشاف الحقيقة بل عن اعتراف بما فيه من قوة الله فيعود تمجيده لنفسه تمجيد الروح الله

وهذه قطعة أخرى يحرر فيها الشاعر الدين ويقدس واجب الحياة ويدمجه فى عمل الخالق :

« أترك سبحتك ! دع نشيدك و تراتيلك ! »

« من تظن أنك تكرم فى هذه الزاوية المظلمة المقصية من معبد موصدة ابوابه جميعا »

« افتح عينيك . ترى أن الهك ليس أمامك »

« إنه هناك . حيث يحرث الفلاح الارض الصلبة »

« إنه على قارعة الطريق حيث يكد محطم الاحجار »

« إنه معهما فى الشمس وتحت شؤبوب المطر »

« ان رداءه مغشى بالتراب »

« انزع رداءك الورع وانزل مثله أنت أيضاً فى التراب »

« الخلاص ! أين تظن وجود الخلاص ؟ »

« ألم يحمل أستاذنا نفسه أغلال الخليقة عن غبطة فتقيد بنا أبدا »

« أخرج من تأملاتك ودع جانبا أزاهيرك وبخورك »

« قد تتمزق أثوابك و تتلطخ.ماذا يهم ! »

« اذهب فجاوره و تقرب اليه بالعمل وعرق الجبين ! »

وهكذا تتلخص تأملات تاغور الكونية و أزماته النفسانية فى أنه يظل فريسة الحيرة و القلق و التخمين ينهشه عذاب الانتظار . و لا يزال يبحث عن ربه خلف الكائنات مرتقبا ساعة الاندماج التام . فمتى وافت هلل فرحا

و انتصارا بفيض الالوهية عليه شاعر آبانه كانسان قصيدة العالم الكبرى وأنه مادام أكمل مخلوقات الله طرا فلا بد أن الله يشعر بعظمة خليقته فيه ولابد أن يكون هو ضمير الله ...

لذا فقد فاه فى كتابه (السادهانا) بالكلمة المأثورة : إننا حين لاتكون معرفتنا لكمال الوحدة الالهية معرفة عقلية مجردة بل شعورا يستشف به كياننا جوهر الاشياء النورانى. عندها تستضىء بالفرح نفوسنا ويعم الحب كل شىء !

العقلية العربية

بينما كتاب مصر يحسون تمام الاحساس بخطورة العقلية الشرقية القديمة. ويلمسون فى تضاعيف النهضة الحاضرة رغبة صادقة فى الخلاص من المصطلحات والعقائد والنظم الرجعية الآسنة فيحاولون السعى بما أوتوا من مواهب لتحرير الفكر وتجديده وتلقيحه بخصائص الثقافة الاوربية سواء أفى المقالات أم في الابحاث أم فى الروايات القصصية أو التمثيلية . يظل شعراؤنا فى المؤخرة جموداً ضاربين حول أنفسهم نطاقا محرماً لجماعة الفقهاء واللاهوتيين يتعهدون فى نفوسهم ملكة النظم على أهازيج الحداء البدوية باستظهار مايمكن استظهاره من شعر العرب موقنين أن الحافظة المشحوذة المتوقدة المحملة بآثار السلف الصالح هى وحدها مثار العبقرية الشعرية على اختلاف أشكالها وميولها

إنهم يعودون أنفسهم بمجهود آلى مدهش الانتشاء بتسلسل القوافى المتشابهة وانصبابها فى رنين لفظى واحد . ولا يخطر لهم ببال أبداً بل لايخالط وجدانهم لحظة إن هذه الموسيقى المتشابهة أنصع ما تكون دليلا على سذاجة فطرية وغباء غرزي وهمجية متأصلة كعلالات الأطفال أو ألحان البرابرة

ثم هم لايفطنون إلى أن كل فن محدود الرسوم ثابت الأشكال متشابه الأجزاء ينبىء عن جمود فى الفكر وضعف فى قوي الابتكار واستمتاع بضرب من الركود المعنوى منه نشأ هذا الفن ؛ لالشىء سوي مجرد الترفيه والتسلية وقتل الوقت ومداراة عوامل اليأس والضجر . وأن من ينعم النظر ملياً فى الينابيع التى يستمد منها معظم شعرائنا وحى قريضهم لايكاد يتبين فيها أثر الحياة الحره بل هو على النقيض يلمس تكراراً مملاً شيناً ؛ وتحديا

غريباً مزريا لما قاله العرب ورددوه في عصور مضت ، بل ويلبس فوق هذا تدلها سخيفاً وعبودية عمياء لما اتصفت به العقلية العربية فى الهاماتها الشعرية من عيوب جعلت أدب العرب ضد الفن أى ضد الحياة ، كالحذلقة اللفظية الطنانة الجوفاء ، والمبالغة المضحكة فى الاوصاف والجرأة على الاستعارة البعيدة عن الواقع . والجنون بالخيال الذى عوض أن يقرب اليك الحقيقة يقصيها عنك جهده . والولع الشديد بالكذب وادعاء العاطفة دون الشعور بها . والفرار من رسم أفاعيل الوجدان وتقلبات النفس وأطوارها واعتقادهم المتوارث أن الشعر شيء والحقيقة شيء آخر . وأن خصائص العقل كالروية وإحكام النظر وصدق الملاحظة لا تتفق والفن الشعرى الذى يجب أن يكون فى عرفهم مجرد تخيل غشاش لصور وعواطف لا وجود لها الا فى مخيلة شاعر دجال

كل هذه المميزات المشهورة — ويجب أن نفهم ذلك ونسلم به — هى التى تستهبط منها غالبية شعرائنا وحيها ، وهى التى لا يمكن باى حال من الاحوال أن تعد فناً سليما . اذ الفن الاغريقي الذى عنه أخذت أوربا وتأخذ حتى اليوم لم يتأثر به العرب ولم يلقحوا به أدبهم وهو الفن الصحيح لأنه يقوم على رسم الحقيقة وإبداعها مخيلة وفق مزاج كل فنان وهواه . فيصبح الفن حياة جديدة تحبب المرء فى الحياة الواقعة لانها تجملها له وتضاعفها وتميط اللثام عن دفائن أسرارها ومواطن الجمال فيها . فيلحق الفن بالفلسفة والعلم فى تأسيس الحضارات الانسانية وتحقيق المثل الأعلى .

أما الفن العربى — إذا صح أن للعرب فناً — فهو الهرب من الحياة ، هو تخيلها جوهرا غريباً عن حقيقتها . وفى رأيى أن قد نشأ ذلك من أن العربى رجل حاد الشهوة بعيد مطلب الحس جوالة رحالة متفنن فى استغلال قواه البدنية لذة ، والعقلية مرحا ونسيانا . فهو يود الحصول على اللذتين : لذة

الاستمتاع بالحياة الواقعة فى جو شهوى رحب لا قيد فيه و لا نظام، و لذة الاستمتاع بالحياة الفنية المخيلة فى عالم غير عالمه الارضى فيه لذائذ أخرى وشهوات أخرى وغرائب أخرى . فهو رجل لا يتطلب فى الفن رسم الواقع لدرسه و العمل لتجميله و إصلاحه بل هو يعيش الواقع هذا ويستوعبه و يستمرئه و يمتص عصارته حتى إذا مامجته نفسه هرع الى عالم مخيل كاذب كعالم آكل الافيون لا يزال به حتى يدرك قرارته فيعاوده سأمه فينزع إلى ميله الاول وهكذا . . .

وأن من يعرف أن العرب قد تأثروا بعلوم الاغريق على ضآلتها دون آدابهم وفنونهم وهى التى كانت قد ازدهرت أيما ازدهار و بلغت من العمق والصدق والروعة مالم تبلغه فنون فى أى عصر ذهبى يفهم تماما أن عقيدة العرب فى أن القرآن ليس كتاب دين منزل فحسب، بل كتاب أدب منزل أيضا ، هو الذى حال بينهم و بين استغلال أدب الاغريق وجعلهم يرون الكمال المطلق فى الخلق الادبى بمجاراة الاسلوب القرآنى والنقل عنه والاقتباس منه الى حد أنهم كانوا يقيسون مقدرة الناثر منهم بقدرته على محاكاة البلاغة القرآنية فى صوغ العبارة وصقلها . الامر الذى أحال الادب نوعا آخر من أنواع العبادة تخنق وظائف الابتداع ، وابتلى المصنوعات الادبية بمرض اللفظ والعناية بالمبنى دون المعنى والعرض دون الجوهر فكانت سخرية عجيبة لا مثيل لها فى تاريخ الانسانية ، هى أن الادب العربى منذ الاسلام لم يخرج للناس سوى كتاب عظيم واحد هو كتاب الاسلام نفسه أى القرآن.

شعر اؤنا وجنون الطرب

تنقسم الآداب الاوروبية الى أقسام عدة ترجع اليها وتندفق فيها متجهات الفكر البشرى جميعا بحيث لا يستطيع ذهن أى مؤلف كان الا أن يعمل بموجبها ويتحرك فى دائرتها ويتخذ منها القالب الذي يصب فيه آراءه وخواطره وآماله وكل مايعن له من شؤون الحياه

هذه الاقسام هى فروع الادب عندهم أخذوا معظمها عن الاغريق وظل البعض الآخر يتطور حتى اتخذ شكله العصرى الذي يفي بحاجات الفكر ويقبل جميع وسائل التعبير ومختلف طرق الاداء العقلى والوجدانى. على أن تلك الفروع ولو أنها أصبحت تقليدية ثابتة فهناك عقول مبتكرة تحاول على الدوام تغذيتها بالمستحدث الطريف المودع فى كل نفس عبقرية

وتلك الفروع الحية هى الشعر بمعناه المصطلح العام . والشعر القصصى والدرامة الشعرية والنثرية والتراجيديا . والكوميديا الاخلاقية والقصة المطولة والابحاث النقدية والاجتماعية والفلسفية

تلك هى التيارات التى تنطلق معها وتنساق فيها مظاهر التفكير فى الغرب. فما هى مظاهر التفكير عندنا . وما هى الانواع التى تتجلى فيها مختلف ضروب التعبير الذهنى فى مصر

اننا إذا أجلنا البصر مليا وأخذنا بالتحليل والنقد ماتتمخض عنه القريحة المصرية من أعمال أدبية لابد اننا نحس بظاهرتين متناقضتين أشد التناقض تنم إحداهما عن نفس طليقة وثابة ووجدان متمرد مضطرم وعزيمة فى التجديد ماضيه وعقل قد اشتركت فى تهذيبه الثقافة العربية والاوروبية أنصع مابدو فضائله فى المجموعة النثريه من كتابات (هيكل) و (العقاد) و (طه حسين) (واسماعيل مظهر) و (سلامه موسى) و (على عبد الرازق) وأضرابهم أولئك الذين

يعنون بما اسميه (ألادب النقدى) أي نقد مختلف شئون الحياة بروح عصرى فى قالب مقالات وابحاث اجتماعية ويحاول البعض منهم (كهيكل) مثلا معالجة (أدب الخلق الفنى) بمعناه السائد الآن فى أوربا أى القصص .

هذه هى الظاهرة الأولى وانها لفاتحة النهضة المصرية المبتغاة أما الظاهرة الثانية فعلى نقيضها تماما تتمثل في أغلب الدواوين الشعرية التى تقذفنا بها المطابع كل يوم وفى معظم المنظومات السياسية التى تنشرها لنا الصحف وفى القصائد السيارة التي تتصدع لسماعها اذاننا ورؤوسنا فى المآتم والافراح والمآدب وحفلات التكريم

كل هذه المنتجات الشعرية تطرد فى مجرى واحد خاضعة لقانون التشابه الفكرى الذي تتسم به المصنوعات الأدبيه إما فى عصور الانحطاط وإما فى أزمنة الاضطراب والتحول . ولا يمكن للناقد إلا أن يلمس فيها عارضا ثابتا مهما تشابهت ألوانه وتعددت رسومه فالاصل فيه ضآلة العقلية المفكرة وفقر الذهن المبتكر وانعدام الثقافة الكاملة . وشلل الوظائف الخلاقه المجددة وهذا العارض هو حاسة الطرب البربرية بتسلسل الالفاظ فى اتزان وتنميق ورواء يعنى بالعرض دون الجوهر و المبنى دون المعنى

كان البشر فى أول عهدهم بالحياة يعملون وفق ناموس الفطرة .فيدينون بالعاطفة المطلقة ويستسلمون لحكم أعصابهم عليهم فلم تكن هناك مدنية ولا عقل مثقف يغذي الوجدانات بلبان المعارف كى تبرز العواطف الى الخارج وقد أصقلها التفكير محملة من العمق فى تصرفاتها والخطورة فى افاعيلها ماامتازت به أوقات الحضارة وأزمنة العلم والنور

وكان آباؤنا يطلقون العنان لأحساساتهم ويرسلون النفس على سجيتها الوحشية ويدعون ميولهم تعبّ في سورتها دون ماقيد اجتماعى أونظام مدنى لهذا كان الرقص والغناء أولى الفنون الانسانية وكلاهما محض تسبيح بقوى

الغريزة بل هما من مستلزمات سلطانها إذ هما يشتركان فى تكوين قواها وتنميتها لمساعدة الشهوات فى ثورانها وشحذ الميول فى سورنها واضفاء حلة من الغرابة والنسيان عليها

وحيث أن العقل لم يكن على شيء من التفوق فقد كان الغناء مثلا شبيها بالعاطفه المتسكعة العمياء التى ابتعثته لا يعبر عن خلجات نفسانيه متعددة ولا يؤدى احساسات حيوية شتى بل يخضع هو أيضا لقانون اللذة فيقوم على مجرد الصراخ والصخب والزئير ويظل يتطور شيئا فشيئا حتى يبلغ الحلاوة الشهوية والنعومة المرفهة والاستنامة المخنثة الحالمة. وسائر مظاهر الطرب التى يلذ وقعها فى الاذن ولا يمكن أن تنفذ الى قلب السامع وتحرك نفسه لانها من غريزة الحيوان نشأت والى غريزة الحيوان تعود

ان حاسة الطرب هذه هى رمز الهمجية، عنوان عبودية الانسان لجسمه أتسمت بها نشأة الفنون والآداب جميعا وعمل الحضارة أن تبيدها مااستطاعت الى ذلك سبيلا كما حاول الاغريق بالامس وكما فعلت أوروبا اليوم.

وأنى لألمح تلك الحاسة الخطرة فى أدبنا الشعري كبقية باقية مما رزح تحته أجدادنا فى عصور الجهل والاستبداد والعبودية يثور عليها البعض منا ويضن بها البعض الآخر بل ويحنون عليها حنواً مريضا محولين بها مظاهر الفن والادب الى ضروب استمتاع بدنى. وانه ليكفينا أن نطالع بامعان أى ديوان شعرى عصرى نصادفه حتى نوقن بأن شعرنا وشعراءنا مصابون جميعا بجنون الطرب وانهم فى الواقع لاتأثير لهم علينا لان منظوماتهم الداوية بالهزج اللفظى السابحة فى المحسنات البديعيه تستفز فينا حواسنا فقط فنعجب بها عن طريق آذاننا أما أرواحنا فتظل خاوية من كل عاطفة سليمه صادقة مشبعة بنواميس الحياة ومنطقها.

من من شعرائنا المشهورين يستطيع الادعاء بأنه يمثل الروح المصرية ؟

من منهم يستطيع التشدق بأنه المعبر عن الجنس المصرى والعبقرية المصرية كتاغور فى الهند مثلا ؟

من منهم حاول استبطان مكنونات حياتنا واكتناه سرها معتمداً على ثقافة انسانية واسعة تهيمن عليها وظائف الفنان الفطرية أى قوة الاستشعار وبعد الملاحظه ودقة الاحساس والتحليل ؟

انى أجيل الطرف فيهم فلا أرى من بينهم مصريا واحداً بالمعنى الصحيح . لا أرى منهم من استطاع الاحتفاظ بكيانه العصري وشخصيته كرجل يمرح فى القرن العشرين الاوربى وعليه أن يستفيد منه بل أراهم وقد شطرت نفوسهم شطرين يعيش الواحد وهو البدن بالقرب منا ويحيا الآخر وهو العقل بين جلود المصنفات العربية حتى ليخيل للفاحص مثلا أن شعرانا هم شعراء عرب بعثتهم الصدف الساخرة ليقيموا بيننا لاشعراء مصريين انتجتهم الروح المصرية

أنهم يتوهمون أن لاحاجة لهم بالثقافة الكاملة على الاطلاق وأن لانفع لهم يرجى من دراسة آداب الغرب ويعتقدون أن الفن جوهر حر غير اكتسابى بالمرة ينمو ويترعرع في النفس التى تميل اليه بطبيعتها ومزاجها فتراهم يعتمدون فيما يكتبون على أحساسهم فقط وماتمليه عليهم أفاعيل وجدانهم ومؤثرات مشاعرهم ومختلف عواطفهم المتناقضة المشوشة تجاه شتى أمور الحياة .والفرد منهم مثال الفنان الدعى المزيف الخاضع لازمات روحه الكسيحة لايعرف كيف يفرق بين صالح احساسه وفاسده وبين مايجب أن يبرز الى الخارج وما يجب أن يظل مستكنا فى انحاء الضلوع

لذلك هو يجهل جهلا تاما قاعدة الاختيار والتميز والانتخاب التى تفصل بين الموضوعات وتحدد الجميل منها فتقيمه فوق صرح الفن وتنبذ التافه

والضئيل كما تنبذ الحشائش الطفيلية من روضة متسقة رائعة

ان متعدد جوانب الحياه لا أثر منها في شعرهم البتة . لا الطبيعة الظاهرية باشكالها ولا الباطنية بمختلف ميولها واهوائها حتى أنه ليعتذر على القارىء أن يدرس فى منظوماتهم احدى العواطف الانسانية الكبرى كالبطولة أو الحب أو الايمان وما يتبع هذه الاصول من الاحساسات الفرعية أو المكملة. أن أولئك الناس لا يريدون أن يفهموا أن الثقافة الواسعة أكبر مهذب للغريزة فى عملية الخلق الفنى . وان الفنان بقدر مايكون مثقفا بقدر ماتنجاب عن ناظره السحب التى تغشى علاقات الاشياء ببعضها وان وقوفه على كثير من الامثلة الفنية الرائعة لهو من أشد العوامل فى احفاز غريزته على ابتكار أمثلة جديدة لانه كما يجب أن يستهبط وحيه من الحياة كذلك يجب أن يستهبطه من فنون الانسانية جمعاء لانها في الواقع الحياة مضاعفة، غير أن حقيقة الامر هى أن شعراءنا العظام يفرون من الحياة، يهرعون إلى الادب كمنجاة من الحياة، يعالجونه كوسيلة للتخلص من الواقع فعوض أن يكون مثل الحياة الأعلى يمسى خيالها المزيف

وجملة القول أن الشعر متى كان اداة للاستمتاع والتسلية كان خاضعاً لاحكام البيئة والوراثة فيقوم على جنون الطرب اللفظى والخوف من مواجهة الحقائق الجوهرية التى لابد أن تثور على تلك البيئة والوراثة فتحطمهما تحطيما

فمتى أصبح فى مصر شعراء متحررين من ربقة البيئة والوراثة أرقى عقلية من مستوى تفكير البلاد عندئذ يمكن للشاعر أن يرفع الشعب اليه عوض أن ينزل هو على ارادته . وعندئذ فقط يبدأ تكوين أدب الحياة الحقة على يد ذلك الفرد العبقرى الخالص من قيود الماضى وعبودية الحاضر

فن القصص فى مصر

ظل الادب المصرى حتى مفتتح القرن العشرين أدب محاكاة و تقليد . لا شخصية له البتة يعيش على الثقافة العربيـة عالة ثقيلة يستهدى بتفكيرها و يسترشد بآدابها و يتخذ له من أوضاعها مستبط وحى وعبقرية . . .

كان أدب منظومات و مقـالات يعالج فى النظم وصف العواطف والاحساسات فى دائرة التغزل الحسى و المواعظ الخلقية ، والحكم البدهية و المناسبات السياسية وضروب المديح والاطراء بنفس روح التخيل والمغالاة المسيطر على الادب العربى .

وكان كتاب المقالات يتحدثون الى الناس باسلوب الجدل المنطقى فى مرافق الحياة العامة ويحاولون البحث فى ادوائنا الفردية والاجتماعية وما ينجم عنها للعائلة والوطن من آفات . فكان أدبا نظريا محضاً يصدر على حياتنا المصرية احكاما مجملة تقريرية لا يختلف الواحد منها فى جوهره عن الآخر لانحدارها جميعاً من ينبوع واحد وهو الأدب العربى و الثقافة الاسلامية

كان أدب ارشاد و وعظ واصلاح يفكر فى دائرة التقاليد المخلفة و القوانين الموضـوعة و الاداب الفطرية السائدة فيأمر بالفضيلة المتفق عليها و ينهى عن الرذيلة كما يراها سواد الناس و يظل يندب فى ايمان متحمس ضيعة الاخلاق الشرقية القويمة فى بلد دينى اسلامى . وحسبنا أن نطالع نظرات المنفلوطى مثلا أو معظم جرائد و مجلات ذلك العهد لنوقن تمام اليقين بان ابسط القواعد و الفروض الدينية هى التى كان يستهدى بها معظم الادباء فى كتاباتهم وهى التى كانت تحل يومئذ فى رؤس غالبيتهم محل الثقافة الانسانية الواسعة التى نطالب بها مفكرى اليوم .

ذلك الادب كان يخاطبنا عن حياتنا اليومية فى لهجة رزينة شديدة تحمل صرامة الفقهاء وا كفهرار رجال الدين ولكننا لم نكن نري فيه صورة حياتنا اليومية هذه . كان يحكم بتفشى الرذائل الخلقية فينا وتراخى الروح المعنوية من صدورنا وينذرنا بالشر العاجل المستطير ، ولكنه لم يكن يدعم هذا اللغط النظرى على شيء من الواقع ولم نكن نحن لنستخلصه من رؤية حياتنا مرسومة في أمانة وحذق بمختلف جوانبها النفسانية والظاهرية...

لم نكن فى حاجة لافكار مجردة وحكم مبعثرة وخطب مطولة طالما قرأنا الكثير منها فى تواليف العرب وكتب الدين بل كنا على النقيض فى توق شديد لتتبع هذه النظريات فى حياة الناس ودراسة وقعها العملى فيهم ومعرفة كيف يتصرف الانسان المصرى حيالها وكيف يعيش هذا الانسان وكيف يفكر ويحب ويؤمن . لم تكن تلك الدعوات المطردة الى الفضيلة والخير لتؤثر فينا أو تبدل من نفوسنا أو تحببنا فى الغاء عقلنا الفاحص الحر لانها كانت حملات باردة ميتة لاتتجسم فى اشخاص مثلنا تختلج فيهم ضرورات الحياة العامة ومطالب الحياة المتمدينة الحديثة .

اننا جميعا بسليقتنا المتحضرة التى لوتها فينا روح التطور العمرانى وبضميرنا الشخصى الحر وبقوانين مجتمعنا المتمدين الحالى نشعر فى صميم قلوبنا بقواعد الخير البدهية ولكن ليست المناداة بهذا وليس تذكيرنا به هو الذي يجعلنا خيرين وانما هى معرفتنا كيف تسير الحياة وكيف تتحرك نفسنا البشرية المعقدة تجاه أفاعيل الميول وملاحم الخير والشر . وكيف يمكننا ان نطبق قواعد الخير تلك على حادثات الحياة وماذا كانت تتنافر تلك القواعد أو تتلاءم مع الحياة الحرة الصحيحة التى نطمح اليها ؟ ... ان العالم يدرس الظواهر الكونية ليعرف سرها فيستطيع استغلال الطبيعة فى سبيل الخير المادى ، والاديب يدرس النفس البشرية ليهدينا أيضاً إلى سرها فنستطيع أن نسيرها بعقلنا الحر نحو ما نري فيه الخير المعنوى .

***

شعر بكل ذلك جماعة من شبابنا المجددين وأدركوا أن الادب القصصى المحلق الآن على سائر أنواع الأدب فى اوروبا هو الذى تتوافر فيه هذه المطالب فحاولوا أن يتحرروا من أدب المنظومات والمقالات كما كان يعالجها آباؤنا وان يبتكروا أدبا قصصياً قومياً ينم عن عنصرنا وبيئتنا وأخلاقنا ويكون مجلى الحياة المصرية فى مظاهرها المختلفة . ولقد ظهرت أخيراً فى عالم المطبوعات عدة كتب هى مجموعات قصص مصرية صغيرة آخرها كتاب (سخرية الناى) للأديب محمود طاهر لاشين هو الذى ابتعث فى هذه الخواطر وحدا بى الى كتابة هذا المقال لا لانى أشعر بغرابته عن سائر ماظهر عندنا من القصص ولا لأنى أريد أن أنقده فى صرامة بل لأنى أراه يتشابه فى جو موضوعاته واختيارها كل التشابه مع ماتقدمه من مجموعات قصصية لكتاب آخرين ولو أنه يمتاز عليها بالاسلوب اللغوي وطريقة الاداء.

ان هذا الكتاب هو الأول من نوعه الذى نلمح فيه روح الفكاهة المصرية فى قصص مصرى مشربة بشىء من السخرية الخفيفة فى إطار من الوصف الدقيق لبعض العادات المصرية . غير أنه إذا امتاز بما تقدمو بالشكل الظاهرى أى بالعبارة المصقولة والتركيب المتين فهو يشترك مع سواه من حيث جوهر القصص ومنزعها وفنها . وان وجه التشابه هنا هو ماريد اغتنام الفرصة لنقده والبحث فيه .

***

هناك متجه واحد تنصرف اليه مجهودات قصاصينا وطابع فرد تتسم به محاولات القصص المصرية التى شاهدناها حتى اليوم أرى اننا إذا لم نلفت النظر اليه ولم نتناوله بالفحص والتحليل والنقد تعطلت حركة تطور النوع القصصى عندنا أو تباطأ سيرها أو ضلت السبيل القويم الذي يؤدى وحده لانتاج القصة المصرية الانسانية الفنية .

أن معظم القصص المصرية التى أخرجت لنا حتى الآن لم تلمس من حياتنا الخاصة الا ظاهرها المتقلب و من الحياة العامة إلا طلاءها الغشاش . هى قصص ضيقة الجوانب محدودة الفسحات مدعمة على نقل ما يبدو للعين المجردة من الاخلاق الشائعة و العادات السائدة التى يعقدها المجتمع كالسحب على سطح الشخصية الانسانية فتحجب سرها الدفين عن الابصار

هى قصص تافهة الموضوع دانية المرمى لاتهتم باجتلاء النفس البشرية خلف تقاليد المجتمع و عاداته قدر اهتمامها بنقل هذه التقاليد و العادات و رسمها على علاتها ظناً منها أن في غرابتها ما يصح أن يكون فناً مصريا وأدبا مصريا يتميز عما سواه من فنون الامم وآدابها إلا انى أرى أن العادات الظاهرة السطحية باطلة و المصطلحات الاجتماعية والتقاليد المو روثة زائلة . وأفكارنا وآراؤنا ومانعده اليوم حالا اجتماعية ثابتة سنستنكره فى الغد . إذ الاخلاق والعادات تعمل فى تكوينها المنافع الإقتصادية والأنظمة الحكومية والوراثات الادبية وكل هذا آخذ فى التبدل أمام أنظارنا كل يوم وليس الفن في أن ننقل هذه العادات المتشابهة المدبرة ولا تلك الاخلاق العرضية الراحلة بل فى أن نصور صداها العظيم فى نفس الأمة .

اننا الآن فى مفترق الطرق فلا العقلية العتيقة الآسنة ، عقلية العبيد المتواكلين ، ترضينا ولانحن نشعر باننا نستطيع الانصراف بكليتنا فى حضارة لم نفهمها بعد حق الفهم أو نخشى فهمها . فماذا نطلب ؟ وماذا نريد ؟ وماالذي يعتلج فى صدور شباب مصر . أية الشكوك وأية الافتراضات وأية الآمال ، وهل هناك شكوك وافتراضات وآمال حقاً أم هذر و مجون وعدم احتفال ؟ان قصة شعب تتجاذبه أهواء القديم والحديث ، قصة شعب يتلمس أسباب حياته الرحبة الطليقة ، قصة شعب ينزع الى ضرب من المثل العليا ، قصة شعب تضطرم بين جوانحه الرغبة فى تسلق جبل

الحضارة وتحمل مسؤوليات الحرية ، لهي قصة لم يقرأ فى تاريخ الادب أروع منها وهي التي متى كتبناها فتحنا فى أدبنا المصرى الفتح المجيد

لا أريد بما تقدم أن أحد جو القصص المصري وأقصره على فكرة دون أخرى ولكني أضرب لقصاصينا مثلا من روعة الموضوع وعظم الاختيار وأقول لهم ان محاولاتهم غير مفلحة ولا موصلة الى فن خالد ما دامت تختار موضوعاتها من هوامش الحياة ومادامت تعالج رسم الفرد التافه خاضعاً لاحكام التقاليد والعادات التى تحيله آلة مسخرة لخدمة المجتمع وأغراضه . اذ ليس فى الدنيا فن أدبي صحيح يقوم على تصوير الفرد السلبي وانما الفن كل الفن فى رسم الفرد الايجابي الذي تزدحم في روحه الميول المتباينة وتنعكس فى وجدانه العواطف المختلفة . ذلك الفرد الذى حياته كلها انتقاضات على نفسه والحياة أي سلسلة ملاحم نفسانية متصلة . والملاحم كانت منذ القدم دعامة الادب الحى ومنشأ القصص جميعا . وصفوة القول ان قصاصينا مازالوا فى رواياتهم يتخبطون فى دائرة العادات الشائعة والاخلاق المتواردة ولم يهتموا حتى الآن قط بالنفسيات. فنحن بعد أن نطالع قصة لهم لا نستطيع أن نعرف ما يحسه فرد مصرى فى أزمة من أزماته النفسانية ولا كيف تبدأ فيه هذه الازمة وتتدرج ثم تنتهى ... ان ما يحول اليه القصاص المصرى الناشىء كل قواه هو رسم الانسان الاجتماعى السطحى لا الانسان الوجدانى الباطنى فيختار لذلك موضوعا تافها لا تزدهر فيه الشخصية الانسانية ولا تتصادم فيه متناقضات القلب البشرى . ليس في تلك المحاولات محاولة واحدة نحو العمق فى اجتلاء حقيقة الانسان والهبوط الى أغوار نفسه ومجاهلها . لذلك لا تلمح فى قصصهم تلك الروح الشعرية المؤثرة (الدراماتيكية) اذ هى لا تنجم الا عن تصوير الظلمة النيرة التى تتحرك فيها الميول . وتحليل الاحساسات المتضاربة التى تنتاب الفرد فى حادثة جلى من حادثات حياته

واذا كان بعض من يكتبون القصص عندنا يؤثرون المذهب الواقعي وطريقة وصف المشاهدات الظاهرية على اسلوب (زولا) فاني أقول لهم ان هذا فن ناقص شاخ بسرعة وقضى وان زولا الذي لم يكن يرى من الانسان سوى الجانب الحيواني والذي كان يتوهم ان رسم الغرائز الدنيا هو وحده مادة الفن وان شهوة الجنس وشهوة البطن هما الحقيقة الفردة الجديرة بعناية الفنان لم يعد الآن في عرف النقد الأدبي غير حلقة من حلقات التطور القصصي لها قيمتها التاريخية الاثرية فحسب .

أجل لم يكن في فن زولا أي جمال عظيم لبعده البعد كله عن شعر الروح ولا يجب ان يغرب عنا ان زولا كان من أكبر العابثين بالشعر والشعراء وانه كان عالما دعياً اكثر منه فنانا وانه كان يستوحي العلم لا الجمال وان العلم جفف وجدانه وضيق عليه آفاق خياله . وليس عهدنا بمقال (اناتول فرانس) في فن زولا وروايته (الارض) ببعيد .

٥٥٥

واني أرى ان القصصي الفنان هو من اذا اقبل على دراسة الشخصية الانسانية لم يابه لذلك الجانب السطحي منها الذي ابتدعه المجتمع وكونته أكاذيب الكل المتفق عليها والذي يحكم الانسان على الانسان بمقتضى كماله فيه . بل يقصد تواً ذلك الجزء من النفس البعيد الغائر السري ، ذلك الجزء اللاتنهي الذي يودع فيه المرء ــ كما يقول فرويد ــ صفوة آماله واحلامه ورذائله وفضائله وسائر اهوائه التي لم يسمح له المجتمع بحكم المصلحة المشتركة والرياء المتبادل ان يبرزها والتي قد يكون اخفاها لغرض ما والتي متى صادفتها ازمة نفسانية مزقت غشاءها وانطلقت تعبث بمقدور صاحبها وتبدل حياته وحياة من ينتمون اليه . فيبهت الجميع لها ويحارون في تعليل سرها . وينعتها البعض بالسخف والتناقض والجنون قياسا على ماشاع عن شخصية صاحبها الظاهرة من وحدة السياق وبساطة الجوهر ومنطق التشابه

والاعتياد . في هذا الميدان الذي تتحرر فيه الشخصية الانسانية من احكام العادات والتقاليد وتخلص من شوائب النفاق الاجتماعي وتحطم اغلال اللؤم والذل والكذب المطوقة اعناق البشر يمرح أكابر كتاب القصص سواء أكانت تمثيلية أم قصصية امثال اشيل وشكسبير وبلزاك ودستويفسكي وايبسن وبروست واضرابهم أولئك الذين يجب ان نعب في فيض انهارهم قبل أن نخلق والذين يجب أن يكونوا هم وحدهم أساتذتنا ! . .

***

وبعد ، فاني لا أريد بهذا المقال ان اغمط حق الذين عالجوا ويعالجون كتابة القصص عندنا أو انتقص من جهودهم ولكني على النقيض اردت تذكيرهم باننا اذا كنا نرغب في ابتكار أدب مصري فيجب أن يكون أدبا مصريا انسانيا يسيغه كل شعب ويبقى على كل زمن لايستند الى محلياتنا الزائلة بل الى جوهر نفسنا الابدي . والى ماتتذوق معه ارواحنا وارواح الناس جميعا .

بين العلم والدين

مصدر الاخلاق هو الاحساس الديني

العلم يبحث عن الظواهر فقط - غاية التطور يجهلها العلم - العلم يجهل سر النفس الانسانية - الايمان وسيلة للمعرفة أيضاً كالعلم - العلم افتراضات فقط - عجز العلم عن تكوين الاخلاق - العلم لايدرس الحياة بل حركة الحياة فقط - الاخلاق راسخة فى طبيعة الانسان - مصدر الاخلاق هو الاحساس الدينى

من الشائع عندنا أن اذاعة الافكار العلمية ونشرها وترويجها مجلبة التشكك فى العقيدة الدينية . وان من نتائج البحث العلمى انكار كل رسالة ايحائية وان الطريقة العلمية القائمة على التجربة والتحقيق لايمكن لها بأية حال من الاحوال الا أن تهدم فى ذهن صاحبها كل ماله مساس بالايمان وماوراء الطبيعة وتحيله كافراً ملحداً لاسبيل للمعتقد الديني الى فكره المشبع بروح الواقع المؤمن بالحقائق الظاهرة فقط

هذا الزعم لايخلو فى بعض الاحايين من الصحة وقد عرفنا فى تاريخ الفكر الانسانى نفراً غير قليل من أئمة العلم دافعوا جهدهم عن هذه النظرية وطاردوا بها الايمان مااستطاعوا وحاولوا بكل ماأوتوا من سلطان النبوغ وقوة الايمان المعكوس أن يجعلوا دين الحضارة الجديد هو العلم وأن يحلوا النزعة العلمية فى البحث المادى كما فى الاخلاق والآداب الاجتماعية أيضاً محل تعاليم الدين وفروضه كبخنر وهيكل ورينان وبرتلو مثلا

وانا لانريد فى هذا المقال أن ننتقص من قدر العلم أو نرفع من شأنه على حساب الدين بل كل مانود اثباته هو أنه لاعلاقة البتة بين الفكر العلمى والمعتقد الدينى وان الميدانين يختلفان وانه من الميسور جداً أن نجمع بين العلم والدين فى شخص العالم وان حرية الفكر ومايصحبها من نقد لتعاليم الدين وثقة بأصول

العلم ليس معناها انكار الدين وليس من شروطها الكفر والالحاد كما يتوهم بعض رجال الدين وجماعة الرجعيين عندنا

***

ان البعض من مفكرى أوربا حين يقولون باستحالة اتفاق العلم والدين انما يقصدون بالعلم مجموعة العلوم الطبيعية الحديثة . ولكن هذه العلوم التى يرون ان فى وسعها تناول كل مبهم وتفسير كل غامض قاصرة جد القصور فيما يتعلق بأصول الاشياء وكيفية وجودها . أو ليست الدعوة العلمية كلها قائمة على أن العلم ليس بحاجة للبحث فى طبيعة الاشياء وأصولها ؟ . . .

ان مايسميه فلاسفة ماوراء الطبيعة البحث عن العلل ليس فى مقدور العلم أن يعرض له البتة إذ عمل العلم هو البحث في علاقة ظواهر الطبيعة بعضها بالبعض الآخر ودرس نظامها والقانون الذى تسلكه فى حياتها المتضامنة وفي تعاقبها الابدي وقد قال كلود برنار « ان فكرة العلل الاولى يجب ان تحل محلها فى الدراسة العلمية فكرة العلاقة بين الظواهر وشروط هذه العلاقة » ومعنى ذلك ان الظواهر التى نجهل قانونها تتعاقب فى سيرها خاضعة لنظام يتلاءم والنظام الذى تتعاقب به الظواهر التى توصلنا الى اكتشاف قانونها . فالعلم يرى الظواهر فقط . ويراها محدودة تحديداً رياضياً ولكنه لايري صميم الاشياء ولا يستطيع الا أن يبحث فى الرابطة التى تجمع بين الظواهر وهو لايلمس من العالم غير سطحه أما المادة فمحال عليه ان ينفذ الى جوهرها . واذا كان ليس فى وسع العلم ان يعلل سر الفضاء والزمن والحركة والقوة وما تنتمى اليه هذه الظواهر فكيف يمكنه أن يحدثنا عن منشأ الطبيعة وأصل الحياة ؟ كيف يمكنه أن يقول لنا من أين أتت الحياة والى أين تذهب او ما هو معنى الحياة ؟ اننا اذا استطعنا ان نتحقق من صحة نظرية السلالة البشرية الاولى وانها وجدت مصادفة أو فجأة أو اعتباطاً فكيف نعلل خروج الحياة من المادة الجامدة وكيف نفسر انبثاق

الدماغ الانسانى من الخلية الجامدة وكيف نجسر أن ننسب كل ذلك الى المادة ونحن نجهل أصلها أو الى الحركة ونحن لانعلم عنها شيئا بل كيف يتسنى لنا أن نفهم لماذا بدأت عملية التطور و فى سبيل أية غاية تسير ؟ . . .

ثم اننا لو ألقينا نظرة على مقدور الانسانية وما تغشاه من ظلمة وما يحوطه من ألغاز وما تكتنفه من ارادة المعرفة العنيدة وما يتردى فيه من حضارات عظيمة أودعها الانسان أروع مافى نفسه من نزعات الخير والجمال والمعرفة والحرية لوجمنا وجوم المضطرب الحائر وأصبنا بذلك الضرب من الاسى المقلق العميق الذي يستولى على الفرد ساعة التأمل والوحدة فيحدو به لمناجاة المجهول ومخاطبة العدم متسائلا عما أوجده على الارض كى يحس ويفكر ويتألم وعما قضى عليه بأن يستولد الطبيعة احساساً وفكراً وألماً وعما اذا كان بعد كل جهاده الممض الطويل سيطوى فى بطن الارض طياً تذهب معه غاية كل فضيلة ونفع كل ألم كأن لم يكن وجوده على الارض غير وسيلة لوجود الحياة الباطلة تنصب فى هدوء عابث ساخر دون مارحمة أو فكر نحو الابد .

وفى رأيى أن العلم كما أنه أداة للمعرفة فالايمان أداة للمعرفة أيضاً أو هو أسلوب آخر يصلح لبحث واستكشاف حقائق أخرى لايسع العلم إلا الاقرار بعجزه حيالها وبما أن العلم لايرى الواقع إلا مغلولا بالحواس الانسانية محدوداً بها فليس له أن يفرض الكمال المطلق فى طرائقه الخاصة وليس له أن ينفي أو يقرر حقائق أخرى تصدر عن طريق آخر

ثم ان العلم فوق هذا كله شيء مؤقت وعارض يتبع نزوات العقل المدقق الفاحص ويسرى عليه قانون التبدل والتحول والمراجعة الذى يمتاز به الفكر البشرى . فكم من حقائق علمية ظنها الجميع ثابتة مطلقة أنكرها العلم نفسه بين عشية وضحاها وكم هناك من نظريات جد مختلفة ومتعارضة فى حقيقة واحدة

ماتزال تتعارض وتختلف ماشاء للتطور العلمي أن يتقدم ويطرد... بل ان هناك من القواعد العلمية التى يعدها العلم مبادئ ثابتة مايقبل النقض والتبديل وقد استطاع عالمان وأظنهما لواتشسكي وريمان أن يؤسسا هندسات مترابطة ومتماسكة غير أقليدية. وما يصح قوله فى الهندسة يصح فى سائر العلوم فمن يضمن لنا أن نفس المقدمات تنتهى دائما الى نفس النتائج ومن يضمن لنا أن هناك ظاهرتين طبيعيتين تتشابهان تمام الشبه. بل. كيف نستطيع أن نجزم بصحه ظاهرة ما وتكرارها بينا نحن لسنا على يقين من أن الظروف التى ولدتها تتكرر بلا انقطاع على الدوام. وكيف يمكن أن نثق بصحة هذه الظاهرة وهى مقيدة بالاف من الظواهر الاخري التى لاندرى عنها شيئاً ؟..

الحقيقة أن كل شيء فى العلم قابل للمراجعة والهدم وان الحقائق العلمية افتراضات نسبية مقيدة وموقتة وما عمل العلم غير مخاطبة الطبيعة جهده دون ابداء أية حقيقة مطلقة عنها وما دام هذا شأنه فليس له مايخوله حق انكار أو اثبات النبوات والمعجزات وسائر ماهنالك من ضروب الخوارق النفسانية التى تنسب لتصرفات الله...

فى وسعنا أن نستنتج مما تقدم أن العلم وحده غير كفيل بحل المشكل الانسانى برمته وأن طرائقه العملية لا تصلح إلا مطبقة على الظواهر فقط وانه لايملك البتة حق التدخل القاطع في الشؤون الروحية التى تفوق حدود فحصه ولا يمكنه مهما علل أو اكتشف أن يرضى جميع خوالج النفس الانسانيه وما تخفق به من عواطف وما يتردد فيها من مطالب وآمال

ان العلم والفلسفة والدين لم تكن قط كما كان يتوهم رجال القرن التاسع عشر ثلاثة أساليب متعارضة يجب أن نردها لاسلوب واحد هو العلم توصلا لمعرفة حقيقة مادية واحدة بل هى ثلاث وسائل مختلفة لاغنى عنها لحل ثلاث مشاكل مختلفة توصلا لمعرفة حقائق الكون المتعددة

***

أراد العلم فى القرن الماضى إنكار فلسفات ماوراء الطبيعة فهاجمها وانكرها وأراد تحطيم المعتقدات الدينية فما زال بها حتى افقدها الكثير من سلطانها ولكن الميدان الذي مازال ينازع العلم فيه الدين محاولا الاستيلاء على مشاعر الناس وميولهم هو ميدان الحياة الاجتماعية ميدان الاخلاق والعواطف والآداب . فالعلم ينزع الى ابتكار أخلاق علمية محضة تصدر عن العقل المجرد لاعن العقيدة الدينية ويستند فى ذلك تارة الى البيولوجية وأخرى الى العلوم الاجتماعية أو الابحاث النفسانية . فهل فى استطاعة العلم تكوين أخلاق ؟ وهل تتفق الطريقة العلمية والاحساس الخلقي ؟ . وهل بين العلم وأخلاق المجتمع علاقة وثيقة تمكن الانسان من أن يغذى وجدانه وميوله وأخلاقه وعواطفه وطموحه الغرزى الدائم نحو مثل روحى أعلى من ذلك التطور العجيب الذى أحدثه ويحدثه العلم كل يوم فى مختلف نواحى المادة ؟ ... هذا مانود النظر فيه وأكبر ظنى أنه الحد الفاصل للنظريتين بل المحور الاول والاخير الذي تدور عليه اختلافات الباحثين جميعاً

***

ان بعض رجال العلم وكثيراً من الفلاسفة العمليين كنيتشة مثلا لجأوا الى اكتشافات بيولوجية وفسيولوجية لابتكار أخلاق جديدة فكان منهم من يناصر داروين الذى بدل أن ينظر اليه كعالم طبيعى فقط استخدم مذهبه فى سبيل تعديل القيم الخلقية بل الحياة الاجتماعية كلها . فأخذ أولئك الفلاسفة والعلماء ينادون بحق الانسب والاقوي ويبشرون بضرورة التدمير والقتل ويتغنون بالقوة المطلقة التى تخلق المجتمعات ويبيحون ويحللون غرائز الطمع والاستغلال والاغارة والاستعمار كفضائل الفطرة السليمة ووسائل الانتخاب الطبيعى . بينما ذهب آخرون من رجال الاجتماع كأميل دوركهايم نقيض هذا المذهب فقالوا ان السائد فى الانسان هو غريزة التضامن فعلى المجاميع البشرية أن تنظم

نفسها كتلا و تتعاون فى سبيل الخير العام . وهكذا كان يرى العالم أخلاقاً مختلفة تطبق على مختلف ظواهر الحياة الحيوانية والانسانية أو على ما يكتشفه العلماء موقتاً من خصائص تلك الظواهر

إلا أن البيولوجية و الفسيولوجية كانتا عاجزتين عن تحديد حركات الذهن البشري التي تسمو بطبيعتها و تفوق عمقاً ومدى وظائف الجسم المجردة والتى لانستطيع أن نقرنها بتلك الوظائف الااذا استطعنا أن نقرن عملية الهضم مثلا بعاطفة نبيلة أو فكرة مجيدة . وان الحياة العقلية والنفسية ولو أنها تتصل في الاصل بالحياة العضوية و تستمد منها القوى المحركة الا أنها ليست تلك الحياة العضوية نفسها وهى لا يمكن أن تتحول اليها وتفنى فيها . ومن ثم كيف يمكن لعلوم الاجسام ووظائف الاعضاء أن تبتكر آداباً خلقية من لدنها النفس البشرية وكيف يسعها أن تمد بغير الملاحظات والارشادات تلك النفس التى تنطوي فى صميمها على نقيض ما فى الحياة العضوية أى على نزعة التفوق الخلقي طلباً لمثل روحى أعلى ؟ بل كيف يمكن لتلك العلوم أن تفسر لنا مثلا عظمة التضحية التي يقوم بها فرد ما بينا و ظائفه العضوية لاتعلمه إلا كيفية ارضاء شهواته ؟... الحقيقة أن البيولوجية ليست كما يقولون درس الحياة بل درس حركتها الآلية فقط، تلك الحركة التي هى مظهر لقوة عميقة أخرى . قوة تحس و تفكر و تريد. قوة نفسية محضة تفوق أيضاً حد بحثها العلمى وتتخطاه

وهنا يتوسط الاجتماعيون فى الامر يريدون اقامة الاخلاق على دعائم ثابتة من علم الاجتماع . وكما كان يري البيولوجيون أن علة وجود الاخلاق أو مقياس صلاحيتها هو المصلحة العامة يحفزها فى النفس و يستثيرها واجب النضال وحق الاصلح و الاقوى كذلك يري الاجتماعيون أن الغاية المنشودة من الاخلاق هى خدمة المصلحة العامة أيضاً و لكن من طريق التضامن أو التعاون الذى يتطلب تضحية أفراد الأمة جميعاً لمصلحة الامة ومجدها المشترك

الا أننا لو تأملنا فكرة التضامن هذه لجاز لنا أن نقرر انها نتيجة لغريزة الاخلاق فى الانسان لا أصل لها . بل فى وسعنا أن نقول ان التضامن ظاهرة اجتماعية لم تكن فى يوم من الايام قاعدة أدبية أو قانوناً خلقياً يتحتم العمل به على جميع أعضاء المجتمع الواحد . اذ التضامن حقيقة اجتماعية واقعة يسوقنا اليها المجتمع رغم أنوفنا بحكم أنظمته ، قوانينه وعاداته وقوة الرأى العام السائد فيه ولكنها حقيقة قد نتبرم بها وقد نبغضها وقد لا تلمس ضميرنا الباطنى على الاطلاق ونحن مانزال أحراراً فى اتجاهنا معها أو ضدها وهى مهما أوتيت من سلطة التشريع أو العرف فلن تتمكن من اجبارنا على التضحية بأنفسنا وانكار مصلحتنا الخاصة فى سبيل المصلحة المشتركة العامة

يقول أميل دوركهايم : « ان القيم الخلقية التى تتراءى لنا في عمل من الاعمال هى قيم مفروضة علينا بحسب ظروف البيئة والمجتمع الذي نعيش فيه وهى قيم جد مختلفة وغير ثابتة . ففضائل الشجاعة والتضحية والتواضع مثلا هى ضرورات اجتماعية تختلف قيمة وقدراً باختلاف حاجات المجتمع الذى نعيش فيه وليس لنا أن نقول ان عملا من الاعمال خلقي أو غير خلقي إذ هى الضرورة الاجتماعية التى تفرض ذلك وتقرره وعليه فلا يكون هناك خير أو شر بل فضائل ورذائل نسبية تصلح لمجتمع فى عصر ما ولا تصلح لسواه فى عصر آخر إلا أن ما نستطيع ان نستقرئه من درس حياة الجماعات وشتى أنظمة الحكم ان القيم الادبية العظمى والآداب الاجتماعية التى تجرى فى الناس منذ القدم مجرى القانون هى آداب التضامن والغيرية اذ هى الآداب التى سادت بها الجماعات التى عمرت أكثر من سواها وقطعت شوطاً من أشواط التطور وتمكنت من انشاء حكومة منظمة أو حضارة . . . »

هذا ما يقوله دوركهايم والاجتماعيون أنصاره وهو على جانب كبير من الصحة الا اننا نرى ان آداب التضامن والغيرية ليست آداباً اجبارية بل اختيارية

وليست ضرورة من ضرورات المجتمع بل ضرورة انسانية لاغير الا أنه من المحال أن نسلم انها ضرورة انسانية الا اذا سلمنا بان هناك قوة خلقية نجهلها . قوة رائدها الخير . قائمة على معنى التعاون والغيرية . قوة لا تصدر عن المجتمع بل عن طبيعة الانسان الذي انشأ ذلك المجتمع . فالانسان هو كل شيء وهو الذى يحس في بعض الاحايين بتلك القوة المجهولة فيحاول أن يسبغ فضائلها على المجتمع . وقولهم ان ضرورة المجتمع هى التى تثير فيه فضائل التعاون والغيرية خطأ محض اذ المجتمع شيء خارجي عنه قلما يسترعيه فيه غير المصلحة أو اللذة . فباسم أى شيء يضحى الفرد بسعادته لاجل المجتمع ؟ وما دام المجتمع يقدم له مجموعة لذائذ فلماذا يضحى بلذائذه تلك فى سبيل المجتمع ؟

إن سعادته لاقدس فى نظره من سعادة المجموع وأنه ليحطم المجموع هذا ارواء لسعادته الخاصة فى غير ماتردد أو وجل . وهو اذا أنكر ذاته وضحى فما لاريب فيه أنه سيتألم وأكثر ما يكون ألمه باطل النفع المادى لشخصه . فلماذا يرضى الانسان إذن بالالم لمصلحة المجموع . ماسر هذه القوة وما أصلها ؟ وهل يعوضه المجموع مقابل آلامه تلك شيئاً ؟ . .

لابد لنا في النهاية من الاعتراف بتلك القوة الدفينة التى يحتمل بها الفرد ألم الحياة . ويلجأ اليها فى تفسير كل ألم . ويتجه نحوها فى طلب الغوث والعزاء كلما طالبه المجتمع بتضحية جديدة تلك القوة الروحية الخارقة التي مابرحت تقيم المجتمعات على فضائل أساسية واحدة . تلك القوة التى شادت العائلة والوطن وكل مجهود الحضارات على ضرورة الالم ثم أنبتت فى الالم العميق زهرات الطيبة والعلم والاخاء والتضحية

هذه القوة هى فى مركز الاخلاق البشرية وهى التى تستند اليها الاديان وتعيش بها بل هى التى تنمى الفكرة الدينية فى نفس الفرد . فكرة أن النبل الروحى متأصل بجانب الشر فى طبيعة الانسان يستمد حياته من حياة

علوية مجهولة أبدية خالدة هى أصل الكمال كله بل المثال الاول والأخير الذى مايفتأ يغري البشرية بالتطلع اليه والاندماج فيه ما استطاع الانسان أن ينفض عنه غرائزه الدنيا ويخلص من ربقة عقله الذى لايمده بغير الحيرة ولا يغذيه بغير الشك.

وإذن يكون مصدر الاخلاق هو الاحساس الدينى وعبثاً يحاول العلم أن يخلق لها مصدرا آخر. إن ذلك الاحساس فى طبيعة الجنس البشرى مادام الالم هو علة الحياة. ومن نكد الدنيا. بل من قسوة القضاء الساخر أننا لايمكننا أن نستدل على وجود الله فى أنفسنا الابذاك الالم. غير أن خطأ العلماء كان محاربة الشعور الدينى مجسما فى العقائد المختلفة بدل الانتفاع به واستغلاله ورده الى السبيل الروحى المحض الذى يستطيع به أن ينقذ نصف الانسانيه أى الوجدان بينا ينقذ العلم النصف الآخر أى العقل. ولكن معظم العلماء الذين حاربوا الدين لم يحاربوه إلا لان رجال الدين أبوا الاعتراف بالعلم. على أنه ليس بين الدين والعلم علاقة وليس هناك أية تجربة علمية أو فكرة مستحدثة فى الاجتماع أو الأدب يخشى منها على جوهر الاحساس الدينى على الاطلاق. وليست تدل أعمال صفوة مفكرى الغرب المعاصرين ومن تقدمهم كوليم جمس وبوترو وبرجسون وما ترلنك واضرابهم الاعلى هذا. فسواء أطال الزمن أم قصر فسيأتى يوم يفهم فيه الجميع عندنا أن الدين عاطفة انسانية لاقواعد جامدة. عاطفة يجب أن تقام فى صرح شاهق لا تصل اليه خصومات الاصلاح المتجددة بتجدد حاجات كل زمن. واننا يجب أن نرى فى الدين جوهراً نفسياً رائعاً أرفع وأقدس من أن يعترض ارادة التطور التى هى الآن كل قوتنا حيال ارادة التوسع والاستعمار التى تدفع بالغرب لاستعبادنا!

دستويفسكي

فنه و فلسفته

(درس تحليلي)

كلمة

قد يبدو لبعض قراء هذا البحث ان الغرض من كتابته غرض رجعي كما انه قد يبدو للبعض الآخر نقيض ذلك . ولكني احب قبل المضى فى طريقي ان الفت نظر أولئك وهؤلاء الى أن الذي حدانى للعناية بشخص القصاص الروسى فيدور دستويفسكي وبحث أعماله و التحدث عنه هو انه قبل كل شيء فنان عبقرى لم تخرج الانسانية نظيره منذ شكسبير ثم انه بعد ذلك مفكر مستقل احتفظ بشخصيته تمام الاحتفاظ فلم يقلد الفن الاوربى ولا الفكر الاوربى بل نزع نزعة انسانية روحية محضة توصلا لهدم كل شيء واحداث أكبر ثورة عرفها تاريخ البشرية حتى يومنا هذا . وانى لأحب ايضا الا يشركنى القارىء فى شيء مما اقوله عن الرجل والا يفرض ان كتابتى عنه ناشئة عن اعتناق مذهبه بل عليه أن يثق بالحيدة التامة التى التزمتها فى بحثى هذا الذى لم يحفزنى اليه غير كلفي بالتعرف الى شخصية غريبة خطيرة كان لها أكبر الأثر فى الدلالة على نفسية الشعب الروسى وفى تجدد حركة الأدب القصصى فى أوروبا كلها .

النفسية الروسية

فيدور دستويفسكي

ان مجموعة الظواهر الخلقية التى يطلق عليها النقاد في أوربا اليوم اسم

(النفسية الروسية) لم يحس بها مفكروا الغرب ولم يتبينوا مميزاتها ويقفوا على مراميها واغراضها الا فى مختتم القرن التاسع عشر لما ان دب دبيب الانحطاط الاجتماعى فى فرنسا وانتشرت الصوفية العسكرية فى المانيا وعم العصب الاقتصادى انجلترا واستشعر الكل أن مادية العلم الغليظة سوف تقذف باوروبا الى حرب هائلة يتجلى فيها تقدم العلم الحديث وتطوره باروع مما تجلى فى ازمنة السلم ويخشى منها على الحضارة الاوروبية أن تتزعزع دعائمها وتنهار لذلك كان التفكير الأوربى محيراً قلقاً يشوبه الوجل ويتنابه الكبر يشعر بالعاصفة الهابطة ويأبى المصارحة بشعوره. يلمس الخطر الداهم ويروغ من مواجهته. محاولا جهده الابقاء على انظمته. مخضعاً السلطة التنفيذية للسلطة التشريعية. موفقا بين العامل ورأس المال. معترفا بالنقابات والهيئات التمثيلية. مطلقا حرية الفكر الى ابعد مدى. دون أن يمس روح الديمقراطية واسسها القائمة على تأييد حق الملكية والتسليم بفوارق الطبقات واحترام الأسرة. ومعاضدة العلم فى استخدام قوى الطبيعة واستغلال وسائله فى التهلكة والتدمير عند الحاجة اليها.

فى ذلك الوقت استوقف نظر الباحثين الغربيين شعب شرقى عديم الاحدوثة خامل الذكر. ظلت أغلبياته الساحقة رازحة تحت نظام اقطاعى أشبه بانظمة القرون الوسطى. يسترق كبراؤه فلاحيه وتقوم بشؤون حكمه طبقة من البيروقراطية مستعبدة هى أيضا لجماعة المتمولين الاشراف المتألبين حول القياصرة وورثة الاوتوقراطيات الأسيوية يذودون عن أنفسهم بالذود عن النظام القائم محتكرين لانفسهم وأبنائهم والمقربين اليهم موارد الثروة والسلطان والثقافة والحرية.

من مجاهل روسيا السحيقة. وصحاريها المترامية. وآفاقها المدلهمة. خرجت فئة من جبابرة الفكر الانسانى هى التى كاشفت أوربا بمقدورها القريب

وهاجمتها هى صميم كيانها الاجتماعى . وأنكرت عليها صلاحيـة أنظمتها لحياة المستقبل . وراحت تنادي بوجوب محاولة تجربة مدنية جديدة تهدم حق الملكية وتحاول تحقيق مثل الحضارة الأعلى بان تضمن للفرد حياته مقابل اقصى مجهود في استطاعته القيام به من أجل سعادتها ورقيها . هذه الفئة هى التى عبرت تمام التعبير عن عبقرية جنسها وخلقت ما يسمونه النفسية الروسية وهو ما نريد النظر فيه توصلا لفهم أدب دستويفسكى وفنه :

ان النفسية الروسية ممثلة فى ابطالها كدستويفسكى وكورلنكو وتولستوى وباكونين وجوجول وجوركى واضرابهم هى نفسية لا تفتأ تترجح بين دورى الحداثة والمراهقة أولع ما تكون باستكشاف قوانين الحياة ودرسها جرأة من كل مصطلح أو عرف . فى حمى الشباب ونشوته وبطولته ورغبة التجديد الحارة المضطرمة فى دمائه

انها لا تستند فى معالجة شؤون الحاضر والمستقبل على ميراث من ثقافات الماضى بل تنكر الماضى بتاتا وتطرح اختباراته وتعاليمه وتدع خصائص فكرها الشارد تمدد فى أغوار الكون وتنتشر كنباتات وحشية في غاب مثوي مهجور . هى تريد أن تحل لغز الكون بنفسها . ان تفهمه على ضياء عبقريتها لتعاود بناء الحياة كاملة مرة أخري

انها تخاطب المجهول فى جرأة ساذجة . وتقبل على الحياة كما لو كانت تطالعها للمرأة الأولى نافضة عنها غبار التقاليد . مشرفة عليها من الناحيـة الانسانية المطلقة حيث تخلص الغريزة من النفاق الاجتماعى ويتبين المرء مدي قواه فى تبديل الحياة وتكيفها . ثم هى متأبية أنوف اذا ماعزمت نفذت أو هلكت دون مطلبها . واذا تمردت أنكرت ما يحوط بها جملة واحدة وباشرت من جديد درس الحياة

وهى على جنونها بالحرية ومقتها عبودية الدين واستنكارها النزول على معتقدات مذهب من المذاهب تختلج بعوامل صوفية شتى تدانى بها الآله وتلمسه فى تأمل فلسفي عميق لا لتصبح عبدة له مسيرة برحمته وعنايته بل لتشعر نفسها بالجزء الالهى الكامن فيها والذى يصبو الى تمامه بمطاولة الله نفسه في الحرية والخلق . . .

***

وان الروسيين ليحسون فى صميم قلوبهم ان القضاء حملهم رسالة يجب أن يؤدوها للعالم أجمع فقد قال المفكر شادايف فى عرض حديث له عن النفسية الروسية : « ان روسيا الحديثة هى التى وكل اليها حل اللغز الانسانى . فقد أقصتها المقادير عن مطامع الوطنيات المختلفة وحملتها مصالح الانسانية جمعاء . ذلك هو مستقبلها . وتلك مهمتها فى حركة التطور » وقد كان دستويفسكى من أعظم أنصار هذه الفكرة ومن أشهر الناقمين على نقل أساليب المجتمعات والحكومات الاوروبية الى الشرق نقلا ميكانيكيا تفنى فيه شخصيته باشتراكه مع الغرب . في تثبيت دعائم حضارته المادية . وقد كان يرى أن أوروبا ليست سوى قبر فسيح الحد فيه رجال عظماء وأفكار عظيمة تعفنت ولم يعد لها من وجود . وهو القائل فى خطبته المشهورة عن بوشكين :

« ان الروسى الصحيح هو الذى يحس أنه أخ للجميع . . . هو الذى يجتهد فى فهم المناقضات الاوروبية وحلها وابدال قلق الغرب وانانيته بحب شامل تصدر عنه الكلمة الفاصلة فى تكوين المجتمع المنتظر القائم على الاتساق العام واتفاق مختلف العناصر اتفاق مساواة وسلم دائم أخوى »

والذي كان يخيف بعض مفكري الروسيا من هجمات الحضارة الغربية هو أن يفنى فيها مثل المحبة الشرقى . اذ الافراد فى عرفهم الذين يشتركون في ادارة آلة الحضارة الاروبية سيصبحون عبيد الشيطان الذى خلقوه . وبدلا من أن

يتمتعوا بحرية الغرب المزعومة تتحطم شخصياتهم فى تشييدهم صروح الرخاء المادي وتتجه قوى عقولهم وقلوبهم نحو جمع المال فكأن الغرب الذى يفاخر بتحرره من عبادات اصنام الجهل العتيقة أقام عبادة وثنية جديدة تبتلى الفرد بالضعف العصبي والكآبة النفسانية . والاضطرام الشهوى والقسوة والاضطهاد والوحشية وجملة القول ان النفسية أو العقلية الروسية تري ان الحضارة الاوربية المستمدة من حضارات الاغريق والرومان لم تأت بالشيء الجديد . مادامت اساليب الحكم المجحفة بالسواد الاعظم لم تتغير في جوهرها ومادامت فوارق الطبقات لم تزل قائمة ومادام المال هو الذى يقوم بتوزيع العدالة ومادامت القوة تسهر على استثمار هذا المال وحفظه للبعض دون البعض الآخر . كل الحضارات السالفة كانت فى عرفها حضارات ارستقراطية تهتم بالفرد فقط . تعمل على تحرير ذهنه وتثقيفه وجعله بمثابة أوتوقراطية مستقلة لتسلط قواه النامية على المجموع فى سبيل استنزافه كيما يسعد فريق دون فريق بنتاج العبقرية الفرديه التى عوضاً عن أن تكون رحمة انسانية واسعة وملكا مشتركا يدر الخير على الجميع تنقلب أنانية جنائية كلما اعانتها الحضارة على النمو كلما ازداد عدد ضحاياها كما هو المشاهد في حالة تضخم المدنيات جميعا . فعمل الحضارة حتى الان كان تربية الفرد ليتفوق بعقله على نفسه وعلى المجموع اما ماتطمح اليه النفسية الروسية فهو تفوق المجموع برمته على نفسه حتى تعم المساواة الصحيحة التى لامعنى للحضارة اذا لم تكن هى مطلبها الاسمى . لذلك قامت بأخطر تجربة عرفها التاريخ منذ عهد الثورة الفرنسية وهى الشيوعية تجربة تقوم على مايجب أن يكون لاعلى ماهو كائن . واننا برسمنا شخصية فيدور دستويفسكي ونقدنا فنه وأدبه نستطيع استكمال درس تلك النفسية وتصورها من ناحية الادب القصصي ممثلة فى أعظم أبطالها لاننا انما يهمنا الفن الروسى اضعاف مايهمنا نظام الحكم فى الروسيا اذ

الاساليب الحكوميه كالاعتبارات الخلقية أو العادات الشائعه قد تموت اذا عاشت فى غير جوها وقد تؤول الى عدم فى محيطها نفسه . وقد تصلح كذلك للجميع اذاهى سادت بعد الممارسة والاختبار الطويل أما الفن فنبض انسانى أبدى عام لادين له ولا وطن!

...

كان الفكر الاوربى حتى مقدم الادب الروسى مقسما حسب الاوضاع الاغريقية والتقليدية من فلسفة الى أبحاث خلقية الى شعر وقصص . كل قسم يحتفظ باستقلاله التام ويمتاز عما سواه بطريقته المحددة الخاصة في التفكير والخلق دون أن يخطر ببال اي عبقري أوربى انكار هذه القوالب الموروثة أو تحطيمها فبينا نرى الفلاسفة كديكارت وكانت وأوجست كونت مثلا يهتمون بالفلسفة فقط . نرى من ناحية أخرى لابروبير ولاروشفوكو وجوبير يقصرون جهودهم على البحث الخلقى أو التأملى وكذلك قل عن الشعراء والقصاصين لايعمل الواحد منهم الا فى دائرة نوعه معتقدا ان فى تخطيه الى سواه واقتحام غيره ضرب من عدم التناسب غير مجد بما ان هناك أنواعاً اخرى قد عالجتها واستكملت تنظيمها عقول كبيرة لافكار أخري . لذلك كان النوع القصصى الحديث منحدراً فى الواقع من بلزاك وفلوبير منوطاً به درس الانسان فى علاقاته اليومية بانظمة المجتمع وفروضه القابلة للتغير والتبديل حسب رقى المجتمع وانحطاطه . وكان النوع القصصى اذ ذاك يتناول بالوصف والتحليل بعض فروع الحياة وليس أبلغ فى الدلالة على ذلك من ان فكرة المال أو الطموح المادي هى التى قام عليها صرح (الكوميدية الانسانية) لبلزاك وفكرة اصطدام الخيال بالواقع هى التى حلقت على أهم جزء من أعمال فلوبير وفكرة الغريزة الجنسية هى التى شغلت معظم تواليف اميل زولا . فأنت ترى من ذلك أن تحديد النوع الروائى كان تحديداً للفكر نفسه وتضحيا لبعض جزئياته واهتماما بالجانب

السطحى فى النفس اهتماماً لم ينتج منه سوي بلزاك لانه كان فناناً كامل نواحى العبقرية يجمع إلى قوة الابتكار اتساع مرمى النظر وبعد الاستشعار وعزارة التخيل والتثقيف .

تلك كانت حال الأدب الأوروبى حتى جاء الروس فخطموا تلك الفوارق وصبوها جميعاً فى قالب واحد وهو القصة فنشأ من ذلك نوع قصصى مستحدث طريف يؤلف بين النزعة الفلسفية والشعرية والخلقية والاجتماعية والتحليلية ويمثل الانسان بتمامه فى مختلف نواحى عقله ووجدانه وكان أظهر مثال لهذه النهضة فيدور دستويفسكى الذى يعده النقد الأدبى اليوم زعيم حركة التطور القصصى العالمى بلا منازع .

***

فيدور دستويفسكى هو رجل عظيم ومسكين . إنسان أعدته الطبيعة لتجرب عليه عناصرها . شخص يود أن يفنى فى النفس البشرية فناء فرائس القدر الاغريقية فى بطن وحش خرافى . رجل مصاب بداء الصرع يخشى أن هو استسلم للنشاط الحيوي أن يقضى عليه لساعته . فتراه في قصصه يروح في شبه غيبوبة دائمة . فى ذهول مطرد النشوة . فى فقدان حس ظاهرى يظنه البعض عتها وبلها فى حمى يتغذى منها وتتغذي منه . حتى تبريه وتأتى عليه . هو رجل نارى العزم فاتره . وثاب العقل متبلده هامد الاعصاب مشحوذها . شهوى الميول نقيها . ملتقي المناقضات جميعاً كالانسان نفسه أو الطبيعة نفسها !

***

ونحن كى نستطيع الهبوط إلى أعماق نفس دستويفسكى وتعرف ناحية التجديد والابتداع فى فكره وفنه يجب أن نلقي على الانسان نظرة شاملة ونستقر على قاعدة للحالات النفسانية التي تصدر عنه لا في حياته الاجتماعية فقط بل في حياته السرية أيضاً . أى بينه وبين نفسه فى ظلمة

الغرائز والميول . وهذه القاعدة هى أن الانسان الاجتماعى شىء والانسان المستوحد الباطنى شىء آخر . وان المجتمع باتباعه قانون التضامن الأدبى والمصلحة العامة يخلق الانسان الاجتماعى ويطبعه بطابعه ويفرض عليه الانظمة والمصطلحات والآداب ويضطره لاحترامها والايمان بها والعمل على اذاعتها ونشرها إلا أنه لا يستطيع البتة ملاشاة الانسان المستوحد الباطنى وقد لا يمكنه التأثير عليه وتبديل نزعاته بل أن الانسان الباطنى هذا قد تزيده وحدته انطواء وانكماشاً وقوة وبقدر ما يسعى المجتمع لاخضاعه بقدر ما يتمرد ويحاول أن يعيش ، وبقدر ما يؤمن أمام الجميع بالفضائل المصطلحة بقدر ما يستخدم ايمانه الكاذب فى انماء ميوله السرية واشباعها . إذ الانسان الاجتماعى لاحول له ولا سلطان على الانسان الباطنى لأن الأول يريد أن يتوجه بالشخصية الانسانية نحو غاية اجتماعية محدودة متشابهة تحيل أفراد المجتمع الواحد عبيد نظام واحد وآداب واحدة هذا بينا الشخصية الانسانية العميقة إذا هى وجدت فى الطاعة والخضوع والتسليم لذة الحياة المنافقة الآلية المنظمة فهى مستقلة بطبعها لا تستطيع النزول عن استقلالها وقد تجد فى أغلب الأحايين أروع اللذائذ فى التمرد والانتقاض والفوضى فالمجتمع يطلب الى الفرد أن يعيش بعقله فى طاعة واعتدال والفرد تحفزه الغريزة نحو الحياة بميوله فى غير تناسب أو نظام . فما هو عمل الفنان اذن ؟ وما هو أبلغ فى الدلالة على حقيقة الشخصية الانسانية أهو تصوير الجانب الاجتماعى منها القائم على تبادل النفاق وتحكم الملق وسيادة الغش أم هو تصوير الجانب الباطنى حيث تمرح النفس طليقة من ربقة القيود فى رحبات الفطرة الحره ؟ أن دستويفسكى لم يهمل الجانب الاول ولكنه آثر الجانب الثانى فكان أبرع وأعمق مصور لتلك الاحساسات المباغتة التى لا يملك العقل فحصها والتى تنطلق منه بالرغم عنه لا تستطيع الارادة السيطرة عليها او كبحها كالتوق الى الالم وجنون الدعارة وحاجة الانسان الى الشر يدمر به نفسه تدميرا . نشأ من ذلك أن

دستويفسكى لم يكن ليرسم الشخصية الانسانية في حالة الاعتدال والقياس والتوازن وتحكيم العقل بل فى حالة التبعثر والتفكك والانحلال مبتعثا من مجاهل الروح تلك القوى الاولية الوحشية الراقدة في الفرد تكلؤها ارادة البقاء. كان يحلل كل ميل وكل رغبة وكل فكرة كانها شخصيات مستقلة ضمن الشخصية البشرية تسعى فى سبيلها حرة ولو حطمت الفرد وافنته

وأن انصرافه لدرس الطبيعة الباطنية باثامها وجنونها وفضائلها كان تحديا لجزء عظيم من أدب أوروبا بل أنكارا له وثورة عليه هادمة اذ أن مفكرى أوروبا وعلى رأسهم ديكارت كانوا يرون أن العقل يجب أن يقود تلك الطبيعة المشوشة ويخضعها لصالح الحضارة والتقدم توصلا لاحلال العقل محل الغريزة فى الانسان المتمدن المنشود وكذلك كان يرى معظم أدباء أوروبا وقصاصوها وان اجتنابهم الخوض في تلك الطبيعة والاسترسال فى وصفها وتحليلها كان محض رغبة لا تنبهه فى خلق أدب ذا صبغة اجتماعية اصلاحية تتوازن فيه قوي العقل والغريزة لهذا أنت تشاهد فى كثير من اعمال الادب الغربيـة حتي فى قصص بلزاك نفسه ميولا واهواء مستيرة منظمة يحاول العقل أن يردها الى السبيل السوى يقودها أصحابها أو تقودهم فى منطق باطنى. ميولا واهواء اجتماعيـة يخشى الكاتب اذ هو صورها كما هى شاردة جامحة أن تهدد المجتمع الذى تتحرك فيـه وأن تهدم المثـل الاعلى لذلك الانسان المتعقل المتمدن الذى أراده الفلاسفة والمصلحون والذى تريده طبيعة الثقافة الاوروبية. كان الادباء فى ذلك العهد يهتدون بنظريات الفلاسفة ويعتقدون مثلهم بوحـدة الشخصية الانسانية أى بقدرة الانسان على جمع شتات عواطفه وتحويلها مهما تبددت نحو غاية يرسمها له العقل. كانوا يرون فى النفس البشرية نزعة دائمـة نحو التفوق على ضؤولتها بالعقل المميز الفاحص. كانوا يدينون بذلك لا كمطلب اسمى من مطالب الحضارة فحسب بل كمطلب من مطالب الفن أيضا وساعدهم على ذلك أنهم عاشوا فى مجتمع آخذ فى التحضر أى فى طبع أفراده بطابع

تلك النظرية وتطبيقها عليهم وتكييفهم بها واعدادهم لحكم العقل المجرد . لذلك صوروا لنا أبطال قصصهم من ناحية المجتمع أكثر من ناحية الحياة الدفينة السرية ولذلك ايضا تعطلت حركة الاكتشافات النفسانية فى النوع القصصى زمنا ليس بالقصير واذ جاء دستويفسكى جاء معه التطور والانقلاب ففصل بين الانسان الكلاسيكى الوضعى والانسان الحى بين انسان العقل وانسان الغريزة بين المخلوق القديم الجامد المتسق العواطف والاحساسات وبين المخلوق الحقيقى المتقلب الوجدان المركب الشخصية المتوزع الافكار والانفعالات . وهو لم يرسم فى كل قصصه تقريباً غير اعراض هذا المخلوق لاعتقاده المطلق بان ما عدا ذلك كان محض غش و وهم وخيال

°°°

ان الحال التى كان يعيش فيها الشعب الروسى هى التى نبهت دستويفسكى لجوهر الشخصيه الانسانية لانها كانت حالا فطرية لم تمسها الحضارة بعد ولم يجر فيها الاصلاح الاجتماعى معاوله .

لم تكن الميول هناك فى حاجة للتستر وراء العرف و المصطلح . ولم يكن بين غرائز الفرد الدنيا وبين عقله كفاح مستمر . ولم تكن المعارف قد اصقلت الذهن واخفت الاعيب الغريزة عن الابصار . ولم تكن اسباب النظام و الثقافة والعدل متوفرة يطمئن بها الفرد الى نفسه كى يتوجه بعقله نحو غرض ما ، بل كانت الفوضى سائده . و الغرائز منتشرة تسعى فى العراء و الجرائم يتكاثف ظلها واعراض الجنون يكاد يصادفها الملاحظ فى كل حديث وعلى كل سحنه . من هذا المجتمع المظلم خرجت شخصيات دستويفسكى أولئك الهستيريون الصرعى ذوي المخيلات الوثابة الحارة ضحايا الميول و الفكرة الثابتة و الجنون. و بواسطة هذا المجتمع كان دستو يفسكى أول من أدرك فنيا و ألحق بالأدب امراض الارادة بانواعها كازدواج الشخصية فى ذهول وحمى . واطراد الافكار المتناقضة القافزة بغتة وبدون مسوغ ظاهرى ، من الحقد للحب ومن الضحك

لليأس ومن السمو للبكاء . وكان كذلك أول من عرف فى عمق اطوار الحماس النفسانى المقرون بانحطاط فى القوى العاقلة وهجسات الجانب اللاتنهى في النفس حيث تتراءى الاحساسات فى ظلمة نيرة فتختلط الحقيقة بالهذيان وتتخذ مظاهر الحياة غرابة الاحلام ! ...

إلا أننا لايجب أن نفهم مما تقدم ان اشخاص دستويفسكى مخلوقات غريبة شاذة تعيش على هامش الحياة فى وسط محدود . كلافهى قبل كل شىء شخصيات انسانية عامة ندهش لها ونعجب ونحاول أن نقصرها على بلد دون آخر لعدم اعتيادنا رؤية أمثالها في تواليف القصاصين الآخرين . ولعدم استطاعتنا الائتناس سريعاً بالطريقة المستحدثة المبتكرة التى تناول بها الكاتب وصفها وتحليلها . هى شخصيات حية مثلنا تختلج آمال وآلام ولكنها تبدو لأول وهلة كالاشباح المشردة الهائمة لانها مرسومة من الجانب النفسانى فقط . من النواحى البعيدة التى نستشعرها خلف عواطفنا الاجتماعية النفعية والتى لا تقف بها أذهاننا بل تجتازها كالبرق الخاطف في الساعات الخطيرة التى ينتاب فيها النفس الدوار وتزدحم الرغبات وتتناحر الغرائز ويذوب العقل تحت لظى الميول .

ان سر اضطراب تلك الشخصيات هو سر اضطرابنا جميعاً أي هزيمة العقل تجاه الفطرة . بل اختفاء قوى العقل اختفاء تاما حيال هجمات الفطرة . بل ضياع حاسة التمييز وفقدان قوانين الاداب وحيرة الانسان وعجزه عن المقاومة عند مقدم الازمات .

وانا لنتمهل قليلا لنأخذ ببعض الشرح والتحليل شخصيات دستويفسكى فهى التى ستهدينا إلى موطن التجديد في أعماله وهى التى ستميط لنا اللثام عن فلسفته

ان أشخاص دستويفسكى قوم ليسوا على بينة من أمرهم لا يعرفون تماما

مايطلبونه من الحياة وليس لاراداتهم ذلك التسلط الفعال على حياتهم الذى يجعلها مستقيمة السير مسلسلة الحوادث منطقية الافكار والعزمات. هم أناس لايعبأون بعقولهم كثيراً ولا يلجأون إلى تحكيمها فى مختلف الازمات وكأنها فى نظرهم شيئاً مبهما غامضاً يسبح على سطح نفوسهم ويعتدونه عرضياعاجزا بل ويخيل اليهم أن فى وسعهم العيش بدونه وأنه قد يعوق سير حياتهم بدل أن يفسح لها المجال.

أنك محال أن ترى فيهم صورة العقل المجرد مستنداً إلى الحياة الواقعية يعمل هادئا حيال شيء يود مقاومته واخضاعه. محال أن ترى فيهم ذلك العقل الفاحص مقبلا على الحياة العملية يحاول أن يفهمها ويشرف عليها بالعمل المتواصل الرصين. أنهم أرواح غير متوازنة بالمرة لااجسامهم تساعدهم على التوازن ولا الوسط الذى يعيشون فيه ولاضربات الحياة. هم سلبيون ومع ذلك ايجابيون ولكن ليس فى ذلك الاصرار العنيد والجهاد المستمر والدأب والسعى والمثابرة التى يتحلى بها الرجل الغربى كيما يحقق فكرة له أوغاية. ومن هذه الناحية هم جد شرقيين بالمعنى الكامل لهذه الكلمة يتركون أنفسهم تنساق فى تياراتميولها الطارئة دون مانضال أو مقاومة وكأنهم أبدا مصابون بداء الفضول الوجدانى يستنهضون أحط اهوائهم كى يستأنسوا بصحبتها ويستعينوا بها على احتمال الحياة لذلك هم يحتملون الحياة فى ذهول ونشوة. يدعونها تنعكس فيهم أكثر مما يودون الانتقاض عليها واذا ما انتقضوا فليس هو انتقاض العقل وتمرده. ليست هى رغبة الارادة فى كبح جماح الميول بل هو تمرد الميول نفسها وتحطيمها الحواجز الاجتماعية سدا لسغبها وارواء لغليلها. وإذ تكون الميول هى الحاكمة فما يرتجى الفرد حينئذ غير الفناء فى حماسة التدمير وإذ تكون الميول هى الآمرة فاى شى تصبو اليه النفس إذ ذاك غير الشر. ودستويفسكى يريد أن يصور

الشر . بل هو يعلق عليه الأمل العظيم و لو أن المجتمع البشري لم يكن غير ملعب للفضيلة وحدها لما كان خليقاً بالعبقرية الانسانية أن تصول فيه . ولما كان جديراً بها أن تنزل من أجله عن آثامها ولو كانت ستصبح بملائكة السماء شبهها . ولكنا اذا تأملنا الشر عند دستويفسكي وجدناه يتخذ صبغة تخرج به عن الحد المألوف وألفيناه على نوعين : شر مستوثق بنفسه جامد عقيم قد تحجرت نفس صاحبه فهي تباشره في غير احتفال كعادة مستحكمة . وشر طارىء محير خصب اليم يهز حياة مرتكبه من أصولها ويصل مابين نفسه والاخرين . وان معظم أبطال دستويفسكي هم من أشرار النوع الثاني هم أشرار و مجرمون ولكن معدن الطيبة لم يصدأ في قلوبهم الملتهبة . انهم يحبون آثامهم بالرغم منهم ولكنهم بقدر حبهم لارتكابها يحبون الألم الذي تحدثه في نفوسهم أيضا . انهم يتوقون الى الألم والألم أشد حاجات نفوسهم بل هو لذتهم وملاذهم . لذلك يجرمون . لذلك يتعذبون بالدافعين القويين : شهوة الحاق الأذى بالغير وشهوة التألم لهذا الاذى . فهم ليسوا من أشرار النوع الأول ليسوا أشرارا بحكم الارادة المتوقدة التي تستريح للشر وتطمئن لاقترافه وتعتاده مادام العقل المفكر قد هيأه والتمس له الاعذار بمختلف النظريات

ان مجرمي دستويفسكي يتوقون لارتكاب أبشع المحرمات والايغال فيها والاستفادة منها لاعن رغبة جنونية في طرد شبح الفضيلة من نفوسهم واقصاء عوامل الخير عنهم ولا عن يأس من امكان عودة تلك العوامل الى قلوبهم بل عن حاجة ملازمة لانعكاس مختلف الوان العاطفة في وجدانهم . للامتلاء بشتى أفاعيل الميول . للاحساس بالحياة عن طريق الاحساس بالالم . والخير عند دستويفسكي أن يكون المرء مجرما على هذه الصورة من أن يكون مخلوقا تافها فاتر الوجدان غشاش العاطفة جبانا منافقا يحترم القوانين ويمالىء النظم المتبعة

ويسعى لارضاء أنانيته فى الظلام كذلك الذى يدعى فيركونسكى والذي صوره لنا دستويفسكى في قصته (الشياطين) بريشة تفوق ريشة شكسبير نفسه فى تصوير ياجو .

وانك لتدهش من ذلك وتبهت وتكاد تتهم القصاص بانحطاط الوحي واسفافه . وغرابة النزعة وشذوذها غير لو انك لوعلمت أنه أراد ذلك فى سبيل غاية هى أنبل الغايات واسماها لما تحيرت ولما دهشت . اذدستويفسكى كما قلنا يعلق أكبر الأهمية على الشر . ولكن أى شر ؟ ذلك الشر الذي ترتكبه نفس بسيطة فطرية يدنسها حذر العقل وأثروته فى اضطرار وصدق طوية . في غير لؤم أوحساب ذلك الشر الذى لا يهيء الذهن المتعلم أسبابه بمختلف النظريات كما قلنا والذي لا ينجم عن سخرية العقل المثقف بمبادىء الآداب الطبيعية وانكارها . ذلك الشر البرىء الذي يخامر نفساً لم يتساو فى نظرها الخير والشر كما تتساوى في نظر العالم الطبيعي الحشرة الدميمة والفراشه الجميلة . ذلك هو الشر العظيم المقدس الخصب ترتكبه أشخاص دستويفسكى فى بساطة صبيانية وفضول ساذج وبراءة جد مبهوتة فتتجاوب للحال اصداءه فى نفوسهم ويشعرون برد فعله عليهم ويلمسون توافي تضاعيف قلوبهم آثاره البعيدة ونتائجه الرحيمة المطهرة

ان (ستافروجين) المجرم وقد ضاق بشره ذرعاً يرى شيطان آثامه ممثلا أمامه فى كل مكان فيهرع لراهب ناسك مفضيا اليه بدخيلة روحه حتى يهدأ . (وراسكولنيكوف) المجرم هو الذي أدرك سر المومس وأحس نحوها بالرحمة وجثا عند أقدامها يحاول فى عطف ملائكى التكفير عن جرمه بانقاذها من مخالب البغاء . والفتى اليوشا كارامازوف وقد شاهد أفراد أسرته يشرقون بالدعارة والاجرام حتى الجنون ينصب شخصه ضحية لهم وقربانا ويحمل نفسه عذباتهم جميعاً ويقدمها فدية

لخلاص نفوسهم فى ابتسامة فرح ورضى. أولئك الابطال ولو انهم فى نظر الرجل العادى أدنى الى الشر ، إلا أنهم قد لامسوا الخير وجانبوا الفضيلة وتذوقوا مرارة الامتهان وحلاوة الحنين الى الطهر. لماذا ؟ لأنهم ارتكبوا الشر وهم بسطاء واقترفوا الجريمة وما زالوا يؤمنون بالله . وإذا كان البعض منهم كراسكولنيكوف أو ستافروجين قد أجرم تحت تأثير كبرياء العقل المادى المثقف فهو بقدر ثورته على ثقافته تلك . وبقدر انتقاضه على عقله المتغطرس . وبقدر سحقه كبرياءه واتضاعه وتفانيه وعودته إلى غريزته الاولى بقدر ما يكون نفعه الغير وخلاصه واستطاعته أن يرى الله ماثلا فى إشعاعات نفسه ونفوس الآخرين. . . وهنا مشكلة المشاكل عند دستويفسكى بل هنا المعضلة التى تحفر الهاوية بينه وبين مفكرى أوروبا والتى يجب أن ننظر فيها بشىء من الدقة والاسهاب .

ولنا في الواقع أن نتساءل ما تلك المعضلة وما مشكلة العقل والغريزة أو العقل والوجدان التى يثيرها القصاص الروسى؟ إذا كان دستويفسكى وقد صور لنا مصائب أشخاصه وشرورهم ناجمة عن خضوعهم لاحكام الغريزة . فهل هو ينشد الدواء فى سيادة العقل كما يفهمه التفكير الاوربى ؟ أهو يرغب إلى الفرد أن يحرر عقله من حيوانية ميوله بهدم معتقداته والاقبال على الثقافة الحديثة والعلم الحديث والحضارة الحديثة ؟ أهو يطلب إلى الانسان أن يتفوق بعقله على إنسانيته وان يبتكر لنفسه مثلا أعلى تمتحن نفعه وصلاحيته قاعدة بقاء الأنسب ولا يتردد فى فرضه على الآخرين ولو اكتسح فى سبيل تحقيقه العجزة والضعاف والمهزومين على حد تعاليم نيتشه ؟ كلا . ان دستويفسكى يرى الشر فى سيادة العقل بمفرده وفى سيادة العقل الاوربى وحده الشر المستطير... ان العقل الاوربى في زعمه قد هدم الله ليستعيض عنه بألوهية الانسان وانمى فى الفرد شخصيته الخارجية

انماء لا حد له وسلطها على مختلف العناصر الطبيعية لتأسيس حضارة مادية بحتة . وهو قد أوقف المخلوق من الخالق موقف التهكم والتحدى وابتلى أوروبا بالشك والكبر والقلق الروحى والقسوة والطمع والاستبداد والانانية الجنائية . ان كبرياء الذهن الاوروبى أحل الانسان محل الله . والعقل محل القلب. والقسوة محل الرحمة . وما رخاء الحضارة فى نظره وأفانينها وزخرفها غير حجاب كثيف يستر قوماً غلاظاً متوحشين وميولا شاذة ساحقة وأهواء غير متناسبة تسعى حثيثا وراء غاية الحضارة نفسها أى نعيم الدنيا وشهوات البدن وذلك فى عملية اجتماعية أشرنا اليها وهى أن يشطر المرء شخصه شطرين أحدهما يعمل فى الظاهر بقوانين المجتمع ويمالىء سواه على ضرورتها ونفعها والآخر يطلق فى الظلام عنان غرائزه ويستغل جهده فوارق المجتمع القائم ومساوىء أنظمته ولا يبالى بتضحيه أى كان وتحطيمه توصلا لمتعته الدنيوية ومجده العالمى . هؤلاء الناس فى عرف دستويفسكى قد يتألمون ولكنهم يهزأون بآلامهم ويعدونها عقبات وجدانية سخيفة تعترض سبيلهم نحو اثبات قوى شخصيتهم باستغلال ما يمكن استغلاله من متاع الحياة الدنيا الذى لا يؤمنون بسواه . ان نظريتهم هى نفس نظرية العلم المسيطر على عقولهم أى استغلال الحياة منافع مادية بحتة فهم قد يصطدمون بسوءاتهم ومظالمهم فيتألمون ولكن نفوسهم المشبعة بالاثرة ، الهازئة بالرحمة التى تعد الخير والشر أشياء نسبية أو محض مصطلحات اجتماعية ، أو خوالج ضعف نفسانى شائن ، نفوسهم تلك تجعل آلامهم باطلة عقيمة لا تنبت غير الاضطراب واليأس والضجر والحيرة والانخلاع العصبى أو معاودة الشر فى اصرار وعناد وغبطة . وهنا هو الفارق بين آلامهم والآلام الخصبة التى تضطرم فى أشخاص دستويفسكى .

ان سيادة العقل هى سيادة الكبرياء ، والكبرياء تنكر كل شىء لتؤمن بماترى

وهى لاترى غيرنفسها ولا تبصر سوى مصالحها ولا تحتكم الا لأثرتها ، فتحسب الألم ضعفاً وتعد الرحمة هزيمة لاسيما اذا انتهت بها رغماعنها الى التضحية. لذلك يكره دستويفسكى سيادة العقل ويصرع جميع أشخاصه الذين ولوه قياد حياتهم ويشير الى أن الحضارة ليست مسألة مجتمع ميكانيكى كامل فحسب ، بل مسألة عواطف رحيمة أيضا وليس غرض الحضارة هو كمال العمل المادى فقط بل هو الكمال الروحانى أيضا . وأوروبا بأنظمتها وثقافاتها أبعد ماتكون عن هذا الكمال لفقدانها حاسة الرحمة . بفقدانها حاسة التمييز بين الخير والشر ، هاتين الظاهرتين الناشئتين عن قضائها المبرم على حاسة الايمان بالله !

هذه الفكرة ، فكرة أن لاوجود لله البتة وأن الانسان معلق فى الفضاء الابدي بين عقله الغادر وشهواته القاصمة، هى التى كانت تلخص فى نظر دستويفسكى روح الغرب ولطالما أحاطت بذهنه ولازمته واستحوزت عليه وألهبت عارض الجنون الدينى الشائع في أعماق روح السلافية . ولقد كان يرى على ضوئها ويحس بتفكك كل شيء . بتداعى هيكل الوجود . بانحلال وتعفن كل فضيلة و كل جمال. ببطلان كل قصد ومسعى . فيعجب ويبهت ويستنكر و يقول فى عرض قصته (الشياطين) « اذا كان الله الابدي لاوجود له فالانسان هو الاله الابدى والابدى لايعرف خيرا ولا شرا وكل شيء جائز له ومباح . . . » ذلك الاحساس باستباحه الانسان أي شيء مادام لاوجود لله ، هو الذى يملأ قصتيه الكبيرتين (الجريمة والعقاب) و (الشياطين) . ان بطل القصة الاولى — مأساة الطموح — راسكولنيكوف وقد أضاع ربه وفقد نور ايمانه الى حين فاختلطت عليه سبل الحقيقة يعتد نفسه عبقريا و يمنح شخصه بصفته انسانا ممتازا حق ارتكاب الجرائم ابتغاء تحقيق عبقريته . أما القصة الثانية فقد ذهب فيها دستويفسكى الى أقصى حدود هذا الاحساس و رسم ذلك النضال النفسانى العميق بين فكرة الله والاحساس بالعدم . بل ان روح العدم التام هى التى

تحلق على القصة كلها فى شخص بطلها نيكولا ستافروجين الذى أراد دستويفسكى أن يمثل فيه الرجل الملحد العصرى تصرعه عوامل الشر الكامنة فى نفسه ولا يجد من تفكيره المشلول بعقيدة العدم أي نصير أو ملجأ أو رادع إن ستافروجين هذا وقد ألحد ولم يعد يؤمن بشيء تراه ينطوي فى ابتئاس على نفسه و يدع شخصه المترجح يراكم جرائم فوق جرائم فى ذهول وعدم احتفال مطلق بأية قاعدة أدبية . أن ميوله تمر به كتيارات متضاربة ينساق فيها دون ماوعى أو حساب وهو دهش مبهوت لايكلف نفسه عناء صدها أو التفكير فيها . انه يتخذ له تجاه الحياة موقفا سلبيا لعجزه عن استجماع قواه وتسديدها نحو غاية محددة يؤمن بها وهو مع ذلك يشعر بموج الارادة يرغى بين جوانحه ويصخب فيود أن يتحرك ويفكر ويعمل وينفذ ولكن ارادته ينقصها الايمان . الايمان بسمو أى عمل يستحق الفكر والحركة والنشاط . فهو وقد تساوت لديه قوانين الآداب واختلطت ببعضها واصطبغت فى خياله بصبغة مبهمة واحدة ، لم يعد يشعر باصول الخير والشر ولا بفوارق الفضائل والرذائل حتى ولا بسورات الحسرة والأسى فيقول في خطابه لصديقته (داريا بافلوفنا) : « أعرفانى لن أحس قط بالاستنكار أو الخجل لذلك أنا لا أفهم أبدا لليأس معنى ! .... »

ان اليأس قد يكون سبيل التأمل و التأمل قد يؤدي للتفكير والتوبة والايمان ولكن ستافروجين لن ييأس ولن يتأمل ولن يؤمن لاعتقاده ببطلان كل شيء فهو اذن فريسة الشلل الانكاري وهو فريسة العدم المطلق، وهو الصورة الصادقة في نظر قصاصنا لذلك الرجل المثقف النهائي الذي تتمخض عنه كل يوم حضارة الغرب . إلا أنه مع ذلك كله ليس بالرجل الجامد فهو يستشعر بالرغم منه فظاعة جرائمه و إذا كان دستويفسكى قد أبقى فى نفسه على بعض عوامل الحيرة والقلق ودفع به فى النهاية إلى الافضاء بدخيلة أمره لقس زاهد فذلك لأن الحياة نفسها أقوى من

العدم والاحساس الديني الطبيعي مقترن بالنفس اقتران الخير بالشر . غير أن ستافروجين التعس المنكود ولو انه قد ضج باثامة حتى كاد يختبل بها وأشربها نفسه حتى جعل من لذة اقترافها ارادته الوحيدة فى البقاء فرزح تحت وطأتها واضطرب وحار واشمأز وسئم ، لم يندم رغم ذلك الندم كله ولم تصب نفسه إلى التطهر الكلي والخلاص . ذلك لأنه لم يعرف الألم . كان عقله قد سممه. عقله الساخر المنكر القاسى الذي لا يؤمن بخير أو بشر كان يطارد الألم أو يستنكره أو يتناساه فيقطع على الروح الحائرة كل سبيل للندم والتوبة والمحبة وانا بعد هذا لنستطيع أن نتعرف مثل دستويفسكى الاعلى فى الحياة ومنزعه النفسانى فنجده في فكرة السمو بواسطة الألم

إن الألم هو السبيل الاوحد الى المحبة والمحبة لا تنال الا بدم القلب . أى بتكفير المرء عن اثامه وتعقب نفسه بالقصاص تعقبا ملحفاً عنيدا يشعره بعظمة مقدوره وجدارته الانسانية بالبقاء.إن كل حياة كى تبلغ قمتها من المجد والجمال والنفع ، يجب أن تكون محض تكفير مطرد تشير به علينا المحبة عن طريق الالم ، وان جفاف الروح في عرف دستويفسكى هو جرم العقل الحديث وهو الذي نكر الالم واحاله عنصرا خطراً يتردى بالنفوس المعتلة فى مهواة الكآبة والسخرية والحقد والقسوة والفوضى فلكى يصبح الالم جوهراً خصباً يدر الرحمة على الجميع ، يجب أن تكون الشخصية الانسانية سليمة من الجبن الاجتماعى ؛ محتفظة باحساسها الدينى بريئة من الأثرة المجرمة تراجع أمام دروس الواقع نظريات العقل المتشكك ولا تدع ايمانها بالله ينقلب الى إيمان بالاستمتاع وتكالب على المادة، كل ما يرمى اليه دستويفسكى هو حب الاحساس بالألم الذى يحدثه الشر . اذ الالم هو الحياة . الألم يشركك فى عملية الخلق الالهية المتواصلة فيميط لك اللثام عن حقيقة سواك ويزهر فى

جوانب نفسك فضائل الاتضاع والعدل والرحمة والمساواة ومتى أولعت به فقد يدفعك ولعك هذا لازالته من طريق حياتك بافعام حياتك به وحمله عن غيرك والرضاء به من نصيبك وعندئذ تكون قد عشت حياتك الخاصة والحياة العامة مرات. وانصع ما يبدو ذلك في (اليوشا كارامازوف) الذى أشرنا اليه وفى الشاب المدعو (شاتوف) أحد أبطال قصة (الشياطين) فهو وقد هبطت به امرأته ذات ليلة حاملا على وشك الوضع سفاحا وكانت قد انفصلت عنه من زمن وخانته وعشقت آخر لم يتبرم بها لحظة ولم تخطر بباله فكرة الانتقام منها ولم يعاتب ولم يتأفف ولم يصخب ولم يتشف بل تناسى كل شيء وفتح لها صدره رحيباً وآواها فى حجرته وأضجعها على فراشه وراح يجوب الشوارع ليلا فى طلب قابلة تنقذها من ألم المخاض وتنقذ الطفل البرىء . . .

ان شاتوف كان فى تلك الساعة صورة عظيمة من صور النبل الانسانى لم نعهدها قط في الآداب الأوروبية ولم نألف مثلها عند أى قصاص غربى. الا أن اليوشا أو شاتوف إذا كانا يمثلان بعض أرجه الفلسفة الدستويفسكية فهما لا يمثلان منزع القصاص نحو المثل الفلسفى الأعلى كما يمثله البرنس موشكين بطل قصة (الابله)

إن البرنس موشكين هو الرجل الساذج الهادىء الوديع الذي يعده الجميع ابله غبيا وما هو الا صورة المخلوق الغريب المتفوق الذى تجرد من عقله وقضى على أثرته وتحرر من ميوله ولم يعد يجن بالحياة كسواه بل لم يعد يرى أن فى الكون شيئا خليقا بأن تسف من أجله النفس وتخدع وتكذب وترائى كى ترسب فى النهاية وتتعفن

انه يعيش فى سماء أبداً مصحية وزاهية لا تصل اليها أدران الارض وهو يشرف على الخليقة أشرافا تمر به ضغائن الناس وأحقادهم فلا تنال منه الا بقدر ما تنال من الطبيعة الرائعة فى صمتها الواجم وصبرها وعدم احتفالها

ان البرنس موشكين فقد الاحساس بالماضى وبالمستقبل وفقد الاحساس بالوقت والزمن أيضا . فهو يعيش فى الحاضر المتبدد المتلاشى . فى الدقيقة المنصرمة الهاربة . وكأن روحه تولد من جديد فى كل لحظة. بل كأنه سيظل على الدوام طفلا يدهش لكل مايرى ويستكشف غرائب الحياة مبهوتا ذاهلا في كل خطوة .

انه لايعيش بل يسبح فى اللانهاية المطلقة يملأ نفسه الشعور بالابد الشامل وكأنه قد خلد في هذا الابد حقاً ولو انه لايزال بعد مغلولا الى الارض التى لايحفل بها أوهو لايكاد يبصرها . .

ان حياة البرنس موشكين هذه هى الحياة التى كان يتمنى دستويفسكى لو انه استطاع أن يحياها وهى مثله الفلسفى الاعلى وانه كسائر الامثلة العليا قد يقدم على تحقيقها فرد واحد وقد لاتتحقق البته ولكنها تظل عنوان توق البشرية الدفين لاجتياز محيطها المحدود والتفوق على نفسها واثبات عظمتها الكامنة فى أي شكل من أشكال الالوهية !

٭٭٭

وقبل أن أعالج تلخيص الفلسفة الدستويفسكية اود ان بدى رأيى فى داء (السادزم) أى داء الوصول الى اللذة بأحداث الألم للغير وهو المرض المصابة به معظم شخصيات دستويفسكى . فكارامازوف الوالد مثلا لايجد اللذة الا متفننا فى ايلام جميع من يتصل به وتراه أصفى ما يكون وامتع وهو يستثير في ابنه حاسة الغيرة منه على امرأة يحبانها كليهما . وكذلك ستافروجين لايستولى عليه الفرح الباطنى الا بمقدار ما يلحق غيره من شقاء ، وايفان كارامازوف وقد أوحى لاخيه سميرديا كوف بقتل والده لايرى لذة أبلغ من تعذيب أخيه باحتقاره الشديد له وتعاليه عليه وكبره وتنصله وتظاهره العجيب حياله بالدهش المطلق والبراءة التامة من اشتراكهما سويا فى الجرم .

هذا هو (السادزم) وعلته الأولى هى الضجر . فجماعة الساديك أكثر ما يكونوا فى الأصل متضجرين حيارى فى حاجة لايقاظ أعصابهم كيما يحسوا الحياة فى صخب و عنف . فهم ينزعون الى التطرف فى العواطف والميول والافكار كنجاة لهم من الضجر . وهم لا يطيقون حياة الفرد المتوسط لأنها فى الواقع حياة التشابه والضجر وما أريد أن أقوله هو أن هذ المرض النفسانى لا يقتصر على أشخاص دستويفسكى بل هو مرض انسانى عام فنحن جميعا (ساديك) لا سيما فى تلك السويعات التى يراودنا فيها الشر فنحاول الخروج به على المجتمع . إن كل عمل شرير هو عمل لا يقصد به في الحقيقة سوى قتل الضجر الكمين الناشئ عن رضانا القهرى بحالة اجتماعية متشابهة . فالشر هو نزوع الى تبديل لون الحياة فى لذة جديدة يذكيها الألم ويلهبها ما دامت لاتستطيع أن تتحقق الا ضد المجتمع أى ضد قوانينه وأنظمته التى مهما حاولنا العبث بها فنحن ما نزال نمت اليها بسلطان العقيدة و التربية والوراثة والحياة الاجتماعية نفسها . فنحن جميعا كأشخاص دستويفسكى نحس فى نفوسنا قوي فظيعه غير مستعملة تضجرنا فنلجأ نوآ للشر عالمين أن الشر هو احداث الألم لانفسنا وللغير ولكن هذا الألم نفسه فيه لذة هائلة لنا نستزيدها ما استطعنا لنتمكن من التمادى فى الشر جهدنا لا لنستكمل فقط معرفة الحياة بل لنتذوقها أيضاً .

°°°

والآن فلنعد إلى حيث كنا :

إذا تأملنا فيما تقدم حكمنا فى النهاية بأن نظرية دستويفسكى المحببة اليه والشائعة فى معظم أعماله هى نظرية شرقية أسيوية بحتة . نظرية ازدراء العقل المجرد . فاشخاصه ما تفتأ تتساءل عما إذا لم يكن للانسان من حقيقة تصبو اليها نفسه غير الحقيقة الواقعة الملموسة وعما اذا لم يكن له من سبيل آخر للمعرفة

غير العقل والحواس وما اذا كان القلب لو ترك اشأنه منزها عن أوضاع العقل المادية واكاذيبه الملفقة المصطلحة لا يصلح قاعدة للتفاهم وواسطة للأخوة والاتحاد بين الجميع . وهو يرى أن العقل قد يستطيع فهم الشر ولكنه لا يستطيع كبحه . واذا فرض أن تغلب عليه وكبحه فهو يكبح أيضاً ما يحدث الشر من ألم لا بل هو يطرد هذا الألم طردا إذ ليس من مصلحة العقل أن يتألم وعليه فهو لا يمكنه الاستفادة من الالم لا لتهذيب نفسه ولا لرحمة الآخرين

إن ثورة الرجل على العقل المجرد ليست ثورة على العلم فى ذاته وانكار لما قطعته الحضارة من أشواط بعيدة فى سبيل التقدم المادى ودعوة للرجوع بالانسانية الى بساطة الفطرة الاولى على حد تعاليم روسو وتولستوى مثلا . فهو مقر بفضل العلم معترف بضرورة نشره وتعميمه ولكنه يأبى أن يرى فى الثقافة العلمية أية قاعدة أخلاقية تصلح للحياة . لذلك هو لا يفتأ يفرق بين الاخلاق والعلم كما قال فى رده على العلامة (جرادوفسكى) : « لن تقوم الاخلاق على العقل أبدا لانها انما تصدر عن القلب من طريق الدين » ومعنى هذا أن ثقافة العقل المجرد لن تثمر أخلاقا صالحة لمجموع الانسانية اذ هى ثقافة بلا قلب لانها بلا إيمان . واذن فيمكننا . أن نستدل من ذلك أن دستويفسكى يرى أن لا علاقة البتة بين ثقافة العلم العقلية وبين الاخلاق إذ العلم بطبيعته جوهر حر يحمل خصائص العقل الحر أى الشك والمراجعة والتقلب وعدم الاستقرار فكيف يمكنه أن يفرض على الفرد مثلا روحيا ثابتا أعلى يصلح على الدوام لهداية حياته اليومية. أنه يقيده بالواقع المشاهد بينما الانسان يحتمل الواقع هذا ولا يكيفه . يحتمل الواقع مكرها ولا يملك تبديله فيحول بصره إلى فوق ويظل يطمح أبداً لحياة أكمل وانبل وأعدل من الحياة الواقعة وهذا الطموح بعينه هو أصل الاحساس الدينى وهو في عرف دستويفسكى سر عظمة الانسان والدعامة الكبري التى يجب أن تقوم عليها الثقافة قبل العلم وقبل العقل

وعليه فتكون نظرية دستويفسكى الاجتماعية هى الانتفاع بالعلم والابقاء على الدين أو التأليف بين العلم والدين. أجل. ولكن أي دين ؟ أية عقيدة ؟ أى مذهب ؟ أهو ذلك الدين الذى يوقع بين الانسان وربه وبين الانسان وأخيه ؟ أهو ذلك الذى يسعى لخنق حرية الفكر واثارة حرب الطبقات وتأييد سلطة رأس المال واقامة الحضارة على جثث العمال والفلاحين ؟

تلك كانت أعمال الكثلكة التى أحالت أوروبا كافرة بما أوهمت الناس أن الدين لايتفق لامع حرية الفكر ولا مع المساواة. أما مايدين به دستويفسكى فهو المسيحية على أصلها بدون عقائد موضوعة وشروحات مضللة. المسيحية بما تشترك فيه مع جوهر كل دين من تعاليم المحبة والعدل والحرية والاخاء الانسانى. وهو يري — وهنا مقياس عظمة الرجل ووجه الغرابة والتجديدفى العقلية الروسية — يرى أن أوروبا شوهت الفكرة المسيحية تشويها منكرا وذلك بأن جعلت من آدابها فضائل فردية بحتة لايجب أن تعدو الفرد الى شخصية الامة. فاوروبا تقول. أن للفرد أن يكون مسيحيا وله أن يعمل بمبدإ التراحم والعدل والمحبة إذا شاء. أما الامة أى الحكومة فعليها أن تكون وثنيةمااستطاعت عليها بمبدإ القوة وفضائل السطو والغزو والاستعمار واستلاب الضعيف حقه فى الحياة وحريته نزولا على منزع تلك الثقافة النفعية التى تنادي بها على السنة قادتها وعلمائها. هذا المبدإ مبدأ الأمم ككتل متفرقةقوية يناضل دواما بعضها البعض لاحياه لها بغير عبادة القوة هو الذى يسرى فى أعمال دستويفسكى مسري النار تحت الرماد وهوالذى يحاول القصاص بكل ماأوتى من فكر وفن أن يحطمه ويبيده وأن نظرة واحدة على التاريخ تكفي لاقناعنا بأنه فى الحق سلسلة لانهاية لها من أعمال الزهو العصبي تمليها على الابطال المزعومين أوضع شهوات التملك والفتح مستحيلة فى نظر الاغلبيات جنونا بالسيادة والعظمة. فمادام التاريخ لايزال متمشيا مع القوة فهو سيعيد

أبدا فواجع القتل والاستعباد المتبادلة واذن فعلام الكد والتعب وفيم العلم والتطور ولم التضحية والموت فى سبيل إقامة الحضارات الزاهرة وذلك المبدأ المنكر يقرض جذعها كالسوس و يعمل على تقويضها باثارة الاطماع العمياء وابتعاث الحروب الماحقة التى يتردى فيها مجهود الانسان مخضبا بدم الانسان؟

تلك هى النظرية المسيطرة على النفسية الروسية نظرية جعل آداب الفرد آداب الامة والانسانية جمعاء لاتعترضها أكاذيب السياسة ولا تحول بينها و بين الازدهار فوارق الوطنيات !

◦◦◦

و يمكننا فى الختام ان ناخذ دستويفسكى أيضا بنظرة شاملة ونلخص منزعه الفكرى والروحى في هذه الكلمات فنقول : ليست السعادة فى المعرفة فقط بل فى المعرفة والمحبة ممتزجين . فى العلم والدين معاً . الدين الذى هو محبة فقط . للعلم ان ينمو ويرقى لا لمصلحة طبقة دون طبقة بل لخير الجميع ومصلحة الانسانية المشتركة وذلك لن يكون إلا عن طريق الاخاء والمساواة والتضحية أي عن طريق الايمان . فالعلم بلا ايمان خطر على الانسانية كما ان الايمان بلا علم قد يؤول الى تدهور وانحطاط . والقصاص فى صميم نفسه لا يوافق من يعمل على انقاذ العالم بنشر أفكار انسانية تعنى بالمادة وتغفل عن الروح . أفكار شيوعية مثلا تتوق لتخفيف و يلات الفقر وانصاف العامل و الفلاح وتعميم المساواة المادية بين الناس ثم هى فى الوقت نفسه تلقى بذور التعصب العلمى وتنادى بوجوب الالحاد كخير وسيلة لاستكمال تطور الفرد وتحضره . هذه الشيوعية فى عرف دستويفسكى مادامت ملحدة ومادامت متعصبة للعلم المادى كاختها الديموقراطية فهى لن تعرف المساواة الرحيمة أبداً ولانها ملحدة ومتعصبة أيضاً فهى لن

تستطيع خدمة المجموع بلا نفع شخصى و لن تقوى على مقاومة عوامل الاثرة فيه . ولن تضمن رقدة غرائز الطمع القديمة فى نفس الجماهير ولن تملك رد انتقاضها عليها يوماما . وعليه فستنقلب متى حانت الفرصة أشد وحشية وفتكا مما كانت عليه جماعة المتمولين التى قامت هى على انقاضهم . ذلك لان الاصلاح الاجتماعى أى هدم النظم القديمة والاستعاضة عنها بغيرها لن يغير وحده من طبيعة الانسان ولن يجعل آداب الافراد ترتقى بنسبة رقى النظام الاجتماعى ...

واذن فما يكون رأى دستويفسكى النهائى ؟ أهو يمقت الشيوعية و يحاربها؟ أهو لا يرضى بها كنظام اقتصادي ؟ أم هو يسخر باصلاحاتها الاجتماعية كلها ؟ لاأجسر ان أصارح بما أرى وأخشى التورط فى زعمي ولكنى مع ذلك أقول : إن دستويفسكى يرضى بالشيوعية و يقبلها ولكنه يريدها تامة بالدين كاملة بالايمان تقترن بذلك النظام الاقتصادي فتصهره وتطهره . تلك هى فى زعمى أمنيته البعيدة التى يتردد صداها فى نفس الشاب الطاهر الوديع (اليوشا) حيث يقول مشيراً الى نفس الراهب زوسيما أستاذه : « انه ليحمل فى فؤاده سر التجدد الروحى للجميع . تلك القوة التى ستقيم الحقيقة فى النهاية على الارض . فيصبح الكل قديسين و يحبون بعضهم البعض فلا يكون هناك أغنياء ولا فقراء ولا أصاغر ولا كبراء بل اخوة وابناء الله » وانك لترى من هذه الكلمات ان الرجل شرقى صميم استوحى عقيدته وايمانه لينشىء فنه وفلسفته وانه بعد هذا كله لايعتمد فى سبيل تحقيق حلمه على غير الألم والتضحية والمحبة المؤمنة وحدها .

وسواء أكانت هذه الافكار أحلاما أم حقائق بل سواء أكانت جديدة

أم قديمة . فالغرب ولو انه لايقدر إلا ما اشتملت عليه من فن رائع ومعرفة عميقة بالطبائع البشرية إلا انه مايزال يقف بها مشدوها حائرا و يفزع اليها كلما ضلت به الغرائز الدنيا في صحراء المادة القاحلة التي لا تقع العين منها كما يقول الشرقيون على أية نهاية فيها للانسانية المسكينة بعض العزاء .



اين هو الادب المصرى ؟..

(محاضرة ألقيت بدار جمعية الشبان المسيحية)

نسمع فى مصر دعوة شديدة حارة لابتكار أدب مصرى يصدر عن طبيعة بلادنا و ينم عن خصائص عنصرنا و يكون بمثابة تاريخنا المعنوى وما نمر به فى مختلف الظروف من حالات نفسانية وأزمات اجتماعية وتطورات خلقية وفكرية

لكل أمة في العالم أدب خاص يرسل على تاريخها نوراً ساطعاً تستضيء به جنباته و تعلل بواسطته شتى الوقائع والحوادث والانقلابات التى مرت بتلك الأمة . فالادب رجع صدي بعيد لما يتردد فى نفسها من أمانى وآمال وهو الصورة الصادقة لحركة الحياة اليومية التى بدونها يصبح محض سرد ممل باطل لحوادث متشابهة جافة مالها من انتهاء

فنحن نستطيع أن نفهم الثورة الفرنسية مثلا من مطالعة أعمال فولتير وروسو وديدرو ونستطيع أن نحس بمقدمات تلك الثورة فى القرن السابع عشر لو أنا تناولنا بالفحص والتحليل روايات موليير وما فيها من تهكم مر وسخرية لاذعة ونقد صارم لذلك العصر وتلك البيئة . ونحن اذا تقدمنا ونظرنا إلى أيامنا هذه الفينا الادب هو الذى مهد و يمهد السبيل إلى الاشتراكية والتآخى الانسانى وان تولستوى ودستوفسكى وجوركى وشو وأناتول فرانس وروماں رولان على اختلاف آرائهم وخططهم قد عملوا و يعملون على تهيئة النفس البشرية لقبول عاطفة وفكرة الاشتراكية بتخليص تلك النفس من عبء العقائد الدينية المتوارثة والمصطلحات العتيقة والنظم الرجعية البالية

فأين نحن من هذا كله ؟ . . . وأين هو أدبنا الذى يسجل احساسنا خاصة

واحساس الانسانية عامة و يشترك مع الفكر البشرى العامل فى اقامة صرح الحضارة الجديدة

لاشىء من هذا فالنهضة الادبية المزعومة فى مصر لم تخرج حتى الآن غير فريقين من الأدباء: فريق المتعصبين للأدب العربى فى تفكيره وأسلوبه من كتاب و شعراء ما يزالون يستوحون الشعر العربى فى نظم قصيدة عصرية أو كتابة مقال اجتماعى . و فريق الذين ينقلون الثقافة الفرنجية يحاولون بها الحاقنا باوربا . فريق المستعبدين للماضى و فريق المدرسين من رجال الجامعات واضرابهم الذين يرددون هم أيضاً ماقرأوه فى كتب مفكرى أوربا و نحن بين هذين الفريقين نفتقد شخصيتنا فلانجدها . نبحث في أعمالهم عن فكرة مصرية عميقة . عن احساس مصرى صميم . عن صورة مصرية صادقة لما يختلج فى نفوسنا من عواطف و مشاعر و ميول فلا نصادف من كل هذا شيئاً

أي شاعر فى مصر الهمته طبيعة بلادنا و عاداتها و أخلاقها شعراً مصرياً أي شاعر فى مصر يحس فى شعره باضطراب أهل المدن وحيرتهم في دور الانتقال هذا و تخبطهم بين حضارتين متقاتلتين و أثر هذا فى احساسهم ؟ بل أين القصصى المصري الذي يرسم كل هذا على حقيقته متغلغلا فى نفوسنا مستبطناً مشاعرنا مستنبشاً أسرارنا محاولا أن يلمسنا حقيقة النفسية المصرية وماتتفق فيه مع جوهر النفس البشرية عامة ؟ هذه بعض أوجه الادب المصري الذى نطمح اليه فماعلة انعدامه و ماسبب ذلك الضعف الشائن فى أذهان رجال يمثلون أمة تواقة الى العلا نزاعة الى المجد ؟ السبب أيها السادة هو أن أدباءنا الذين قد يكون فى استطاعتهم خلق هذا الادب هم مفكرون لاأدباء . أو هم مولعون بالفكر دون الادب . أو هم مغرمون بالثقافة و الدفاع عن الثقافة أى الحصول على أكبر كمية من المعلومات واذاعتها و تعميمها بيننا . فهم ينقلون الينا أفكار الغرب

و لا يهتمون بتصوير حالتنا النفسية و الاجتماعية ازاء تلك الافكار . هم يريدون اصلاحنا بنشر التعاليم والآراء التي هي غريبة علينا و التي لن تكون الا محض نظريات أثيرية مخيلة اذا لم نرسم وقعها في حياتنا الخاصة ومدى تأثيرها في كيان الفرد منا و كيف تتحرك نفوسنا حيالها و كيف ينتفض احساسنا و تفكيرنا عليها او يلين فيؤمن بها . لن تكون تلك الافكار أو تلك الثقافة فى ذاتها أدباً الا متى طبقت علينا و أعطت صورة صادقة منا و انى لا كون جد مغتبط ومعجب لو أن قصصياً مصرياً حاول مثلاً أن يرسم لنا حياة زعيم مصرى ثائر كيف تكون عقله و كيف يعيش بيننا وماهى أفكاره و كيف يصطدم بالبيئة الرجعية التى تسعى للقضاء عليه او ان روائياً مسرحياً تناول فكرة الصراع بين الجديد و القديم فابرزها للناس فاجعة عائلية او كوميدية أخلاقية مصرية . أو أن شاعراً تتعادل فيه قوى الثقافة وقوى الاحساس انحنى فى رحمة و حب و تقديس على ريف بلاده فتغنى بسحر الفلاحة المصرية و عظمة الفلاح المصرى و بطولته و امه وعبوديته

بهذه الوسائل و أشباهها و بالاستعانة بالقوالب الأجنبية الفنية أى القصة والدرامة والكوميديا والتراجيديا للتعبير العاطفي والفكرى عن حياتنا نستطيع أن نطبق أفكارنا على البيئة التى نحيا فيها . و بهذه الوسائل وأشباهها نستطيع أن نغمر ثقافتنا فى التربة التى نحاول اصلاحها فنخرج أدباً مصطبغاً بصبغة شعبنا يحمل فى تضاعيفه ذلك الغليان الذى يكاد يحطم صدورنا . والا فكيف نريد اصلاح الفرد المصرى ونحن نجهله أو نتجاهله وكيف نلقى اليه بأفكار جديدة دون أن ندرس فى الوقت نفسه حياته الواقعة درساً تحليلياً وافياً وأن نرسم منها صورة شاملة لمناحيها الفكرية والاحساسية ؟ ثم أن هناك غير هذا . هناك العواطف البشرية التى يقوم عليها الأدب كفن والتى قد تتشابه في جوهرها الانسانى . ولكن هناك أيضا اختلاف مظاهرها تفاعلاتها باختلاف أمزجة الأمم والشعوب. هناك اللون الاحساسى الفكرى

الذى نميز به أدبا عن أدب و نعرف به روح أمة . واذا كانت عبقرية الأدب الروسى تمتاز بالانسانية العميقة والرحمة الواسعة و الدعوة إلى المساواة الثورة على فوارق الطبقات ، وعبقرية الأدب الفرنسى بالوضوح والمنطق والتوازن ودقة التحليل ، وعبقرية الأدب الالمانى بسعة الخيال واتقاد العاطفة و الصوفية الفلسفية ؛ فيجب أن تكون هناك عبقرية أدب مصرى لها طابعها الخاص فى النظرة الى الحياة و التعبير عنها . فنحن اذا لم نصور الفرد المصرى ونحلله لم نعرف لون عاطفته ولم نستطع بالتالى أن نفهم كيف يستقبل وجدانه مختلف شؤون الحياة و كيف يتصرف حيالها وكيف يعالجها و يفكر فيها

ونحن متى ذكرنا عملية التصوير والوصف والتحليل فقد ذكرنا الفن وقد ذكرنا الادب كفن . وأدباؤنا الكبار و ياللاسف غير فنانين على الاطلاق . ويحق لنا أن نتساءل عن سر هذه الظاهرة الغريبة فى نهضتنا . لماذا يكون محصول أدبائنا العقلى بضع مقالات تجمع فى كتب ويطلق عليها اسم أعمال ادبية لماذا يكون أدبنا أدب مقالات تدور حول موضوعات معظمها بعيد الصلة بنا لا يتناول بالبحث غير ما يمكن نقله من الكتب الاجنبية . لماذا لم تنجب مصر حتى الآن اديباً فناناً مفكرا بالمعنى الصحيح تنعكس فيه خصائص عنصره فيؤديها في أمانة وصدق و عبقرية . نحن نبحث عن رؤوس خلاقة فلا نصادف غير أذهان كليلة تعيش عالة على الفكر الاجنبي و تدعى في الوقت نفسه النبوغ و العبقرية . يقول البعض ان السبب فى ذلك هو أن مصر اصبحت أمة لا شخصية لها وان موقعها الغريب من الشرق و الغرب و تعدد العناصر والاجناس فيها و تضارب الثقافات جعل منها بلدا مختلطا لن يمر عليه ربع قرن ايضاً حتى يفقد بالمرة روحه الشرقية . . . فهل هذا صحيح . وهل الروح الشرقية هذه هى التى يجب أن تمد ادبنا المنشود بمادته الخاصة . وهل لا يزال لتلك الروح الشرقية قيمة كبيرة . وهل إذا أصبحنا يوما أوربيين لا نكون مع ذلك مصريين .

ان رقى أنظمة الامة و تطور العقل الفردى والاتجاه نحو حضارة لا بد من اعتناقها وإلا

سحقتنا كل ذلك عوض أن يمحو شخصيتنا هو على النقيض ينيرها أمامنا ويكشف لنا عن أسرارها ويرشدنا الى مواطن القوة فيها . وان كون شعوب الغرب أوروبية لم يمنعها ذلك من أن تحتفظ بشخصياتها رغم نزعتها الحالية الى الثقافة الدولية المشتركة وأن تكون متنوعة الاساليب فى الاداء العقلى مختلفة العبقريات . وعليه فاتصالنا باوروبا لن يفقدنا شخصيتنا ولن يعوق الأدب المصرى عن الظهور . ولكن البعض الآخر يقول ان نهضتنا تسير سيرا طبيعيا لا تعجل فيه ولا طفرة واننا بابحاثنا المطردة فى الفكر الاوروبى ودرسنا شخصيات عظمائه ونقلنا الثقافة الاجنبية انما نغذى عقول الشعب ونعلمه كيف يتفهم المشاكل الاجتماعية ويتذوق الآداب والفنون الصحيحة حتى اذا ماتمكنا من رفع مستواه العقلى والوجدانى كان هذا أعظم تمهيد لنشأة بيئة جديدة يمكن أن تخرج لنا يوماً ذلك الاديب الفنان المصرى الخالق المستقل الذى يجد له من وسطه المستنير مساعدا له يفهمه ويشجعه وينصره ويشترك واياه فى التطلع الى ابتكار أمثلة قومية عليا. يقول الدكتور طه حسين في مقاله عن « التجديد » فى العدد الاول من المجلة الجديدة : « انه اذا كان التطور العقلى والشعورى بطيئا فلاجرم ان تبعه في البطء تطور التعبير أى تطور الحياة الادبية » ثم يقول فى موضع آخر : « وخير طب لهذا انما هو اعانة التطور العقلى والشعورى على أن يتحقق ويسرع الى حد ما ، وبمقدار ماتعين هذا التطور على الاسراع يكون حظ أدبنا العربى من التجدد» . الدكتور طه حسين يتكلم عن تجدد فى الادب العربى ونحن انما نتكلم عن خلق في الادب المصرى المكتوب بالعربية أو باية لهجة عامية من لهجات الشعب حسبما يتراءى للكاتب ووفق مايقتضيه موضوعه وكما نشاهد فى كثير من الاعمال الادبية الفنية لكثير من كبار أدباء أوروبا

ولكنى أريد أن أناقش نظريته :

أن الرأى القائل بأن البيئة الراقية هى التى تنبت الرجل العظيم وان الاعمال العظيمة يجب أن تتناسب والوسط الذى خرجت منه هو فى زعمى رأي نسبي محض . اذ فى وسع العظيم أن يخلق نفسه بنفسه كما وقع لغالبية أدباء الروس الذين خرجوا من الشعب وكتبوا للشعب . والعظيم ليس فى حاجة لوسط خاص بما أن الانسانية بأسرها وسطه . واذا كانت بيئته جاهله متأخرة – كما هو المشاهد عندنا وكما كان الحال فى الروسيا – فان فيه من القوى ما يمكنه من التحرر منها والسيطرة عليها . واذا كان عصره جامداً فهو يتقدمه بل هو قد يتنبأ بمصيره وقد يحمل له حاجات ومطامع جديدة تعتلج فى نفوس أبنائه خفية مستورة حتى يفد ذلك العظيم فيبرزها الى النور الساطع

واذا كان التجدد الادبي موقوفا على التطور العقلى والشعورى حقاً فكتابنا الكبار أصحاب الشهرة والمجد والعبقرية هم اليوم فى قمة هذا التطور العقلى والشعوري فلماذا لم يترتب اذن على تطورهم هذا تجدد فى الادب ؟ ان كتابنا الكبار أيها السادة متطورون جدا . مثقفون جدا . مهذبون جدا . ولكن هذا كله لم يجدد أدبنا في شيء لا في جوهره ولا في أسلوبه . حتى الاسلوب مازال الى الآن تحدياً صارخا لأساليب ابن المقفع والقاضى الجرجانى والجاحظ وأضرابهم . وعليه فلا علاقة وثيقة بين رفع مستوى الشعب العقلى عن طريق الثقافة وبين ظهور الأديب العظيم . وان ظهور ذلك الاديب لا يتبع بالضرورة اعتناق تلك الثقافة أو تعميمها . أنا لا أريد أن اتهم الثقافة فى ذاتها أو انتقص من مجهود الفئة العاملة على نقلها أو ادعو الى إنكارها فنحن أحوج مانكون اليها تمشى بها مع روح عصرنا ونبنى مستقبلنا . ولكنى أقول ان اقبال أدبائنا على الثقافة الاجنبية وأقصارهم جهودهم — أما على البحث فيها وأما على تطبيق طرائقها فى دراسة الادب العربى — قد وضع حدا فاصلا بينهم وبين شعبهم

وجعلهم بمعزل عن النفسية الخاصة التى يتسم بها وصرفهم عن درس أحواله وتصوير شخصيته

ان حياة أولئك الادباء العقلية المتصلة بأحدث ماتبتكره أوروبا وأمريكا من ضروب التفكير جعلت منهم شبه فئة ارستقراطية تعيش على هامش مجتمعنا وتنظر اليه كاطار حقير لايتناسب مع إحساسها المتمدين ولامع تفكيرها . وهى قد تذهب فى يأسها وازدرائها بعض الاحايين إلى حد أن تنكر صلاحية هذا الشعب للحياة الحرة الراقية بتاتاً ...فهى تهرع إلى الفكر الاجنبي تخلق به حياة خاصة ممتازة لاتمت الى حياة هذا الشعب العميقه بصلة . وأبلغ شىء في الدلالة على ذلك أن الاديب المصرى المثقف الحالى أديب متحضر للغاية لا يعرف الفلاح المصري ولا العامل المصري ولا يعبأ بهما ولا يحاول أن يعيش بينهما ليتعرفهما وهم سواد الشعب . فعوض أن يهتم بهما ويستخدم ثقافته لمصلحتهما ويصبغها بصبغتهما ويستوحيهما أدباً جديدا وفنا جديدا وجمالا جديدا يفر منهما الى حضارة أجنبية كاملة المفاتن يفنى فيها فلا يعود بالمصرى ولا بالاوربى بل يصبح مخلوقا طفيليا يعيش عالة على فكر سواه واحساس سواه . فالعقاد مثلا على قيمته الكبيرة ينقل الآراء الاجنبية فى الفن والاجتماع ويهتم بتحليل شخصيات نوابغ الادب الفرنجى والعربى ويقول شعراً عربيا بحتاً ليست لعواطفنا الحالية المصرية الانسانية فيه أى شأن

والمازنى يهجم على الشعر الانجليزي فيستوحى معانيه ويصبها في شعر عربى أيضا ثم هو اذا عالج النثر فى موضوع مصري تناوله تناولا سطحياً وحوله الى مادة هذر ومجون متأثر بكتابات الكاتب الامريكى مارك توين . أما هيكل فلما ان كان قريبا من شعبه وكان يستخدم ثقافته لفهم هذا الشعب حبه كتب قصة زينب عن الفلاح المصري ولكنه لما أن تضخمت ثقافته الاوربية أهمل ذلك الفلاح وراح يكتب عن لوتى وفرانس وشلى . أن الكتابة

عن أولئك الكتاب هى ولا شك عمل ضرورى لازم ولكنها ليست بعمل الخلق الشخصى العظيم ونحن انما نطالب هيكل والعقاد والمازنى وأمثالهم بالعمل اللازم والعمل العظيم

وعليه فاذا ما رغبنا فى خلق العمل الادبى العظيم هذا يجب أن نعرف كيف ننتفع بثقافتنا . يجب أن نحسن استخدامها يجب أن نطبقها على وسطنا وندمجها فيه إذ من واجبها ان تقربنا اليه لاان تقصينا عنه . يجب ان نستعين بها على الاتجاه نحو شعبنا نستقي منه ادبنا وفننا . نعم . يجب ان نذهب الى الشعب . ان نحكم الصلة بيننا وبينه . ان نشعر بمطالبه واحتياجاته . ان نفهم ان العمل الفنى المصرى لابد ان يكون صورة صادقة للشعب المصرى وان عملية التصوير هذه هى فى نفس الوقت عملية فن وعملية ثورة واصلاح

كل أدبائنا المثقفون أيها السادة ينزعون فى صميم نفوسهم الى الاصلاح والثورة فلماذا لايتخذ هذا الاصلاح وتلك الثورة شكلا أدبيا يحمل طابع الفن؟

لماذا هم اذا أرادوا الكلام عن العائلة المصرية كتبوا مقالا ثوريا اصلاحيا حارا في جريدة ولم يكتبو هذا الموضوع فى شكل قصة مثلا ؟ انهم فى ذلك أحرار . ولكن ليس لهم أن يقولوا أن المقالة عمل أدبى عظيم اوانها احدثت فى البلد أية نهضة ادبية او فنية . إذ العمل الادبى هو العمل الفكرى والتصويرى معا أما المقالة فقد تعطينا فكرة ما عن العائلة المصرية ولكن الفكرة ومحتملاتها ونتائجها قد نقبلها أو نرفضها وهى لا تكفي البتة لاقناعنا بصواب رأى الكاتب بعكس القصة التى هى صورة نشاهدها أمام أعيننا تقرر حقائق ملموسة واقعة فهى اذا كانت صادقة فسنحس بصدقها وحقيقتها رغما عنا ، وسنعرف بواسطتها ما اذا كانت الثورة كامنة فى قلوبنا حقا وما إذا كنا فى استعداد اليها وما اذا كانت هناك قوى راقدة جديرة بتحقيقها . وانى لاستطيع أن أقول أن صدق الاديب فى تصويره مجتمع كمجتمعنا هو أفعل فى سبيل الثورة من جميع المقالات.

لان الحقائق تبدأ وجدانية ثم تنتهى نظريةفعملية ،أما اذا ظلت محض نظريات فلن تكون إلا مثاراً للمشاغبات والجدل كما هى الحال عندنا اليوم

أنا أريد أن أؤمن بأن مجتمعنا فى حاجة للاصلاح وأن ثورة التحرر على كل قديم فيه واجبة ـ ولكنى أطالب الاديب بتأدية مهمته كأديب وكفنان أطالبه بأن يثبت موقف بلاده فى صورة فنية صادقة تستطيع اقناعى بحاجة بلاده الى الثورة وبما هو مودع فيها من قوة وضعف،وبشخصيات أفرادها وأساليب تفكيرهم وإحساسهم ونظرتهم الى الحياة . وهكذا تشترك الفنون الاشتراك النافع الصحيح فى نهضه أمة وهكذا يصبح الاديب من حيث لا يدري أكبر عامل من عوامل التمهيد الوجدانى لحوادث الانقلاب داعية مصلحاً ثورياً فى ثياب فنان كما وقع لجميع أدباء الروس أيضاً .

وجملة القول أن أدبنا المصرى لن يظهر إلا متى أنعمنا النظر فى شعبنا . متى أخضعنا ثقافتنا لروح شعبنا . متى حاولنا أن نفهمه بها ونحبه كما يحب الكاتب الروسى شعبه . متى أيقنا أنه ككل الشعوب له شخصية عميقة مجيدة حقيقة بأن تخلد فى العمل الفنى المجيد .

سخرية الميول

مذكرات عن قصة حب

— ١ —

٢٠ إبريل سنة . . . .

كنت ليلة أمس بباب مسرح الاوبرا أتلهى بملاحظة الجمهور وأرقب عن كثب ذلك الانتعاش النفسانى الغريب المؤتلق فى الحدقات الشاردة يمازجه بعض الوجوم المتأمل الذى يرتسم على الجباه مهيباً جليلا أثر مشاهدة واستماع عمل فنى رائع

وهناك رأيت (نعيمة) لاول مرة بعد ثلاث سنوات قضيتها فى باريس مشتغلا بدراسة القانون فارا من حب تلك المرأة لى ساعياً فى قتل حبى لها اذ كان زوجها المسكين أحب صديق إلى . . .

رأيتها خارجة تهرول بمعطفها الفضفاض وعلى سيماها اكفهرار التاثير العميق .

أنعمت بصرى فيها فانقبض صدرى بغتة ورمتنى بطرفها فالتقى بنهمة ناظرى فاجفلت ثم ألوت رأسها الصغير عنى وقد اضطرب ومرت تداعب فى ارتباك مروحتها الوردية .

لا أدري ما ذا اعتورنى فلبثت فى مكانى ذاهلا غير انى عدت فافتقدت ضالتى فأبصرتها عن بعد واقفة تنظر الى فوثبت لفورى وتبعتها .

دانيتها فمدت الى يدها مصالحة فتسايرنا وبدأ الحديث . . .

كان لم يمض على وجودى فى القاهرة غير أسبوع واحد وكنت لا أزال أجهل كل شىء عن حياة أصدقائى القدماء . وكان بى من الجهامة والنفور ودقة

الحساسية ما يحبب إلى العزلة ويقصيني عن جميع من أعرف حتى في أهنأ ساعات حياتي . ولم يكن لى من رفاق ـ وا أسفاه ـ من هو مطلع على سر حبي لهذه المرأة كى يوافيني حيث كنت ببعض الاخبار عنها ...

أنبأتنى بوفاة زوجها صديق منذ أكثر من سنة فحملقت فيها وراجعتها وكلى دهش وذعر ثم تراجعت مبهوتا صامتاً وأحسست كأن يدا قاسية قد امتدت بغتة الى قلبي وهزته من أصوله . فاقتربت منها وأخذت أصابعها البضة بين يدى المرتجفتين فنظرت الى فى تفحص هادىء حزين وأطرقت برأسها . فلم يكن منى إلا أن انحنيت عليها ورفعت يدها الى فمى وقبلتها فى راحة كفها قبلة طويلة

واستطردنا المسير ...

ooo

٢٢ إبريل . . .

إنها حرة ! . . أكاد أطير فرحاً . . . لا يجب أن أستزيدها بيانا عن حياتها الخاصة فى السنتين الماضيتين بل على أن احتفظ جهدي بالنعمة التى أرسلها القضاء إلى . على أن أغذى وجدانى بالفيض الروحى المشع منها . على أن أشرب نفسى حبها القديم رويدا رويدا ...

ooo

٢٣ ابريل . . .

بدأت ذكريات حبي الماضية تنبثق فى نفسى على مهل الواحدة بعد الاخرى وإنى لأشعر بها الآن تندفق فجأة وتغمر عقلى وخيالى كجمع محتشد فى سجن أطلقت له بغتة حريته

وكأن ماتكبدته فى الماضى من ألم وجهد لكبح قوى حبي وافناء عواملها

ظل يتجمع فى اطواء قصية من نفسى كى يثور الساعة برغمى كأن لم تكن لى أبدا أية ارادة وكانى لم أقم أبدا بأى مجهود .

إن ضعفي الفجائى هـذا آخذ فى انماء حبي ولقد بت استعذب الرجوع الى ماضى والاشراف عليه ومناجاته وتحريك دفينه ما دمت أراه ممثلا أمامى فى المخلوقة التى ابتدعته .

وانى لاسائل نفسى أية ارادة في قلب انسان تستطيع أن تقوي على مناضلةالخيال والواقع وقدائتلفا سوياً عليه ؟ . .

°°°

٢٤ ابريل . . .

جاذبتنى أطراف الحديث عمن أحبهم من كتاب الشرق والغرب فرأيتها وقد ازدادت ذكاء رعلما درة بين اصدافنا فواطربى لن أمل عشرتها . . .

٢٥ ابريل ...

إنها امرأة طويلة القامة مليئة البدن منسجمة التقاطيع فى رخاوة النضوج المغرى . ذات جبهة ناصعة عريضة يكللها شعر أسود مجعد مصقول . وأنف دقيق مستقيم معتز . وفم صغير معبود . وشفاه ممتلئة نائتة بعض الشيء يكاد يمزق غشاءها دم الشباب القانى . وعينين سوداوين واسعتين تتطلعان أبدا لمعرفة كل شئ ويخيل اليك أنهما قد عرفتا حقاً كل شيء . عينين باسمتين فى تفرس ذكى يختلط فيه التبسط بالجد والتظرف بالاحتشام والرقة بالعطف الانثوي الساحر . عينين تتضام أجفانهما فى رفق عند المداعبة والمزح فتستتر أهدابهما الطويلة المثقلة بالكحل وتلمع من خلالها نظرات موزعة ضاحكة قريرة تلقى على الوجه أضواء متتابعة قاتمة تبرق لها الخدود السمراء الموردة فرحا ساذجاً ودلالا منتشياً . هذه هى نعيمة

٢٧ ابريل ...

لقد علق بها إحساسى بعد شروده كما تعلق النجمة التائهة بمدارها الكوكبي فارشدنى حبها الى أسرار الهوى المقدس فعرفته ولن أنعته إلا بتضامن روحي أو صفاء مذهل أو اندماج صوفى أو بما تولده موسيق الاعصاب التعبة من مزيج النقاهة والحلم !

***

٢٨ ابريل ...

شعرنا باتقاد وجداننا وصخب احساسنا كأن سنى الفراق تنتقم لنفسها منا فتآلفنا ولم تجد بدا من اتباعى فهجرت أختها من أجلى واتخذنا لنا بيتا صغيرا فى نواحى قصر النيل .

***

— ٢ —

٢٩ ابريل ...

نامت نوم طفل . فحملت المصباح بيد مرتعشة الى زاوية الحجرة ووقفت هناك متكئاً على حافة النافذة أصوب نظري فى أشعة المصباح البنفسجية المسددة عليها الحاضنة جسدها كطائر خرافى كله أجنحة .

ثم اقتربت على أطراف قدمى بخطى وئيدة حذرة وجعلت أتأمل فى سكون كسكون الصلاة قوسى شفتيها الممتلئتين و رجفات اهدابها الطويلة وتلاعة عنقها الرابضة وابتسامة حلمها الهادئة وخديها ... خديها المنبسطين في نعومة حريرية مشرقة كأوراق وردة فى صميم ازدهارها .

هاهى ... هاهى تتحرك . . . ان أعضاءها تتماوج تحت الغطاء وتلتف على بعضها وتتعانق كمخلوقات حية سرية تذهلنى . حافرة فى الغطاء الاحمر اغوار

يغيب فيها بصري ويلتهب لهاتصوري وينتفض جسمي من جذوره . ليتها تستيقظ الآن! ... واذن لأكونن مجنونا لوانى احترمتها . لو انى لم أمزق قيصها الابيض المطرز شر ممزق . لو انى لم أسحق جسمها الغض سحقا بكلتا يدى . لوانى لم أنشب فى نحرها قبلاتى كالمخالب . لوانى لم أهصر أعضاءها كما تهصر الريح العاتية لين الاغصان . ..

ولكنها تنام !

ماذا دهانى ؟ ان مراشفي لتصطك وان قلبي ليكاد ينخلع شهوة تواقة ملحة محتجزة . وها هو العرق البارد يتصبب على جبينى . لا . لا . لن أغتصبها اغتصابا . لابد ان تمنحنى عن طيبة خاطر كل شىء . لابد ان أكون جديرا بما تصوره فى . لابدان أستحقها . فلا تتهقر . ولا تنزو بعيدا فى ركن من المخدع ولا تطالع أو أدخن أو أنظر من النافذة الى الافق البعيد أو أظل هكذا أتأملها حتى مطلع الفجر!

٠٠٠

٣٠ ابريل ...

استيقظت من نومها وأولى اشعات السحر وهبت مستوية على فراشها مضطربة فى خجل وشبه ذهول كأنما قد أحست بوجودى فى الغرفة وما أن رأتني حتى جمعت على صدرها العارى أطراف غلالتها وضمت قدميها الصغيرتين تحت غطائها ونظرت إلى فى ابتسام معاتب رقيق . فقمت وأجفانى ثقيلة ورأسى تائه أتحامل على نفسى يكاد جسمى يسقط عياء ودنوت منها فشخصت الى لحظة ورنت بطرفها مطرقة خجلى ثم قدمت الى بغتة شفتيها فاخذت رأسها الجميل المنثور الجدائل المتموج الشعر بين يدى وقبلتها قبلة طويلة اختلجت لها أوصالها .

ولم نجد مانقوله فصمتنا وجلست الى جانبها على السرير أحدق فيها

وتحدق فيّ . لا أدرى كم من الوقت مر علينا ونحن فى هذه الحال

لاأدرى شيئا . يخيل إلى ان الحياة تعطلت فى تلك الساعة وان الزمن قضى وان الساعة نفسها تجمدت خالدة فى الابدية !

٥٥٥

١ مايو ...

ماعرفت معنى هواي سوى اليوم ! كأن قوى نفسى تغمر نعيمة كما يغمر نور الشمس العالم . لقد سقط القناع عن وجه الكون فتعارفنا ورأيت لأول مرة خفقان الحياة فى كل شئ . ورأيتنى فى كل شىء فيها . كأن فؤادى قد انتشى بدقات فؤاد الانسانية كلها .

هذا هو سر الكمال فى الحياة !

٥٥٥

٢ مايو...

لم تشب حبنا شائبة بعد ... سرنا اليوم بجوار النيل ونعيمة تتهادى على شاطئه كأنها فى حلم إلهى . وعندما أفاقت ابتدرتنى قائلة « أصحيح اننا سنموت يوما ؟ ... بالنا من قطيع حمقى . أي معنى لهذه السعادة اذا لم تكن خالدة ؟ »

فقلت لها فى هدوء : « خلى عنك هذه الاوهام . لو ان الخلود كان من حظنا لماقسم لنا ان نعرف على الارض لذة الحب »

٥٥٥

٣ مايو . . .

برغم شعورى ان احساسى قد استدق وان عواطفي الحبية الطارئة آخذة فى التسامى بى الى مالم أكن أحلم به من نشاط ورقة وغبطة و رحمة وتسامح مازلت أشعر فى نفسى بفراغ عجيب ليس فى وسع هذه العواطف ان تملأه وترضيه .

فراغ يهزأ بكل رقة وكل سمو . فراغ لا كفراغ البطون تستطيع ان تحشوه باعتدال ونظام وتقدير . بل فراغ كالفراغ الابدى الملازم لرذيلة متأصلة لابد ان تغذيه على الدوام بنفس الرذيلة وإلا أتى عليك وافناك .

أجل . أنا أشعر الآن بحقيقة شخصى الدفين . و أخشى ان أفهم انى قلق وحائر ومتبرم وان سر هنا هو نقص العامل الجنسى العاصف المدمر من العوامل الخالصة التى أوحت بها إلى عودة نعيمة . . .

العامل الجنسى ! سأظفر به دون شك . ولكنى أريده كما الفته فى غربتى . كما اعتدت الحياة فيه وبواسطته . كما نعمت به فى الذهول والاعصار والحمى هناك . فى أفظع بؤر باريس المشئومة حيث كنت أذكر نعيمة واعض أصابعى واسكر واصرخ وأقهقه وأبكى وافترش فى النهاية أجسام البغايا كمن يفترش أرضا شائكة دبت فيها نيران .

ياللحقيقة المرة ! كأن تلك المرأة لم تبق حتى الساعة في دمى الا بما خلفته فى جسمى من رذائل شهوية منكرة أثارها فى يأسى وذلى وذكراها ومرارة وجودى فى بلد بعيد غريب أهرع اليها كملاذ لى وسلوي . انى فى بعض الاحايين لاكاد أستدل على عظم سلطان نعيمة على الابتلك الرذائل المعبودة البغيضة التى هى أصلها والتى تستيقظ بغتة وتثور فى و تعصف بحواسى كلما اختلست النظر الى حبيبتى وهى تنضو عنها ثيابها أو تدخل الحمام أو تلمع جواربها أو تتملص منى فى ابتسامة ساحرة وهى ذاهبة فى الليل الى سريرها الفسيح العميق . . .

٤ — مايو

كثيرا ماتوزعت عواطفي على أشكال منوعة من الجمال النسوى وكثيرا ماتزاحمت تلك الاشكال فى ذهنى وتمازجت ألوانها بحيث كنت احار الى أيها ينتمى ذوقى وأيها يتلاءم وميولى وأيها أؤثره على سواه واعتقد بحاجتى الماسة.

اليه فى طرد عوامل الضجر عنى واحفاز قواى الراقدة نحو تحقيق آمال كبيرة يقرنها الشباب على الدوام بصورة امرأة كما يقرن الفن الشجاعة بالحب و العمل بالايمان و المجد بالتضحية

كنت أصادف نساء مصريات جد غريبات يطفن بمسرح خيالى كأحلام الدجى نحيلات الجسم فى امتلاء لين طويلات القامة في عزة واباء . ضامرات الخدود فى التماع مهيب تحف بمحاجرهن هالة زرقاء و يستقر الحلم مؤلما كليلا في عيونهن اللوزية السود . وكنت أرى غيرهن ممن قد شغفن كامهاتهن بتربية أجسادهن لشهوة الرجل بدينات ناضرات يمشين فى تثاقل و رفق مضنات بابدانهن أن يذهب شحمها الغالى سدى . تترقرق على خدودهن المكتنزة الموردة طوابع الحسن عند الابتسام و تعض شفاههن القرمزية على بعضها عند الاشارة بالكتمان أو الحذر

وكنت أرى غير أولئك وهؤلاء نساء مجيدات صافيات كأنهن قد خرجن من مخيلة شاعر صوفى على أكمل مثال لله .

و نساء ضائعات يفتقدن أبدا شخصهن يحدقن فى كل رجل ويخشين نظرة غلام

ونساء وديعات فى عذوبة مسكرة كأول يقين المحب أنه محبوب . رقيقات كحرير السماء الازرق أيام ابريل تغلى حياتهن العبقرية فى أي رجل كما تغلى العصارة في الارض عند مهبط الربيع

فترى إلى أى هذه الأنواع تنتمى نعيمة ؟ أريد أن أرى فيها تلك الأمثلة مجتمعة و هى خليقه بتحقيقها في صورة كاملة للمرأة الكاملة . ولكن ميولى الشاذة تتخذ طريقاً ملتوياً لتصل بصديقتى إلى كمال آخر .

أنه لرائع جو السلام الروحى الذي تخلقه حولها . و أنه لساحر هذا الايحاء الشعري بالسمو المنبعث منها . و أنها لفاتنة وغريبة تلك الاستكانة الراضية

المضحية الكامنة فى طرفها الساجى . لكنى أكاد أنفر بطبعى من كل هذا الصفاء . . . أكاد أراه فقرا فى الحيوية وعجزا فى قوى التصور و مذلة نفسانية أبعد ماتكون عن بطولة الحياة . وبطولة الحياة في عرفى إنما هى المخاطرة فى العمل و المخاطرة فى الشهوات . و أنا أريد أن الهب خصائص نعيمه الخلقية العظيمة واهتاج فيها احساس تلك البطولة العنيف بارغامها على مبادلتى شتى ضروب الملذات العاصفة التى أصبحت لا أستطيع و ياللحسرة الاحساس بالحياة و فهمها و حبها الا طافحة بها مغمورة فيها

آه أن تلك المرأة لتشرق على رجولتى إشراقا يذوب تحت لظاه عقلى وضميرى و إرادتى .

***

٥ مايو . . .

رأيتها اليوم فى ثوب من حرير أزرق شفاف مرصع بزهرات كبيرة يؤدى للناظر فى انسجام بروز أعضائها الممتلئة التى لاتكاد تهتز حتى تتماوج خطوط جسدها جميعا فخيل إلى فجأة أنها أميرة ... أميرة من أميرات القرون الوسطى أولئك اللواتى كن يرأسن حفلاتهن ثم يقدمن إلى أجمل مدعو بيد بضة ناضرة كأسهن الذهبية المملوءة رحيقاً ...

فعضضت على شفتى وقلت في نفسى ليتها تصبح شريرة وهائلة. ليتها تعرف كيف تقرن الهوى بالاستهتار و الدلال بالخبث . و المحبة بالصد . والغيرة بالكيد . والقبلة بالدماء ! انى إذن كنت أعبدها.

— ٣ —

٦ مايو ...

تمنعت بادىء بدء لتستدرجنى الى فكرة زواج ولكنى أعرضت وتجاهلت فلم تلحف و أذعنت فكان بينى و بينها ماأردت ان يكون !

يالتلك الساعة التى تثنى فيها بين أحضانى ذلك الجسم الغض ! لقد غشيتنى

لملمسه حمى لن أنسى اختلاجاتها أبدا ! لقد امتلكته وارادة الشر تحتوينى كالسبيل الأوحد للانطلاق بنعيمة الى فسحة الحياة .

أقبلت عليها بكل اضطرابي وكمدي وما وعته ذاكرة حواسى المضطرمة من خبرة شهوية مذعرة وحنين للملذات الطريفة مستحكم ممض أليم . وقلبت جسدها بين ذراعى كما يقلب الزارع الارض البتول وارتميت فيه أنشقه واستمرئه واستوعبه كباقة ورد زاهية . أو مأدبة حافلة . أو كتاب عظيم ألهمه شيطان خيال عبقرى .

* * *

٧ مايو ...

كنت أتأمل أعضاءها المتسقة الناصعة يلقى عليها الغروب أشعة من ورد ورماد وأقول فى نفسى : يجب إن نحبها كثيرا . ان تسرع فى حبها . ان لا تدع ثانية تمر إلا وتكون لك فيها . إذ من يدرى فسعادتنا مهددة كحياتنا وقد نموت غدا أو اليوم أو الساعة ...

* * *

٨ مايو ...

أسفاه !.. لم تعد بيننا لا كلفة فى إلخلطة ولا زخرف فى القول ولا عفة فى الحب ... ولكنى مع هذا قلق ... مازلت حائرا . مازلت وحيدا . مازلت أشعر بذلك الفراغ الفظيع ينهش صدرى . انى لأشد حيرة من قبل . انى لأرقب مقدم أشياء جديدة ... ماذا أريد ؟ماذا أطلب أيضا ؟ على انى قد أكون سعيدا وأنا لاأدرى أو انى فى الواقع لاأتذوق السعادة ولا أطمح اليها . أوانى أجهل بتاتاً جميع ألوانها . أو انى رجل منكود قدرت عليه أبدا استحالة الخروج من شخصه الغريب !

١٥ مايو . . . بعد سهرة فى ملهى راقص

ماذا حل بى . ؟ ان تلك المرة تغافلنى وفى وداعة وظرف وحنكة تحاول، اخضاعى والسيطرة على وتبديل ماأعرفه عن نفسى وما أنا ضنين به على الجميع

لقد عشنا طوال هذا الاسبوع عيشة ما كنت اتصور قط أن فى وسعى الرضى بها . شعرت على مر الليالى ان اعصابى المشتعلة تبترد شيئا فشيئا وان رغباتى المتقلبة المشوشة تهدأ وأن مزاجى الأهوج الذى كان يستبدل اللذائذ فى اليوم مرات لم يعد يجد فى دمى حرارة كافية لانعاشه وان حاسة الفضول التى كانت مستولية على شبابى والتى كانت تجدد لى متع الحياة تغادرنى فى بطء لطيف لم استطع الا أن أستعذبه تاركة فى نفسى فضاء مريحا كالذي يشعر به المسافر بعد رحلة طويلة حافلة بالغرائب

لم تعد تستوقفنى أفراح الناس وآلامهم لانقدهم ولا اطراهم . كان عملى فى الحياة حينئذ أن اشاهد فى ابتسام ساخر متلذذ نفسى الدفينة وقد أخذ القضاء يحل وثاقها ويلقي عنها اعباء المجتمع مبهوتة مستنيمة حيرى تستأنس بالسلام البيتى على مهل وتتكيف به وتألف الدعة والطمأنينة والنوم المبكر متناسية فى غير عناء لوافح الحب السالفة مكتفية فى قناعة عجيبة بالجلوس الى شخص واحد والتحدث اليه واسترواح شذاه والتملى من محياه والاستمتاع بالدهش الصبيانى الفائن الذي تولده فينار وحاته وغدواته.صمته ونزواته . اسراراته وقهقهته .

أجل . جمعت كل شىء فى ذلك الشخص حتى بت أفزع اليه من أقل شىء والجأ اليه فى تنمية أى إحساس . وهكذا عشت بقربها طوال هذه السبعة أيام لم أر فيها صفحة الدنيا الى حد انى لما فارقت المنزل اليوم لأول مرة وأشرفت على القاهرة الزاخرة داخلنى الشك فى ان أصحابى لم يعتقدو بموتى وفى انهم لم يزالو بعد احياء وفى انى لم أتم جيلا باسره !...

١٦ مايو ...

أهكذا أصبحت أنا ؟ ... أيمكن ذلك ؟ ومع هذا فلست سعيدا ! لم أكنه أبدا ! كيف أرضى بتوديع الحياة على هذه الصورة ؟ ولكني... ولكني أتمرد... أثور ... أطالب بحريتي ... أنفض عني هذا الغبار الثقيل ... أريد ان أتنفس ملء رئتي . لقد عشت في قبر . . . لاعهد لى بهذا الصمت الفاتر والسكون المتامل والنور الخفيف الحزين يبرق فى زاوية مخدعنا كمصباح زيت فى كهف ... انى لأحب الحياة أكثر من حبي أية امرأة ! خروجاً !

***

١٧ مايو...

هذا مؤلم للغاية . ولكنى أصارح به نفسى هنا فى غير ماتردد أو خجل . انى أتملص من بين ذراعيها وشهوتى ماتزال ظمأى اليها ... اليها ؟... لا . بل الى أية قوة نسوية مكتملة فى وسعها ان تبادلنى حقاً أفانين اللذائذ الصارخة الشاذة المنكرة التى اعتدتها فى ماضى القديم الحى .

لقد أصبحت تلك اللذائذ مادة حياتى ولن يمكنني أن أحب غير الشخص الذي تتجاوب فى نفسه وجسمه اصداؤها .

لهذا بدأت أكون جامدا حيال نعيمه ثائرا مستنكراً حيال نفسى . فيما مضى كنت أنقد البغايا عن سعة ليلا طفننى و يدللننى و يطفن بى و يخلصن لى اللذة ما استطعن و يخدعننى بمظاهر حب شهوى جارف مدمر كاعصار أو ناعم خامد عذب كخمر أصيلة . وكنت أرى غشهن واعجب به واضحك من نفسى لهذا الاعجاب و يضحكن مني . ولم يكن يهمنى ان يكون غشاً مادمت أوقظ به ضجرى و أحبه .

أما الآن . أما مع نعيمة . نعيمة الصادقة البريئة — نعيمة التى سبيت لى .

هذا المرض وكان يجب أن أشفى منه بواسطتها وفيها — أنا معها ويا للاعتراف العجيب لاأحس تلك اللذة القديمة على الاطلاق بل أكاد لاأحس الا الضجر. الضجر ينتشر حولى ويتمدد فى. لماذا ؟ . لانها مخلوقة علوية أثيرية لاتصل اليها دعوتى . الآن أدركت . أجل هى مخلوقة من شعر وأنا مخلوق من طين . ياللسخرية ! هى مخلوقة من فرح قرير كخرير النمير في روضة خضراء .وأنا مخلوق من وساوس وظلام كسحابة شتاء ثقيلة لا تلبث أن تتبدد حتى تتجمع و تستقر .

لقد خلقت فى داء الشهوة وهى أصفى من السماء فى أصباح الربيع وأنقى من الخاطر فى ذهن طفل

أنها تحيرنى . أنها حتى في صميم نشوتها الجنسية لاتكاد تري منى أو من لون عينى شيئاً . لاتكاد تشعر بالنار المستعرة فى تطوقها بل تظل سابحة فى حلمها الملائكى أبعد ماتكون عنى وعن حواسها و العالم .

قد تكون فى باطن نفسها أحد شهوة منى وقد تكون هذه الغيبوبة هى عين الشهوة

لا أدرى . ولكن مايبدو عليها دائما هو الصفاء . هو السلام . هى الراحة راحة المؤمن اضناه البحث و الشك حتى قر فى النهاية واطمأن على فردوسه وخلاصه . محال . نعم . محال على أن أستطيع تحريك هامد جسمها و تلويثه بلوثات المحرمات الشهوية و التطلع اليها معها والاقبال عليها فى حرارة وصدق وتقديس كمنجاة للمرء من تشابه الحياة وعسفها وكشحذ لقواه نحو الحرية المثلى كما كنت أفعل أنا .

أنا أريد الاستمتاع بكل محرم فى اللذة وكل محرم فى العاطفة وكل محرم فى الافكار لاعتنق الحياة كاملة احساساً ومعنى . أنا أشعر بالجمال

العاطف الرقيق ولكنها تسبح على سطح الحياة بيننا أريد أنا النفاذ اليها . والانطواء فيها . تدمرني وأدمرها كعنصر جامح مخيف . ونعيمة لاتأبه لى . لاتريد أن تفهم من السعادة الا أن نكون أبدا بجوار بعضنا ولا ترضى بغير صفائها السماوى الاجوف بديلا

وهذا مايعذبنى ! هذا مايمزقنى !

هذا ما يحفر الهاوية بيننا يوما بعد يوم !



— ٤ —

١٨ مايو

أمسكت بيدها وأصابعى ترتعش وقدتها فى رفق إلى الشرفة وأجلستها على مقعدها المستطيل وجلست على وسادة صغيرة عند اقدامها مسنداً رأسى الى ركبتها مسرحاً طرفي فى الفضاء متحاشياً رفع عينى اليها لأتمكن من مكاشفتها بدخيلة أمرى دون ارتباك أو حياء

أمرت يدها على شعرى تداعبه فى لين وعطف وحاولت بالأخرى أن ترفع اليها رأسى ولكنى أشحت بوجهى وازددت أطراقا وقد تصاعد الدم الى وجنتى وطن صدغاى وانعقد لسانى ولم أدر كيف أبدأها الحديث وماذا أنا قائل لها وما اذا كانت تلك امور يمكن أن يباح بها لامرأة عليها أن تحسها وتفهمها بسليقتها ما دامت تصادف هوى من نفس عشيقها .

واستجمعت قواى ثم هممت بالكلام في غمغمة ولكنى ما ان اعتدلت ورفعت رأسى حتى بصرت بتلك المرأة وكأنها روح متجردة أو تمثال، مشرئبة

العنق مسلوبة اللب شاردة البصر مستقيمة الجلسة تطوق بذراعها رأسي وتحدق بعيدا ... بعيدا ... فى النيل ... فى النيل المنبسط هناك . والذى اراه من الشرفة لاول مرة مقبلا علينا فى بطء واثق . فى سكون كسكون الارادة العاقلة فى نفس جبار . ينشر مويجاته البيض كسرب من حمام تجتازه الفلايك على مهل كاحلام كبيرة مجنحة فى طريقها نحو المجهول . تأملت لحظة نعيمة وهذا الاطار الرائع الذى هو حقاً اطارها . وحكمت لفوءى باستحالة التفاهم بيننا .

فنظرت إلى بغتة واستنكرت جهامتى ولم تشأ أن تعرف سرها أطوع ما تكون لاحساسها القوى بسعادتها وتوهمها أنى أنا أيضاً سعيد . . .

وأخذت تتغنى بجمال المنظر وتمتدح هدأة الطبيعة فى هذه الناحية . وتهنىء نفسها وتحسدها على بلوغها ما طالما اشتهته من الدنيا . وتلاطفنى وتقبل شعري وتضحك وتعنفنى كطفل مذنب وتحادثنى عن عائلتها وعن الحياة البيتية وعن أخلاق صديقاتها وعن فساتينها وعن روايات السينما فى بساطة الهية وبراءة يتكسر أمامها كل فكر أثيم .

هالنى ذلك فقمت منكس الهامة ضيق الصدر وشكوت تعبا فجائيا ولم أقبلها بل اتجهت تواً نحو غرفتى فاغلقت النوافذ واسدلت الاستار وأشعلت المصابيح واستلقيت على فراشى وأغمضت عينى نصف اغماضة اختلس النظر الى صور النسوة العاريات التى كنت أقتطعها من المجلات الخليعة وأزين بها غرفتى . . . .

***

١٩ مايو . . .

بت اغتاظ جد الغيظ لانى أصبحت أفهم أن نعيمة لا تسلم لى من نفسها بكل محرم أشتهيه الا لترضينى بينما هى لا تجد في ذلك سعادتها بل تخلقها لنفسها بنفسها فى لون آخر من ألوان الحب لا يهمها أن تشركنى فيه مادامت شاعرة بعجزى التام عن الوصول اليه . . .

هذا العارض هو سر شقائى وهو الذى بدأ ينفرنى منها و يصبغ حديثى معها بصبغة قاسية حاسمة لم أعرفها قط فى نفسى . أجل . أحس انى بالرغم منى أحاول ان أتجنب الجلوس اليها طويلا وان أدع أبصارى تلتق بابصارها لئلا تلمس ذلك فى عباراتى الجافة أو تقرأه فى نظراتى الزائغة .

كان يثير أعصابى اعتقادى المر بأنها وهى المرأة التى ألهبت فى دمى هذا الظمأ الشهوى لاتعمل معى على ارووائه بنفس القوة التى ولدته ... آه كأنها تتعمد إيلامى !

انها تغدو وتروح . تلاحظ واجبات البيت . تنظم لى مخدعى . تعد لى طعام الافطار .تسكب لى القهوة. تخاطبنى في تهلل كما لو كنا زوجين . وهذا يستفزنى و يستثيط غضبي كتغاض متعمد عن الشؤون التى تهمنى أو كامتهان لكبريائى أو كتهكم لاذع برجولتى أو كاحتقار خفي لخلالى الشائنة .

أجل . من يدرى . ربما كانت فى أعماق نفسها تحتقرنى ؟ ...

ألست الرجل التافه القذر الفظيع الذي خيب أملها ؟ الرجل الضعيف الذى مهما حاول فهو لن يتسنم ذروة صفائها أبدا ؟

ألست الرجل الذي لايستعذب غير التمرغ فى حمأة فسقه كتيس مخمور ؟

ألم أخدعها فى الواقع ؟

ألم أجر فى التراب مثلها الأعلى ؟ انها تحتقرنى ! تتمنع على وتحتقرنى . لاتريد ان تنحدر الى . لاتقيس نفسها بى . وربما هى الآن تكرهنى . أما أنا فشاعر على مضض منى انى بدأت أبغضها !

٢٠ مايو ...

يا لكبريائها التى ألمحها خلف بساطتها . كيف ؟ كيف لم أر هذا سوى اليوم ؟ أمتكبرة هى الى هذا الحد ؟ أتكون تلك البساطة حالة وقتية تتلبس بها أمامى

لتحتمل وجودى ؟ أتكون تلك البساطة قناعا تخفى وراءه ضجراً كضجرى ؟ أية غرابة فى إن يكون احساسى من نحوها هو عين احساسها من نحوى ؟ ...

أخاف إن أستبين فى الغد على جبينها ذلك الترفع الساخر والازدراء البارد الذي تقابل بهما الرجال غيرى . أخاف ان أخاطبها فتجيبنى بعد لحظة .

أخاف ان أراجعها فتلوى رأسها عنى وتنفتل خارجة هازة أكتافها .

لاطاقة لى على تصور هذا . وقبل ان تمعن فى احتقارى واذلالى يجب إن أروضها وأخضعها . يجب ان أهز بها هزاً عنيفاً لتتساقط على الارض أحلامها . يجب ان أصوغها على صورتى ومثالى .

اما ان تكون لى كما أريد واما ان أعذبها !

٢٢ مايو ...

هل أنا مريض ؟ هل أنا مجنون ؟ فكرت اليوم انى أقرب الى نعيمة مما أظن . أليس وهم الشهوات عندى كوهم العواطف عندها ؟ ألسنا نشبه بعضنا انا فى التطرف بحواسى وهى فى التطرف بوجدانها ؟ فلماذا لانتوسط ونعتدل ونعيش معاً بسلام ؟

أنا أقول هذا ؟ ! يا للمهزلة ! لست بعد شيخاً و لا حاجة بى للموت . انما أنا فى حاجة اليها هى ... وكل بغايا العالم مجتمعات لن يستطعن منحى تلك النشوة التى سأظفر بها يوم ان تركن لى نعيمة فتطرد عنها خيالاتها . و تأخذ فى تدريب جسمها كما ابتغى و أعداده لنا كلينا . يوم أن أكون قد طبعته حقاً بطابعى .

هذا ما يغلى اليها و يحرضنى عليها ولو انى فى الحقيقة أتألم ليقينى بأن ما أطلبه محال . و انها لن تتغير ... لن تتغير مهما أوتيت من قوى التحريض والاغراء ،

ألم أحاول بالأمس لن أستميلها الى رأيي و منزعى فتركتنى افعل بها ما أريد ولاذت كعادتها بالذهول والصمت . انها لتستثيرنى عليها وتزيد فى سخطى على نفسى والحياة

آه .من لى بأن أخلق فيها نفس الجنون الشهوى الذى خلقته فى!

°°°

- ٥ -

٢٣ مايو

لن تتغير !

لم أعد أحتمل .

شرعت اليوم فى تعذيبها !

تظاهرت فى كثير من الحنو الطبيعى الصادق — دهشت أنا نفسى من تقانى تمثيله — بأنى مشفق عليها من السأم والذبول بين جدران البيت وعرضت عليها أن أذهب بها الى المسرح لمشاهدة قصة جديدة فأشرق محياها وأجابتنى توا الى رغبتى

ولما حان الميعاد تظاهرت بالنسيان التام وقلت لها أن لدى سهرة هامة لقضاء عمل هام. فتطلعت إلى مستفهمة وذكرتنى بما وعدت فلم أعبأ بها وتركتها حيرى وخرجت

عدت لاول مرة نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل مشعث الشعر مغبر الصحيفة غائر التقاطيع وطربوشى مائل على رأسى اترنح سكرا وأصيح وأقذع بالنكت الغليظة المعيرة الساخرة .

ولما أن دخلت ألفيتها مستيقظة فى انتظارى جالسة بقرب النافذة المفتوحة ورأسها مسند إلى كفها منكمشة الاعضاء مبهوته ترتعد. محمرة العينين شاحبة الوجه مغضنة الجبين ضعيفة بائسة هزيلة مسكينة ! فابتسمت ابتسامة خفيفة وشاع فى بغتة سرور عميق المعنى قسوة جديدة

فتقدمت اليها ورائحة الخمر تنبعث منى وأخطرتها بانى عزمت على دعوة جارنا الايطالى وخليلته الجميلة اللعوب وصديق لهما الى حفلة بسيطة خاصة نقيمها لهم مساء الغد .

فهزت رأسها بالايجاب ولم تتكلم ولكنها تنهدت تنهد مستغيث يختنق وفى سكون ورفق وانكسار أخذت طربوش وعصاى وخلعت عنى سترتى ووضعت ثيابى فى أماكنها وأغلقت خزانتى بتؤدة وعناية وذهبت متثاقلة تهيء لى طعام العشاء .

جلست إلى المائدة وبصرها اللامع يرافق كل حركة من حركاتى والصمت المضايق يخيم علينا كافق ملبد كثيف . تسألنى فلا أتكلم . والقى اليها بكلمة عارضة فلا تدري كيف تجيب ثم يعود الصمت يضرب رواقه الثقيل علينا في جو يحتبس ويزفر منذراً بهبوب العاصفة عما قريب .

***

٢٥ مايو

كانت حفلة مظلمة دواية اشفقت على نعيمة منها .

أدركت المرأة الايطالية بغريزتها المتوقدة ماداريبننا فاشتعل كبرياؤها واهتاجت أنوثتها وكأنها أرادت أن تجهز على نعيمة فأخذت تمازحنى أمامها وتضحك وتسر إلى الكلام وتقدم لى الخمر بيدها وتميل على فى حركات عصبية ونظراتها المنتصرة النشوى متجهة نحو نعيمة مصحوبة بعبارات رشيقة ناعمه ملؤها التظرف الساخر والتعيير الأليم والمغامز المرة . وكانت نعيمة تتلقى هذا كله بوجه صاف صريح وعينين هادئتين حالمتين وابتسامة ثابتة رقيقة لا تكلف فيها ولا عناء ، تقدم للزوج قطعة حلوى ولصديقه كوبة ماء وللمرأة كأس نبيذ وتلتفت الى بين حين وآخر وقد صبغ وجهها بعض الاحمرار وتسألنى في صوت وجل ضعيف عما إذا كنت أرغب فى كأس

أنا أيضا . . . و بعدان أنصرفوا و خلونا بأنفسنا دنوت منها وأنا ثمل و قد جال بفكرى خاطر شيطانى طربت له فألقيت عليها نظرة معنوية وابتسمت ثم مددت ذراعى احتضنها فاستسلمت لى فى هبة عابدة و نسيان تام لما وقع ظنا منها انى أريدها و لما أن تقدمنا خطوتين نحو مخدعنا تمهلت و دفعت بها قليلا وضحكت ضحكة صفراء ثم قهقهت قهقهة متهكمة و حشية طويلة . فاجفلت ووقفت مبهوتة تحدق فى فهززت برأسى متأبيا مزهوا ولوحت بيدى أحييها وقلت فى لهجة حادة خشنة :

أريد أن أنام الليلة فى مكتبى ! . . .

٠٠٠

٢٦ مايو

أن موقف الاحتمال السلبى هذا الذى تتخذه حيالى أرى بالرغم منى وأحس نبله و جماله وروعته . و لكن هذا الاحساس نفسه يذلنى ويخجلنى و يلهب عارض القسوة فى كتحد وقح لقرتى و استخفاف عابث بتدبيرى و ثقة خفية منها بالتفوق النهائى على .

لهذا تماديت فى وحشيتى . لأدفع بها على الاقل الى النزول إلى ، الى مجاراتى . الى التساوي بى ، الى مبادلتي جفافا بجفاف . وكرها بكره . وتعذيباً بتعذيب . ولو انها فعلت ذلك لكان يمكن ان ألين و أصفح بل لربما كنت جثوت عند قدميها مستغفرا مهزوما .

ولكنها تنتظر ... تنتظر فى صبر مطمئن عجيب ان أشفى من جنونى وان أعود اليها صاغرا ، وهذا ما يكاد يذهب بلبى . هذا ما حدا بى اليوم الى التنكيل بها وسحقها سحقا . لم أعد أعى . . لم أعد أعى ما اعمل !

كان يجب ان تعد لى بيدها طعام الافطار وتأتينى به كالعادة فى حجرة مكتبى ولكنها لم تفعل وظلت في فراشها حتي الساعة العاشرة . فحنقت وثار ثائري

وحملت هذا السهو البسيط منها على محمل النكاية والتشفي وضخمته فى خيالى وبنيت عليه الأمور الجسام وكأنى كنت أرقب من زمن بعيد هفوة ماتكسبنى عليها حقا وتشجعنى على ان أضرب الضربة القاضية فقمت لساعتى واتجهت نحو مخدعها وأنا أرتجف فالفيتها في فراشها ملفقة بغطائها الاحمر تغط فى نومها غطيطا

فاقتربت من السرير وأمسكت بطرف الغطاء وجذبته إلي في عنف متسخط صاخب فاستفاقت مذعورة وحدقت فى مفغورة الفم محملقة كبلهاء، فانهلت عليها بالسباب واللعن والصراخ ارميها بكل نقيصة وانعتها بأقذر النعوت وقد تصاعد الدم الى رأسى واندلعت عيناى وعلا الزبد شدقى ودبت الرعدة فى جسمى كله. وحانت منى التفاتة تخيل الى انى أراها تبتسم فطاش صوابى ولم أعد أميز شيئا. وبحركة عصبية هوجاء لا أدرى كيف تملكتني رفعت ذراعى بغتة وصفعتها مرة واثنين وثلاث.

وعندها فقط عدت الى رشدى فتراجعت فى بطء وجمدت فى مكانى كمن تجاوز جدا كان قد رسمه لنفسه ثم تنبهت تماما فاحسست فجأة كأن فى ذات نفسى شخصا آخر سرياً عجيباً يقبع هناك و يضحك من كل هذا فاضطربت وأدرت رأسى نحو نعيمة أتأمل فى فضول بارد كيف هى الآن. واذ بى أراها تختلج اختلاجا عنيفا متواصلا وتلهث وتئن وقد اصفر لونها وتضامت عضلات وجهها فى تشنج مخيف واغرورقت عيناها بالدموع !

٢٦ مايو ليلا

منذ برهة كنت أتأمل فى المرآة وجهى ! أهذا أنا ؟ أهذا هو محمد ؟.. أهذا هو الرجل الذى يعذب من يحب ؟ أهذا هو حقا وجهى الذى أعذبها به ؟ لقد احتملت هذا الوجه كثيرا . أنا ألمحه فى المرآة كل صباح وكل مساء

يطالعنى بنفس الجمود ونفس الجرأة المتهكمة . ألن يتغير هذا الوجه أبدا كما يتغير كل شيء في الحياة ؟

حبذا . حبذا لو استطعت ان أبدل وفق هواى شيئا من نظام هذه التقاطيع ان أجرى فيها باطراد بعض التعديل كما يفعل رسام عبقرى لا يستريح مثله الاعلى الى أى كمال . أن أخفف من ظل هذه الابتسامة المستهترة فانقلها اليوم من الشفاه الى العيون . . . أو امحو في الغد هذا التجعد الجديد القاسى من حافة فى فاضعه بجوار عيني أو تحتهما ثم أنعشهما باللمعة المرتسمة على الوجنات كأبهى ما يمكن أن تكون عليه صورة عاشق محموم ! آه انى لا أود . انى لا أود أن اتعجل الشيخوخة فأرى وجهى و لو جلداً رخواً مصفى .

ولكنى لا أستطيع . أنا لا أحبه . لا . لن أحب وجهى أبداً !

***

٥ يونيه

ياللنهاية القاسية ! هل سأصبح سعيدا ؟ ولكن ماحل بى ؟

ألم أكن أقدر هذا ؟ ألم أسعى اليه وأطلبه ؟ ألم اعمل على قتل الروح ليمكن للجسد أن ينمو ويزدهر ؟

واذن مابى الآن ؟ ماهذا الانحلال الطارىء ؟ ما هذا الاسى المقوض الذي استحوذ على ؟ كم تحيرنى نفسى وكم أنا كاف بتقلبها المستمر . لم أكن قد تحولت عن عزمى . لم يكن قد خامرنى لا شعور بالجبن ولا بالنذالة ولا بالانحطاط ولا بالاستنكار ! مضيت فى عملى . جعلت من بيتنا جحيما . ومن ساعات حياتها سلسلة عذابات متصلة . كنت أسهر كل ليلة وأعربد حتى مطلع الفجر .

حولت غرفة مكتبي الى مخدع نوم

ثم هجرت نعيمة هجرا تاما . و عبثا كانت تأتى و تقف خلف الباب تضرب

عليه بكفيها و تسترحم و تتوسل صارخة منتحبة فى شبه نوبة رعب وجنون فانى كنت أتجاهل وجودها و لا أفتح . سلطت عليها غيرة وحشية سخيفة فحرمت عليها الخروج إلى الشرفة أو فتح النوافذ أو استقبال الجيران أو مخاطبتهم أو مغادرة البيت . و فى بعض الاحايين كنت أوصد بابه عليها و آخذ المفتاح و انصرف لشؤونى وادعها سجينة فيه .

ولكن ... ولكن اليوم ... نعم اليوم ... كيف وقع هذا ؟ ... أيمكن هذا ؟ ... اليوم وأنا جالس إلى مكتبى – وهى عن بعد تجاهى – استمرىء فى لؤم هانىء اطراقها التعب الذليل و اغتبط كفنان قتل الاعجاب فى نفسه الرحمة . اغتبط بشحوب لونها و غضون جبينها و ضمور تقاطيعها وهالة الألم والأزرق الزرقاء المحدقة بعينيها تزيد فى جلال حلمهما الذاهل المبهوت سمعتها تتنفس بشدة وسرعة وتشهق شهقات تحاول جهدها اخمادها . و رأيتها تتحرك وتستوى على قدميها دفعة واحدة فى شبه حركة آلية وتتقدم نحوى ثم تتخذ لها مجلساً بجوارى وتنحنى بغتة فى حنان شاكر ممزق وتقبل يدى ... و زاد دهشتى انى رأيتها تقرب منى أيضا مقعدها وتضع ذراعيها على كتفي وتبتسم لى رغم كل شىء . أيمكن هـذا ؟... تبتسم لى ابتسامة لم أعرفها فيها . ياللسخرية !

ابتسامة تصحبها نظرة فاترة فيها كثير من الفطنة وكثير من الذكاء ...

نظرة خيل إلى انى أقرأ فيها معنى جديدا...

نظرة غريبه ... خبيثة ... لم ألمحها فى عينها قط ...

نظرة فيها شىء غير قليل من الرغبة العازمة على ان تفهمنى ...

نظرة فيها ـ وأسفاه ـ شىء كثير من الاستعداد العملى الجرىء للاقتداء بى فى كل شىء ...

لم أكد اتاكد من شعوري هذا حتى غلى الدم فى عروق وتضاعفت

نبضات قلبي وأحسست بموج من الفرح الزاخر يطغى على فهجمت عليها وضممتها الى صدرى ضما قوياً وقبلتها فى فمها وذراعيها ونحرها قبلات تائهة محمومة . وشد ما بهت واسترخت مفاصلى وأوشك يبترد دمى لما أن رأيتها تقبلنى هى أيضاً نفس القبل بل أحرمنها وأعمق . وتعض على شفتى باسنانها الحادة وتكاد يديها المتشنجتين تنتزع شعري من جذوره وهى تدفع بى وأنا لا أعى شيئا إلى الفراش الطويل الممدد أمامنا كنعش مفتوح ! . .

وعندئذ أحسست أنا بضباب يغشى بصرى وبالدوار يتملكنى فجأة ويطوح بى ، ولم أشأ أن أفكر على الاطلاق فى أى شىء . لم أستطع أبدا أن أفكر فى أى شىء . ولكنى كنت برغم ذلك متنبها لخيل الى أنى أسمع صوتى ، أجل صوتى نفسه . وكأنه بدأ حشرجة أو حفيف يغمغم فى أسرار ويقول للشخص الآخر السرى الغريب القابع فى صميم روحى يضحك هناك : انتهى ! انتهى كل شىء ياصاحبي !.. لقد سممتها ! لقد تسممنا كلانا ! . .



الانانيه

دراما فى ثلاثة فصول

مثلت لأول مرة على مسرح رمسيس

فى ١٦ مارس سنة ٩٢٣

أشخاص الرواية

	المثلون
حسن بك	**زكى طليمات**
سرى باشا	حسين رياض
رياض بك	مختار عثمان
حلمى باشا	عزيز عيد
فؤاد بك	حسن فايق
فوزية هانم	**روز اليوسف**
حورية هانم	سرينا ابراهيم
فاطمة هانم	فاطمة رشدى
دولت هانم	مارى منصور
شمس هانم	نعمات
الخادم أحمد	

(الحادثة تقع فى يوم واحد فى فيلا حلمى باشا فى أيامنا هذه)

كلمة

ان معظم من عالجوا التأليف المسرحي المصرى عندنا (كمحمد تيمور) و (عباس علام)(وابراهيم رمزى) صادفوا بعض النجاح الفنى فى الكوميديات الخفيفة(كالعصفور فى القفص) و(الاموِد) و (ودخول الحمام مش زي خروجه) تلك الروايات التى لا تنفذ بحكم قانون نوعها الى باطن الشخصيات وإنما تحوم حولها فقط فترسم المميزات السطحية الطارئة لبعض الطبائع التى يجتهد المؤلف فى وصفها شاذة كاريكاتورية تستفز غرابتها الظاهرية ضحك المشاهد وسروره

حاول بعضهم (كحسين رمزى) فى (طريدا لأسرة) وضع بحث وجدانى مصرى فى قالب قصة تمثيلية وكذلك عالج (محمدتيمور) في (الهاوية) شرح نتائج الكوكايين ولكن الاولى كانت أقرب الى محاضرات الجامعات منها الى روايةو الثانية عرضية الموضوع لاتلمس امهات العواطف الحيوية والمشاكل الانسانية . لم يتوخ أحدهم رسم الازمات النفسانية التى يولدها احتكاك الآراء المتنافرة والميول المتناقضة وفى رأيى أن ليس الفن فى التحدث عن أية واقعة أو رسم أى شخص ممن نصادفهم رسما فتوغرافيا يبعث الدهشة أو اللهو بل فى اختيار الحادثة و الشخص والنظر إلى قيمتهما وما يرسلانه حولها من اصداء بعيدة الوقع فى المجتمع . أو بمعنى اوضح اختيار حادثة ذات أثر فى حياة الفرد والمجموع معاً . وهذا ما حاولته هنا .

***

اعترضتنى مشكلة اللغة فوجدتنى اذا أنا كتبت الرواية كلهابالعامية أفقدتها روح جوها الفاجع وخرجت بها عن نوعها ونزعت منها أهم عناصر المأساة التى لايثبت الجمال الافى أطارها وهى موسيقي الالوان الخالقة بما تحتويه من جلال اللفظ المنسجم وروعة التعبير المتغلغل فى خفايا العاطفة وبهرة الاستعارات الملازمة للاوضاع الوجدانية المؤثرةو بالاجمال كل مميزات

تلك الكمية من الحلم الشعرى فى تخيل الحقائق التى منها ينبع الجمال والبها ينتهى الفن

ثم رأيت من جهة أخرى أن مستلزمات الموضوع الذي اخترته ادماج بعض مشاهد كوميدية خفيفة تتناول وصف الأخلاق السطحية المتواردة فى غير دائرة التحليل النفسانى فلم أتردد فى كتابتها بالعامية البحته حفظاً لجوها من ايضامن الجفاف والثقل والتزييف . قد أكون بفعلى هذا هدمت التناسب الشكلى ومزجت ببعضها الوانا جد متنافرة ولكنى أضطررت لذلك اضطراراً بحكم الوسط المصرى نفسه . ثم لقد رأيت أن العبرة بالجوهر أى دقة الملاحظات وعمقها وصدق عواطف الاشخاص وتمشيها مع نفسياتهم بحيث لايكون هناك تناقض أو غش أو افتعال

***

ذلك مارسمته لنفسى قبل مباشرة العمل فهل حققته بتمامه . لا . وعلى كل فهى محاولة أولى ارجو ان كون بواسطتها قد وفقت الى المزيد فى المحاولات التالية

الفصل الأول

فيلا حلمى باشا

صالون خارجى يطل على الحديقة معد لاستقبال الجميع من رجال ونساء كل فى ساعته. أثاث بسيط لازخرف له. يتميز فى البعض منه الذوق الشرقى كالاستار الحمراء التى رسمت عليها ورود بيضاء كبيرة والطنافس السميكة المجارية للاستار فى لونها... كذلك المقاعد الفرنجية فانها وردية القماش مذهبة خشب الاطراف. فى الزاوية اليسرى (جردنيير — Jardiniere) بنية اللون ذات ورد أبيض باهت. فى الزاوية اليمنى بيانو عليه ثلاثة أو أربعة كتب وبعض صور العائلة تحوطها صور وتماثيل صغيرة. بجوار البيانو فونوغراف يعتلى منضدة طويلة تحمل فى وسطها الاسطوانات السوداء. فى جهة من الحائط معلق (عود) مكسو بحرير أحمر ... وبالجملة فاثاث الصالون يختلط فيه الذوق الشرقى بالذوق الغربى

يفتح الستار فيكون حسن بك جالساً على كرسى البيانو والبيانو مفتوح أمامه كأنه انتهى من العزف عليه وهو متكئ بمرفقه على حافته وفى يده اليسرى كتاب وفي الاخرى سيجارة يقلب صفحات الكتاب وهو يدخن ... تمر بضع دقائق

حسن — أفكار لم تنضج ... ولكن ... لابأس بها ...

(يقلب بضع صحائف ثم يستغرق فى القراءة فيفتح الباب الخلفي وتدخل فاطمة فتراه فتسير اليه ببطء وتقف وراءه وتطل على الكتاب قارئة)

فاطمة — واذا كانت الزوجة لاتستطيع ...(يلتفت بسرعة فيراها فيقوم اليها باسماً ويلقي الكتاب على البيانو)

حسن – أختي ... أهلا وسهلا ...

فاطمة – ماذا كنت تقرأ ؟

حسن - كنت في سياحة صغيرة حول كتب عمتي .. النسائيات ... المرأة المسلمة ... تحرير المرأة ... كتاب انجليزي فى التربية ...

فاطمه – أوه انها لا تقرأ الروايات ابدا . . عمتك ...

حسن – انها فى الخامسة والثلاثين

فاطمة – أما انا فهى عزائى الوحيد

حسن – لانك جميلة

فاطمة – وياللأسف .. ان جمالى يطرد الرحمة من حولى

حسن – ماذا ؟ أوقع هناك شيء جديد ؟

فاطمه – بل أشياء سوف احتمل أمر منها اذا أنا أصررت على رفض الزواج من رياض بك

حسن – أعاودت الكرة ؟

فاطمه – مرات عديدة ...

حسن – ولكن كيف عرفت أمك ذلك الشاب ؟ أين ومتى ؟

فاطمة – لا أدرى سوى أنها تبذل قصارى جهدها منذ شهرين لتحببه الى وترغبنى فيه بالرغم عما هو مشهور عنه من التهتك والاستهتار

حسن – انه سكير مقامر خليع

فاطمه – اعرف كل ذلك

حسن – وتعرفه أمك أيضا

فاطمه – أجل

حسن – ثم تعقد معه الصلات وتسعى فى تزويجك منه لا بد أن تكون هناك غايه تسعى أمك لتحقيقها

فاطمة ـ ولقد عرفتها

حسن ـ ماذا تقولين ؟

فاطمة ـ كانت أمى فيما مضى أي بعد ان طلقها أبى امرأة ساكنة خانعة مخلوقة طيبة القلب منكسرة الجناح تعيش فى رضوخ واستسلام لمشيئة الله . ثم انقلبت بغتة وكأنها استكشفت جمالها فرأيتها يوما عصبية المزاج نارية الخلق نفوراً مزهوة متغطرسة يملأ الحسد قلبها وتجرى النميمة فى كل قطرة من دمائها ...

حسن ـ متى كان ذلك ؟

فاطمة ـ فى أول مرة حادثتني فيها عن رياض بك

حسن ـ وبعد

فاطمة ـ استدرجت صديقتها نجية هانم للحديث فعلمت منها أن أمى . .

حسن ـ عشيقة رياض بك

فاطمة ـ بل عشيقة أخاه

حسن ـ الدكتور حامد بك ؟

فاطمة ـ نعم وهى تعبده ولقد اتفق معها رياض بك على ان تزوجه منى فيزوجها من أخيه ...

حسن ـ لا . لا . . امك لا تفعل ذلك

فاطمة ـ والبرهان انها تقتر على أشد تقتير سواء فى المأكل أم فى الملبس لتستطيع إن تنفق على زينتها فقط ثلاثة أرباع ماتأخذه من أبى

حسن ـ بئست النتيجة . طلقها لتستدر نعمته وتمرح كما تشاء مع من تشاء ولكن ماذا فعلت حين علمت برفضك هذا الزواج

فاطمة ـ بدأت تضايقنى فصرفت أستاذة البيانو واتبعتها بمربيتى الفرنسية وحرمتنى ثوب العيد ولم تدفع لى كالعادة قيمة اشتراكى فى

(الالستراسيون) و (الفى باريزيين)و نهتنى عن ابتياع الروايات ثم انتهت بان صرحت لى ان ماتأخذه من أبى لم يعد يكفينا فثار ثائرى وطلبت مراجعة الحساب فرفضت فعاودت الكرة فغضبت وشتمتنى فلم أطق صبرا وعرضت بها فاهتاجت وصاحت بى لا أريدك بقربى ... اذهبى ... اذهبى الى أبيك ... فلم يكن منى إلا ان تحاملت على نفسى حتى مخدعى وهناك أخذت فى البكاء طويلا ... طويلا ...

حسن — ولكن لم لم تتركى البيت منذ ذلك الحين ؟ لم تحملت كل هذا الشقاء ؟ لم لم تنفصلى عن والدتك وقد عرفت عنها ماعرفت ؟ ... لم لم تأتى الينا إذ ذاك ؟

فاطمة — مهما يكن سلوكها فى الخارج ومهما تكن معاملتها لى فهى أمى وما زلت عندها فى بيتى اما هنا فانا غريبة عنكم جميعاً ...

غريبة عن أبى الذي لم يستفسر عن حالى مرة واحدة مدة العشر سنين التى قضيتها بصحبة أمى وقد طلقت . غريبة عن زوجة أبى الجديدة . زوجته الثالثة تلك المرأة الخبيثة التي لاتكاد تلمحنى حتى ترتسم على شفتيها ابتسامة احتقار وسخرية ولا أكاد أحدق فيها حتى تخالجنى قشعريرة غيظ وكيد فانمنى لو انه كان فى امكانى طردها من هذا البيت الذى حلت فيه محل أمى والذى ماخرجت امى منى حتى أصبحت امرأة خليعة متهتكة

حسن — وأنا ... أنا يافاطمة أغريب انا عنك أيضاً ؟ اننا فى الشقاء سواء. لوتعلمين ! ان أبى يبغضني يافاطمة . يبغضنى لأفكارى الحديثة ومنزعى الجديد يبغضنى لأنى اتهمته بقتل أمى زوجته الاولى اذ طلقها لشبهة خيالية وكانت تحبه فلجأت إلى بيت أخيها فسامها أهون الآلام فاصيبت بداء السل وماتت على عهدها لأبى . يبغضني لانى صارحته بانه أجرم أدبياً إذ طلق أمك زوجته الثانية مرضاة لعائلة زوجته الجديدة . يبغضنى لانى خالفت رأيه واتبعت ميولى

فلم أشا دراسة الحقوق أو الهندسة أو الطب بل واصلت سعيي فى سبيل الفلسفة والادب والاجتماع ...

فاطمة — والآن ألم تتفاهما ؟

حسن — بالعكس وهذا ما أريد ان أنبهك اليه . إن أبي يزداد غطرسة وعتو منذ ماربح فى مضارباته الاخيرة ذلك الربح الهائل . يزداد غطرسة وبخلاوهو كما تعلمين بخيل على سواه سخي على نفسه يضن على أهل بيته باسباب الرفاهية ويستبيح لنفسه كل الملاذ .

فاطمة في أسى — اذن فأى شأن لى هنا ؟ ماذا أتيت افعل ؟ حقاً انى لمجنونة ... لقد كتمت عنك سبب مجيئى لأستعلم منك عن حالة المنزل فاما وهو كما قد وصفت فالوداع ...

حسن — فاطمة ... اسمعى ...

فاطمة منفجرة — آه لاطاقة لى على معايشة أمى ... لاأستطيع ... لاأقدر .. ستدفع بى الى الهاوية يا حسن ... أتريد معرفة الحقيقة . . . لقد طردتنى حين علمت بحبي لفؤاد بك ... طردتنى أساموومن المحال ان أعود اليها !

حسن — نعم انت قادمة للسكنى مع البيك ؟ !

فاطمة — انا لاجئه الى والدي !

حسن — ماذا كنت أقول الآن . مسكينة يافاطمة

فاطمة — ماذا ؟ أو تظن جحيم أبي يشبه جحيم أمى ؟

حسن — شبهاً تتمنين معه الموت هناك ولا الحياة هنا !

فاطمة — ولكنى سأرى فؤاد هنا وهو حسبي

حسن — أتحبينه الى هذا الحد ؟

فاطمة — كما تحب انت أخته حورية

حسن — انى لم أحادثها قط فى حين انك رأيت فؤاد وحادثته كثيرا

فاطمة — وكان الفضل في ذلك لك

حسن — هذا مبدأى !

فاطمة — حذار ان تفوه بمثل هذا الكلام أمام أبى

حسن — انه يعرف أفكاري والهوة منفتحة بيننا من زمن بعيد

(يسمع صوت فوزيه هانم من الداخل : حسن . . حسن . .)

حسن — هنا .. هنا...

فاطمه — هذه زوجة أبى. انى لاأود أن أراها الآن . سأذهب الى مكتبك وساطالع ريثما يأتى ابى ...

حسن — كما تشائين

المشهد الثانى

مذكورات فوزيه هانم

(فوزيه هانم امرأة فى الخامسة والثلاثين تحافظ على جمالها جهدها . . . متكسرة المشية . عصبية اللفتات والالقاء الاحين تسخر . بها مزيج من) (الصراحة المرة والخبث الحقود . تضحك كثيرا وبلا مسوغ ومع ذلك) (فخلاعتها متوازنه تليق بسنها . تدخل المسرح بروب دى شامبر وبيدها دفتر المودة صائحه)

فوزيه - حسن . حسن انظر . أيعجبك هذا الفستان .. بايلون بياقه دنتيلا بيضه وأجنحة بشراريب و...

(وترى فاطمه فتعود اليها رزانتها وكبرياؤها فتقول بلهجة ساخرة مترفعة)

فوزيه - اوه بونجور فاطمه هانم ١

فاطمه — (وهى بجوار الباب تحييها بصوت جاف قاطع) - نهارك سعيد ياهانم.

(ثم تنفتل وتخرج)

المشهد الثالث - مذكوران

فوزيه — ما كان عهدى باختك قليلة الحياء يا حسن بك

حسن ـ لماذا !

فوزيه ـ أصبحت لا تكلف نفسها على الاقل مد يدها لمصافحتي

حسن ـ أوه انها معذورة ولو علمت ماذا حدث لعذرتها مثلى

فوزيه ـ وماذا حدث لها من فضلك

حسن ـ انها على خلاف مع والدتها وقد أفضى بها الأمر الى الالتجاء الى أبى

فوزيه ـ ماذا تقول ؟

حسن ـ نعم انها ستسكننا حينا من الزمن ريثما ينتهى الخلاف بينها وبين أمها

فوزيه ـ عظيم . تدخل بيتى لاجئة ثم لا تكلف نفسها اعناء مصافحتي (تقلدها) نهارك سعيد ياهانم ... هذه وقاحة ياحسن بك

حسن ـ انها تتألم فاعذريها

فوزيه ـ اعذرها؟ ومن أسعد حظا منها. انها على الاقل تحسن اللغة الفرنسية وكل الهوانم يحترمونها وهى تعاشر طبقه رفيعة منهن لا أستطيع الوصول اليها أنا ... بالطبع فهى تستنكف مصافحة أمثالى ...

حسن ـ اوه انك سريعة التأثر ياعمتى ...

فوزيه ـ اتأثر ؟ وممن؟ من تلك الفتاة ؟ وعلى ايه ؟ انت مجنون ... وماذا فعلت لى ؟ وما تستطيع أن تفعل لى تلك الفتاة المسكينة ؟ انى أشفق عليها من صميم قلبى فهى لم تستطع أن تفصل فستان العيد والظاهر ان أمها تبتلع بمفردها كل ماتأخذه من زوجي وتترك ابنتها على الحضيض ومين عارف ايه كمان لذلك فهى قليلة الأدب اليس كذلك ؟

حسن ـ كفى كفى ياعمتي

فوزيه ـ زعلان على أختك؟

حسن أريد أن أقول ان حياتكما اذا ابتدأت على هذه الشاكلة فن العبث...

فوزيه ـ وماذا يهمنى...ستين سنة ..

حسن ـ اذا كان قدو مهالا يهمك أنت فهو يهم أبي

فوزيه ـ أتظن ؟

حسن ـ بالتأكيد .

فوزيه ـ ياشيخ . . .

حسن ـ أتريدين أن نطردها من بيت أبيها بعد ان طردت من بيت أمها

فوزيه ـ حرام علينا والله...

حسن ـ اذن ما عليك الا أن تدعيها وشأنها

فوزيه ـ شيء غريب . وهل أنا كلمتها ؟ لقد أهانتني فصفحت عنها

حسن ـ أشكرك

فوزيه ـ بالنيابة عنها

حسن ـ نعم

فوزيه ـ أنت تحبها كثيراً

حسن ـ انها أختي

فوزيه ـ أختك لاشقيقتك

حسن ـ سيان عندي

فوزيه ـ الفرق بعيد ومع ذلك فانت حر . تحبها أو لاتحبها
ولكني كنت أظنك على كل حال ابعد نظراً وأوسع خبرة مما أنت عليه

حسن ـ ماذا تعنين

فوزية ـ لاشيء

حسن ـ تكلمي

فوزية ـ وفعلا ممن أخاف لو تكلمت

حسن ـ تكلمي اذن

فوزية ـ لم أكن أظنك تحترم فتاة تلك أمها . .

حسن ـ عمتى !

فوزية ـ تفيده هانم ياحبيبى على سن و رمح

حسن ـ عمتى !

فوزية ـ عايز ايه . . . الله . . .

حسن ـ فلنتكلم فى موضوع آخر

فوزية ـ بل فى هذا الموضوع . لا أريد أن أسمع أبدا انك تذهب إلى بيت أمها

حسن ـ ولماذا ؟

فوزية ـ كده

حسن ـ كده ليه يعنى ؟

فوزية ـ آه يامغفل !

حسن ـ الله يحفظك

فوزية ـ مغفل وأبوها كمان لأن فى المسألة . . .

حسن ـ مين ؟

فوزية ـ حورية .

حسن ـ مالها ؟

فوزية ـ ماذا يقول أهلها حين يعلمون بترددك على منزل تفيده هانم

حسن ـ انى أذهب لرؤية أختى

فوزية ـ والآن وقد أصبحت اختك هنا بماذا تبرر ذهابك الى هناك

حسن ـ كانت تفيدة هانم زوجة أبى

فوزية ـ تشرفنا . ولكنهم سيقولون انك تجتمع هناك بعشيقها الدكتور حامد بك وانك تغض الطرف عما يقع بينهما

حسن ـ أوه . أوه

فوزية — واطلع أنا بسواد الوش

حسن — كيف؟

فوزية — لقد مضى على شهر وأنا أسعى فى زواجك بحورية . أقمت لهم ثلاث حفلات كما تدري وكنت على الدوام اتملق الأم وأداهن الخالة وانفخ فى الأب افتريدان تهدم فى لحظة ما بنيته فى ثلاثين يوم

حسن — عمتى العزيزة ..

فوزيه — انسيت ذلك اليوم الذى كنا فيه سوياً أنا وأنت في ألاوبرا ثم رأيت حورية فى لوجها فسحرت بها وسألتنى عما إذا كنت أعرفها فلما أجبتك بالايجاب لم تتمالك ان اظهرت لى أعجابك بجمالها ثم أعترفت لى في اليوم التالى بحبك لها فوعدتك بها رغم أى مانع . أنسيت ..

حسن كمن يحلم — كلا . لا . لم أنس .. يستحيل أن أنسى ..

فوزيه - بالزمة لو رأيتنى جالسة إلى والدة حورية أنظم فيك قصائد المدح لقلت انى خطابة ماهرة

حسن - أهى تحبنى ؟

فوزية - بودى أن أمتعكما بخلوة طويلة ولكن كيف . . كيف . . .

حسن - أهى تحبنى ؟

فوزية - لدرجة انها تحادث عنك كل معارفنا فى كل يوم .

حسن - آه بماذا أكافئك

فوزية - بان تعدنى بالانقطاع عن الذهاب إلى منزل تفيده هانم

حسن - أعدك بذلك

فوزية — وأنا اعدك بمواصلة السعى لتبليغك امنيتك

حسن — افعلى بحبي ما تشائين . . . . . . لقد غرسته فلك ان تتعهديه !

فوزية ـ إياك وان تخلف الوعد

حسن ـ أبدا

فوزية ـ ان والدة حورية تحبنى كأختها وفي استطاعتى أن أنتقم لخذار

حسن ـ انت طيبة القلب جداً ولكنى أطلب منك شيئا آخر

فوزية ـ ماهو ؟

حسن ـ أن تدعى أختى فى راحة وسكون

فوزية ـ تضحك ـ أما أنت غبي . أختك ؟ ودي إيه دى كمان . ودى لها حساب

حسن ـ يا عمتى

فوزية ـ صهين ياشيخ

حسن ـ أرجوك

فوزية ـ سيفصل أبوك فى هذا الموضوع (تذهب الى المرآة وتصلح شعرها) كم الساعه الآن ؟

حسن ـ الحادية عشر . أتنتظرين أحدا!

فوزية ـ حبيبتك بعينها !

حسن ـ الآن

فوزية ـ نعم ستمربى مع الآنسة المعلمة دولت وشمس هانم شقيقة رياض بك

حسن ـ لماذا لم تخبرينى بذلك من قبل

فوزية ـ لافاجئك.. اتريد ان تراها ؟ اقسم لك انى مادعوتها الا مرضاة لك

حسن ـ انى أراها فى كل مكان انما اريد ان احادثها . . .

فوزية – لم يحن الوقت بعد . . . اعدك بذلك . . . انتظر . . أما الآن فاذهب إلى حجرة أبيك وانظر من النافذة تراها وهى صاعدة إلى (يدخل الاغا)

الاغا – ستى فى ستات فى الجنينة

فوزية – طيب قولهم يتفضلوا (يخرج)

حسن – انى مسرع إلى النافذة

فوزية – اجرى بس أوعى توقع . . .

المشهد الرابع

مذكورة · حورية و دولت وشمس

(دولت فتاة رزينة متوسطة الجمال ذات ضمير حساس وحورية آنسة جميلة جداً. جمالها يطمع فيها صديقاتها ويحرضهن على التعريض الدائم بها . . . تشرد كثيرا ولكنها تفكر فيما تقول . عصبية عنيدة اذا ازمعت أمراً نفذته تحترم نفسها أكثر من سواها الا أن بها بعض الخلاعة – أما شمس ففتاة محبة للظهور ثرثارة خليعة الى حد التهتك حسودة غيورة تحب تهزىء الغير والسخرية به)

ooo

حورية – بونجور فوزية هانم (تصافحها)

فوزية – بنجور حورية

دولت وشمس – نهارك سعيد فوزية هانم

فوزية – (مصافحة) أهلا وسهلا ... يعنى مابتبانيش ياشمس هانم

شمس – مابان عليك هم ياروحى كنت مش مبسوطة شوية

فوزية – الف سلامة إزاي الاستاذة كده .. إنت شرفتينا

دولت ـ الله يحفظك

فوزية ـ إزاى نينه ياحورية ؟

حورية ـ بتسلم عليك و بتنتظر انك تردى لها الزيارة

فوزية ـ والله كنت مشغولة جدا بسبب مرض ابنى كمال

الجميع ـ ابنك مريض ؟

فوزية ـ حمى بسيطة

دولت ـ امنعيه عن الأكل بالمرة ودفيه كويس ...

شمس ـ اسمعى نصايح الاستاذة تكسبى ... ضميرها حى جدا ...

فوزية ـ الحمد لله حالته تحسنت والدكتور سمح له بالأكل

حورية ـ وهو فين؟

فوزية ـ خرج مع الدادا يتفسح فى العربية

حورية ـ سلامته الف سلامة (تضع يدها على خدها و تفكر)

فوزية ـ مالك ياحورية

شمس ـ معذورة جداً . دايما تسرح

دولت ـ ودايما فكرها تايه.

حوريه ـ النبى ؟

شمس ـ ودايماتنسى.

حوريه ـ صحيح ؟

شمس ـ اللى واخدو مايتهنابو .

حوريه ـ ملو ...

فوزيه ـ ايهايه المسأله ياهوانم؟

شمس ـ المسأله فيها نظر ...

حوريه ـ كل ده لاننا كنا فى السينما يوم الخميس فشاهدنا روايه مؤثرة جعلتنى ابكى . . .

شمس ـ رواية موضوعها ان فتاة أحبت شاباً ولم تستطع التزوج به فانتحرت .

فوزية ـ هذا كل مافى الامر ؟

شمس ـ من يدرى ...

فوزية ـ أؤكد لك ياشمس ان ليس حظ حورية كحظ فتاة السينما

شمس ـ ان حورية أقامت فوزيه هانم محامياً عنها

فوزية ـ لى الشرف

شمس ـ اذا فما هو اسم المتهم من فضلك ...

فوزية ـ الأردب اللى ماهولك لاتحضر كيله ...

حورية ـ تتعفر دقنك وتتعب فى شيله

(تصفق حورية يدخل الاغا)

شاى باللبن حالا .

شمس لحورية ـ أما فستانك بديع ...

فوزية ـ شرموز تانجو ياوعدي . مين الخياطة ؟

حورية ـ مدام رينو

شمس ـ خياطةشهيرة

حورية ـ جدا ...

شمس ـ والشرموزمن عند شملا ؟

حورية ـ لا .. لا .. شملا؟ اف .. بضاعة أنتيكة .. من عند شيكوريل

فوزية ـ والموسلين ده والكريب جورجيت ؟

حورية ـ من عند الماو ردي

دولت ـ ألا تجدى ان حورية بهذا الفستان تشبه بعض الشىء فاطمةهانم ...

فوزية - أبدا .. أبدا حرام عليك

حورية - ولماذا ؟ ان فاطمة جميلة

فوزية - الجمال وحده مايكفيش .

حورية - ومؤدبة ...

فوزية - مؤدبة ؟ هي ؟ أوه . أوه . انت واهمه يا عزيزتى لقد طردتها أمها هذا الصباح من البيت فلجأت الينا ولما ان رأتنى لم تكلف نفسها عناء مصافحتى كأنها لا تدري ان كلمة واحدة مني لأبيها تكفي لان يلقى بها في الشارع .

حورية - طردتها أمها من البيت ؟

فوزية - نعم أرسلتها الىّ .

شمس - ليخلو لها الجو .

دولت - شمس ! أليس لك ضمير ؟.

فوزية - دعيها تتكلم . وأرجو منك ألاتسمعى صوت ضميرك خمس دقائق فقط .

شمس - ربما كانت عالة عليها ؟

فوزية - بل ربما أرادت مزاحمتها

حورية - فوزية هانم !

فوزية - هيه .. هيه .. البنت لأمها !

دولت - لكل قاعدة شواذ

فوزية - هاهو الشاى (تقوم وتسكب لهن) اتفضلى ياحورية

حورية - أشكرك

فوزية - شمس هانم ... دولت هانم ..

دولت - أشكرك

حورية - شاى لذيذ

دولت - جداً

فوزية - من عند فلوران

شمس - ياسلام . . .

شمس - لبن من فضلك ؟ . . .

فوزية - عنى . . .

حورية - وأنا كمان

فوزية - عنى التسعة . دولت ؟

دولت - أوه مرسى كفاية

شمس - مال عينك بترغلل ياحورية اوعى الفنجال يوقع منك .

فوزية - فداها ياستى البركة في سمعان أهو فاتح أوكازيون

دولت - أوكازيون ؟

شمس - والأثمان متوسطة . أنا كنت هناك يوم السبت و بالصدفة قابلت فهيمة هانم .

دولت - فهيمة هانم ؟

فوزيه - ازيها ؟

شمس - عال

حورية - ومحمود بك ؟

شمس - محمود بك مين ؟ .

حورية - جارها

شمس - انت عارفة الحكاية ؟

حورية - من الاول للآخر

فوزية ـ هو طلق مراتو علشانها ؟

شمس ـ لسه

فوزية ـ لازم ناوى

حورية ـ مسكينة الست حرمه .

دولت ـ رجل لايطاق · لا ذمة ولا ضمير .

فوزية ـ لا يحتمل

دولت ـ يسهر فى الخارج طول الليل و لما يدخل البيت و تسأله زوجته كنت فين ما يختشيش يقولها كنت عند فهيمة هانم .

فوزية ـ والله لو كنت امراتو .

دولت ـ مش عايز يطلقها الا بعدما تكتب له عشرين فدان من اطيانها .

فوزية ـ مسكينة .

شمس ـ دى عبيطة .

حوريه ـ ليه؟ .

شمس ـ مى منها أمشى على كيفي مادام هو ماشى على كيفه .

دولت ـ ليه ماتكونيش أحسن منو ؟

شمس ـ اكون أحسن منو وأموت ؟

دولت ـ بالعكس تعيشى

سمش ـ أعيش فى هوان .

دولت ـ تعيشى بشرف

شمس ـ وإيه الفايدة ؟ الضمير الحى ما ينفعش فى الأيام دى يادولت هانم

دولت ـ فى مذهبى أنا أن الزوجة يجب أن تحاذر السقوط جهد استطاعتها لانه مين يعلم ربما يعرف زوجها فيطلقها وإذا طلقها ربما

لا يتزوجها الرجل الذى أغواها وعندئذ ماذا تصبح تلك المرأة المسكينة ؟

شمس ـ تصبح حرة

دولت ـ الله الله تصبح بمعنى آخر . . .

فوزية ـ طيب واذا كان الزوج يطلق زوجته من غير سبب ؟ واذا كان لاقل شيء يستخدم محللات الشرع فيطلقها او يتزوج عليها ؟ .

دولت ـ اهو علشان مانوقعش فى ايدين الازواج دول يجب علينا ان نبحث جيدا قبل الزواج عن اخلاق من يطلبونا من الشبان وعما اذا كان هناك توافق بين مشاربنا ومشاربهم

فوزية ـ صحيح

حورية ـ عندك حق . . .

شمس ـ وعلى كل حال فانا لم أتزوج بعد وساعرف كيف اختار

فوزية ـ احذرى ياعزيزتى . احذرى من الغلطة الاولى

دولت ـ إيه بونجور أنا استأذن

شمس ـ وأنا كمان

فوزية ـ حالا كده

حورية ـ وانا معاكم

فوزية ـ ياسلام . لا لا . دولت انت خليكى هنا

حورية على حدة ـ بابا راح يجى كمان شوية

فوزية ـ والدك ؟

حورية ـ أيوا

فوزية ـ النهارده ؟

حوريه ـ أيوه مالك ؟

فوزية ـ لا ما فيش حاجة . أهلا وسهلا

حورية - أظنه عايز الباشا فى مسألة شغل (يتقدمان) وأناطالعة شفت خيال ورا الشباك . هو؟

فوزية - بعينه

حورية - انشاء الله مبسوط !

فوزية - بيسأل عنك دائماً

حورية - بوسيلى ايدو واوليلو أنى على العهد

فوزية - وهو كمان .

حورية - ربنايسمع منك .

فوزية - اتكلى على الله وعلى . . . مع السلامه (يتصافحان)

حورية - أوريفوار (تكون شمس قد ذهبت تصلح من شعرها أمام المرآة فتأتى)

شمس - أوريفوار فوزيه هانم

فوزيه - أنستينا (تقبلهما) محمدأغا وصل الستات بالعربية . مع السلامه . . مع السلامه . . . أنستونا . . . مع السلامه . . .

المشهد الخامس

مذكورات

(تظل فوزية واقفة بالباب محدقه فيهما وهما خارجتين ثم تلتفت الى جهة الجمهور ويدها مرفوعة مستندة الى الباب وقد أحنت رأسها ثم تسير الى المقعد متثاقلة فى ألم)

دولت آتية نحوها - فوزية ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ولكن مابك ؟ مابك ؟

فوزية - صائحة تلقى بكل ألمها - بى أن لاطاقة لى على الحياة هنا . . . بى

أنى أتألم منذ شهر فى استكانه وصمت ... بى أنى قد أصبحت عالة عليهم جميعا بى احتقار واشمئزاز من نفسى ! . . .

دولت ـ ولكنى لا أفهم . . ماذا وقع

فوزية ـ لو كنت قد لحقت بهم لكنت صرخت ألمى للمربيه للخادم للمرضع لاى شخص يقع تحته بصرى بل لاى شىء لهذه الحيطان الاربع . . .

غداً . . . غدا يادولت قد ينبذونى كثوب عتيق أو كتاب قرىء غداً قد يأمرونى بترك هذا القصر والانزواء فى بيت قصى حيث يتكرم على زوجى بزيارتى كل شهر مرة . . غدا قد أصبح تلك الجارية المنكودة التى لايطردها سيدها بعد أن أشبعته من جسمها لذة بل يطرحها فى الزاوية تأكل وتشرب جزاء لها ثم يستبدلها بغيرها أمام عينيها . . . غدا قد ينكرون على روحى فيعاملونى كالحيوان الاليف . . . نعم قد لا أستطيع فى غد أن أسرح الطرف في هذا القصر فاصيح هذا قصري أو أن أقبض على هذه اللعبة فاقول هذه لعبتى . . .

دولت ـ ماذا ؟ أيكون الباشا ؟

فوزية ـ هو ذاك لم يعد يرضيه إنى تزوجته على علم منى بأنه طلق زوجته الاولى والدة فاطمة و الثانيه والدة حسن . لايرضيه ذلك بل يريد أن يتزوج للمرة الرابعة . . . الرابعة . . .

دولت ـ وهل سيطلقك ؟

فوزية ـ كلا بل سيبقينى شفقة منه على .

دولت ـ ولكن أصارحك برأيه هذا

فوزيه ـ دخل المنزل مساء أمس فنادانى لفوره فوافيت فرأيته وعليه أمارات السكر دموى السحنة منفوش الشعر مقطب الجبين تائه العينين يعلو الزبد شدقيه وترتجف شفتاه ويداه كمجرم فاقبلت عليه باسمة فما كان منه إلا وانتهرنى ثم أجلسنى على مقعد تجاهه بعنف وأخذ يقص على بمنتهى الوحشية

والغلظة وصوته الاجش يدوى فى ارجاء البيت انه متضايق منى ، انى لم أعد أحلو له ... انه يطلب لذة جديدة ... انه لم يعد يحبنى !

دولت ــ وبماذا أجبته

فوزية - - لقد استرحمت وتوسلت ... التمست اليه باسم اخلاصى ووفائى أن يبقي على كرامتى وشبابى ، فأجابنى بما يجيب به كل زوج امرأته المنبوذة قال لى : انه سيعدل بيننا وانى سأعيش مرتاحة البال وانه لن يطعم ضرتى رغيفا حتي يطعمنى رغيفا مثله كأن أرواحنا لا تطلب غذاء كما تطلب الاجساد أو كأننا خلقنا أجسادا بلا أرواح !

دولت ــ انك ترسمين لى صورة هائلة من زوجك يا فوزية . . . ذلك الرجل الذى نلمحه فى الحياة وعلى صفحات الجرائد نبيلا عظيما تجله الامة وتسعى دواما لنيل رضاه عن كل مشروع أو رأى جليل هو فى اسرته ...

فوزية ـ وحشا ضاريا ! انه لايحبنى ومع ذلك فهو يغار على غيرة عمياء . يريد أن تكون حياتى وقفا عليه وحياته وقفا على لنفسه . انه يضيق على الخناق فيمنعنى من الخروج الامصحوبة بمربيته هو وحين تذهب مربيته لزيارة أمها يسرع فيجيئني بمربية أمه وهى عجوز سافلة بشعة تلازم خطواتى النهار كله ولا تعرف الملل .

دولت ـ مسكينة يا فوزية .

فوزية ـ وهو فوق هذا بخيل علينا سخى على نفسه ينفق فى الخارج ما لو أنفقه فى البيت لاصبحت مكانته بين الناس جديرة باللقب الذي يحمله!

دولت ـ أمسرف إلى هذا الحد .

فوزية ـ مسرف بسخف . ينفق ليسكر وينفق ليقامر وينفق فى الملاهى وينفق على أصدقائه وعشيقاته .

دولت ـ أله عشيقات ؟

فوزية ـ بالطبع ما دام لا يدخل البيت إلا نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

دولت ـ انه لمدهش اذا كان يمرح فى الخارج ما يشاء فلماذا يرغب اذن فى الزواج ؟ ...

فوزية ـ لان الفتاة التى يريدها .

دولت ـ ماذا ؟

فوزية ـ آه أكاد أجن . لانه يحبها !

دولت ـ هو يحب ؟

فوزية ـ نعم يحب حب الكهل الاحمق الذي يريد أن يقتنص الحياة قبل أن تقتنصه ويثأر لشيخوخته بشبابه المزعوم .

دولت ـ ولكن هى ؟ تلك الفتاة المسكينة ؟

فوزية ـ بحنق ـ مسكينة ... آه ..

دولت ـ أرضيت به زوجا ؟

فوزية ـ انها لا تعرف حتى الآن من الامر شيئا

دولت ـ أرضى أهلها ؟

فوزية ـ هذا ما أبقيتك لاسألك عنه

دولت ـ ماذا تقولين ؟

فوزية ـ وستجيبيني عليه

دولت ـ ولكن الى معرفة بها ؟

فوزية ـ نعرفها سويا !

دولت ـ كيف ؟

فوزية ـ لقد كانت هنا !

دولت ــ شمس ؟

فوزية ـ لا .

دولت ــ حورية ؟

فوزية ـ نعم ! (بعد لحظة) لقد فاتحني زوجي أمس فقط برغبته فيها ولكني عرفت ذلك منذ شهر مضى اذ كان يكثر الاسئلة بشأنها ويبذل وسعه فى استجلاب مودة والدها بدعوته اياه للعشاء كلما سنحت الفرص ولكني لم أوقن بصدق ظني الا حين علمت ان رياض بك قطع كل صلة له مع حورية وانه أصبح صديقاً حميماً لزوجي

دولت ــ صدقيني يا فوزية ان مجهودات الباشا ستذهب ضياعا

فوزية ـ هذا ما أردت سؤالك عنه انك بقرب والدة حورية على الدوام فهل ترضى هي عن زواج كهذا؟

دولت ـ أبدا لاسيما وهي .. هي ..

فوزية بضحكة صفراء ـ تحب ؟ . .

دولت ـ أجل تحب

فوزية ـ وهل تعرفين من تحب ؟

دولت ـ كلا !

فوزية ـ ولكني أعرفه أنا !

دولت ـ ماذا تقولين ؟

فوزية ــ إذا هجم عليك لص يريد قتلك واستلاب حلاك أفلا تدافعين عن نفسك ؟ ألا تستخدمين لذلك أي سلاح ؟ أسنانك ؟ أظافرك ؟ أقدامك ؟

دولت ـ بالطبع

فوزية ــ واذا كنت الرفيقة المخلصة لامرىء وسولت له نفسه أن يغدر بك ليبلغ أمنيـة له أفلا يعلمك هـذا كيف تدوسين على سواك لتبلغى أنت أيضاً أمنيتك ؟

دولت - ربما ولكن ضميرى ...

فوزية - دعينا لقد فعلت أنا ذلك !

دولت كيف

فوزيه - رأيت الوالد ينبذ الزوجة ويحب الفتاة ، رأيت الباشا ينبذنى ويحب حورية ثم رأيت الابن حسن وقد لمح الفتاة مسلوب الحول طائر اللب ...

دولت - فوزيه . .

فوزيه - فولهت الابن بالفتاة ! جعلت الولد يجن بالفتاة التى جن بها أبوه !

دولت - ماذا تقولين ؟

فوزيه - اجل إن من تحبه حوريه هو ابن زوجى ! أتفهمين

دولت حسن؟!

فوزيه - نعم

دولت - كان ذلك بواسطتك؟

فوزيه - بل بارادتى !

دولت - وضعت الابن تجاه الأب ؟..

فوزيه - والأب تجاه الابن ...

دولت - لتنتقمى من زوجك وتمنعى زواجه

فوزيه - هو ذاك

دولت - ولكن ماذنب حسن ؟ اغاب عن ذهنك ان هناك سرا فظيعا وان لو شاءت المقادير وتزوج حسن بحورية ثم عرف ذلك السر فقد يفضى به الامر الى . . . أنسيت أن لحورية صلة برياض بك وانك تدفعين بحسن بك الى حبها مخفية عنه حقيقتها ؟ لو كنت مكانك لما سمح لى ضميري ...

فوزيه صارخة - آه وماذا يهمني من حسن أو حورية او فاطمة او زوجى أو

الجميع ، لقد طالبت بحقي فى السعادة . فى الحياة . فى العائلة . لا لنفسى بل لخدمة العائلة فانكروا على حقى فهل أعترف أنا لهم بحقوق ؟

دولت ـ تبنين سعادتك على شقاء الغير

فوزيه ـ كما بنى زوجى سعادته على شقائى !

دولت ـ ولكنكما زوجان

فوزيه ـ اذا صادف غريق فى بحر خشبة طائفة وقد تعلق بها شخص ما افيمنعه ذلك من أن يتعلق بها هو أيضا ولو هبط ذلك الشخص الى القاع ؟ ان الحياة لتدفعه للمحافظة على الحياة ! وليست تلك بجريمة مادامت الطبيعة تبيحها ..

دولت ـ انما نحن نبيحها باسم الطبيعة

فوزيه ـ فليكن ! اتريدين رؤية قلبي ساطعاً لايحجبه من المراءاة قناع . هاهو . انى أبغض حسن واخته كما أبغض حورية الاول والثانية لانهما يغتصبانى زوجي ويذكرانى بماضيه ، والثالثة لانها أجمل منى وقد تحل فى الغد مكانى !

دولت ـ ولكن الاتخشين من أن زوجك اذا علم برغبه ابنه فيها قد يعترف له بماضيها ...

فوزيه ـ انه لا يعرف عنه شيئا

دولت ـ واذا دارت الدائرة عليك ..

فوزيه ـ أكون قد أبعدتها عنه فاذا طلقنى بعد ذلك عقاباً ذهبت على الأقل مرتاحه !

دولت ـ اما أنا فانى منسحبة وكأنى لم أسمع شيئاً ولو أن ضميري قد بدأ يؤنبنى ...

(توصلها فيدخل حسن فتعود هى)

المشهد السادس

فوزيه . حسن

فوزيه منقلبة وقد أخفت مؤثراتها تبسط فى الكلام جهدها ـ إيه ياحسن ارأيتها ؟ .. ارأيتها جيداً ؟ .. أم مازلت فى حاجة للطواف حول منزلها و سؤال البوابين عن أخيها وهل خرج معها كى تطير لفورك إلى المراسح و السينماتوغرافات باحثا عنها معللا نفسك بنظرة من نظراتها ؟ ...

حسن ـ لقد رأيتها ! .. رأيتها ... كنت أحدق فيها من خصاص النافذة بعينين مشدوهتين محمومتين و قد خفق قلبي و التهبت وجنتي و اصطكت مراشفي فابصرتها تنزل من العربة و تدنو من السلم ثم تصعد بيطء الى أن بلغت الباب وقبل أن تدخل حولت وجهها الى النافذة وكأن عيناها اخترقت عيني فرأيتها تحدق فى مليا ثم تنزع برفق قناعها الابيض ثم ترسل لى قبلة خرساء . بل قبلة ناطقة . . .

فوزيه ـ ماشاءالله كل هذا فى بيتى و على قيد خطوة منى . . .

حسن ـ كل هذا بفضلك، أنت ملاك حبي !

فوزيه ـ و لكن اختك فاطمة الم تكن بقربك حينئذ ؟

حسن ـ كانت بجواري تطوق بذراعها عنقى و تهمس فى اذنى : ما أجملها ! ما أجملها !

فوزيه ـ و بماذا كنت تجيبها ؟

حسن ـ لعمرى لقد نسيت وجودها تماماً . ولكن أجيبيني المتقل حورية عرضا لأى مرسح أو سينماتوغراف ستذهب الليلة !

فوزيه ـ ايه رجعنا للسينماتوغراف . .

حسن ـ لك أن تتحكمي فى ماشئت ولكن دعى المزاح

فوزيه ـ أنا الأصل ياولد..

حسن ـ ومن ينكر .. . أنت الأصل ... أنت السبب ... انت كل شيء. فقط أجيبيني. اماذكرتني فيماينكما ؟ ...

فوزيه تسر اليه ـ قالت لى إنها تحبك وانها رفضت من أجلك خطيباً جديداً وانهاتنتظر بفارغ صبر أن تخطبها الى أبيها وانها تفكر فيك وانها . . . (يسمع صوت تشجار في الخارج) أوه زوجى ... الباشا ... اذهب ... اذهب الى فاطمة وعد بعدحين ... اذهب ... اسرع ...

(يسمع صوت حلمى باشا وهو يصيح في الخادم)

حلمى من الداخل ـ ايه ... ايه ... قلتلك ألف مرة لازم تدهن المشمع بالبوية قبل ماأحضر بساعتين ... انت حمار ...

الخادم ـ ياسعادة الباشا . . .

حلمى ـ انت مغفل ... بهيم ... فاهم (يقترب الصوت)

(الخادم يكون قد اقترب من باب الصدر وهو يتقهقر ازاء الباشا ويرتعد قائلا)

الخادم ـ والله ياسعادة الباشا . . .

حلمى ـ اخرس ...

الخادم ـ معلهش ياسعادة الباشا

حلمى ـ اخرس ... امشى ... باللا .. (يركله بقدمه

(يخرج الخادم مهرولا ويتقدم الباشا)

المشهد السابع

فوزيه ، حلمى

(حلمى باشا كهل فى الثامنة والاربعين تقريباً ممتلىء الجسم عريض الاكتاف، مفتول الساعدين يحاول مااستطاع أن يكون (شيك) وتساعده فى ذلك آثار جمال قديم . هو خمري اللون جذابه، ذاتقاطيع دقيقة، اسود العينين

حاد البصر فى تفحص وسحر . اشاراته رشيقة الا أن فيها بعض خشونة المتمولين الحاسمة ... تثور أعصابه لاقل معارضة ... يضع نفسه فى مرتبة عليا ويريد ارغام الكل على الخضوع له وبالاجمال فهو الرجل الذى يعتقد ان أمواله تصرح له باتيان كل شىء .)

فوزية ـ ماذا جرى ؟ ماذا جري ؟

حلمى ـ جري انه لم يبق فى بيتى من يطيعنى . . حتى الخدم . حتى الخدم ما شاء الله .

فوزية ـ ولكن ماذا فعل احمد ؟

حلمى ـ كان يشتغل الآن بمسح المشمع وقد أغلق النوافذ فامتلأت الغرفة برائحة البوية فكدت أختنق . انه لحيوان

فوزية ـ ولكن . .

حلمى ـ مع انى أوصيته أمس بألا يفعل ذلك الا قبل مجيئى بساعتين إنه لمغفل .

فوزية ـ الحق على أنا !

حلمى ـ أنت امرته بذلك ؟

فوزية ـ نعم

حلمى ـ ولم ؟

فوزية ـ ظننتك ستتأخر كعادتك فى كل يوم جمعة

حلمى ـ انت غبية وهل أنا موظف حكومة ؟ أإذا اتيت فى ميعادى المحدد أكون مضطرا لاستنشاق تلك الرائحة الكريهة قبل أن أتغدى ؟ ألا تعرفين ميعاد قدومى ؟ ألا يمكنك تجنب ما يضايقنى ! أوكل مادخلت هذا البيت يجب أن أغضب وأصيح ؟ شىء عجيب !

فوزية ـ سعادتك . .

حلمى ـ على أنك منذ ما اخترعت تلك البدعة وانا لا أستطيع النوم فى حجرتى . . لا أستطيع النوم في مستنقع

فوزية ـ يا سلام . . .

حلمى ـ إنى أمنعك نهائياً عن استعمال ذلك الدهان لحجرتى . . .

فوزية ـ كما تريد

حلمى ـ بل أمنعك من شرائه بالمرة

فوزية ـ ياسلام . . .

حلمى ـ مصاريف لا معنى لها . . اسراف . . تبذير . .

فوزية ـ ماذا تقول .

حلمى ـ نعم مصاريف لا معنى لها . . ذلك الدهان وهذا المشمع وهذه الأوانى الفضية وهذه الورود المصطنعة (هازئاً) وهذه التماثيل الفنية وهذه الرسوم والطنافس وذلك الأطلس الذي تكسين به المقاعد بل هذا الثوب الأحمر الذى ترتدينه كل هذا الزخرف الفارغ لم أر منه شيئاً فى سراي أبى وهو من بدعك التي اشتريها بمالى ولم أمانع .

فوزية ـ ما اشتريتها لى وحدى

حلمى ـ اشتريتها لى أنا ، دعينى أضحك . . أهى من ضرورات الحياة ؟ وهل استفدت منها بشىء ؟ وهل هى تفيد . أمأكل هى أم ملبس !

فوزية ـ لا أعلم

حلمى ـ بالتأكيد ؛ بالتأكيد ، أنت لا تعلمين الآن شيئاً ولكنك عند طلب النقود . . .

فوزية ـ ماذا ؟

حلمى ـ تصبحين ولك لسان أطول منك

فوزية هازئة ـ صحيح

حلمى صائحا — أنا لا أمزح وسأعرف في المستقبل كيف أحاسبك على على ما تأخذينه منى

فوزية منفعلة — آخذه منك ؟ وما آخذ منك ؟ وما تنفق على ؟ وهل أنا أعيش هنا ؟ إن هذه الزينة ليست لك وقد ابتعتها بمال أخى لأحفظ مكانتك بين الناس ؟

حلمى — لم أكن فى حاجة لذلك

فوزية — نعم أنت لا تحتاج إلا لما يعود عليك باللذة الشخصية لذلك تنفق فى الخارج عشرة أضعاف ما تنفقه علينا

حلمى — وهل يجب أن أقدم لك كشفاً بمصروفاتى ، من ذا الذى أقامك وصياً على ؟ ألست حرا فى التصرف بثروتى ؟ إنك تعيشين هنا فى نعيم مقيم لا واجب ولا عمل ، لا هم ولا حزن ؛ تأكلين وتشربين وتمرحين ، فأى معنى لما قلت واى شىء تطلبين ؟

فوزية — أطلب اليك أن تخبرنى أين تسهر كل مساء حتى الساعة الثانية أين كنت ليلة أمس ، وقبلها ، وقبل ذلك

حلمى - ماذا يهمك ؟

فوزية - طبعاً ، ماذا يهمنى مادمت آكل وأشرب ، ماذا يهمنى أن تجيئنى بعد منتصف الليل سكرانا معربداً ، ما دمت آكل وأشرب . ماذا يهمنى أن تخدعنى مادمت آكل وأشرب ؟

حلمى - انك لوقحة

فوزية - أتظن ؟

حلمى - بل عديمة الادب والحياء

فوزية - ربما . .

حلمى - ولست أدرى من منا يجب أن يؤاخذ الآخر أنا أم أنت ؟ لقد

خرجت أول أمس بلا اذن منى ورافقت انصاف هانم إلى السينما مع أنى أمرتك بقطع كل صلة لك معها ...

فوزية ـ ولماذا ؟

حلمى ـ لان صداقتى لابن عمها قد انتهت ، ويجب على الزوجة أن تحترم عواطف زوجها ...

فوزية ـ نك لعاقل جداً..

حلمى ـ وفوق ذلك فانك كثيرا ما تخرجين وحدك غير آبهة لما أمرتك به من اصطحاب مربيتى على الدوام ..

فوزية ـ انى أشفق عليك ... وما تستطيع فعله مربيتك وجميع خدم السراى لو شئت؟ لو شئت أنا .. ولكنى لم أفعل ؟..

حلمى ـ هذا واجبك !

فوزية ـ وواجبك أنت؟

حلمى ـ ليست المرأة مساوية للرجل فى الحقوق

فوزية ـ أو بمعنى آخر ليس لها نفس واحساس ؟ وهكذا رضيت بك زوجا وقد فنى شبابك فى اثنتين من قبلى لتقتلنى فى اليوم الف مرة ، لأمسى مضغة بين أفواه عشيرتى ؟ أخلصت لك الود لتخدعنى ؟

حلمى ـ أخلصت لى الود ؟ .. من يدري ؟ انك امرأة ، وهل أنا مجنون لأثق بامرأة ..

فوزية ـ آه . إذن فأنت تخدعنى لعدم ثقتك بى ؟ تلك هى الحقيقة ! كان جزاء اخلاصى لك أن أسمع هذا الحكم منك ! عظيم ، أنت لا تستطيع اتهامى بالخيانة وفى الوقت نفسه لا تعتقد في الوفاء ، كيف تطلب منى بعدذلك أن أؤدى واجبى فأصون عرضك ما دمت تعتقد أنك تزوجت بحيوان ؟

حلمى ـ أجبرك على تأدية واجبك

فوزية ـ لا تجبر المرأة على شيء

حلمي ـ أوهام

فوزية ـ صدقني ، أن الزوجة التي تخلص لزوجها فيتهمها في اخلاصها بل ينكره بتاتا ، لينكر شرفها ، ينكر وجودها، يعرضها لثورة كبرياء مشؤمة تدفع بها للسقوط مختارة كي تجيئه في الغد قائلة : هأنذا الآن كما تريد :هأنذا بغيا وأنت السبب !

حلمي صائحا ـ اسكتي . اسكتي

فوزية ـ انك تثور إذ تتخيلني بين أحضان سراك فماذا أفعل إذ أتخيلك بين ذراعي غيري ؟ ماذا أفعل وانا موقنة بأنك لا تخدعني فحسب بل عازم على التزوج علي .. التزوج علي . أي حياة ترقبني ؟ أي ذل ؟ أي شقاء ؟

حلمي ـ أظن هذا ما كنت تريدين الوصول اليه ؟ أليس كذلك ؟ حسن جداً (صائحا) ولكنك امرأة وقحة ؛ امرأة تتطاول على رجلها ، ويعلو صوتها صوت سيدها وولي نعمتها ، أنت امرأة عاصية

فوزية ـ امرأة مسكينة !

حلمي ـ انك لاسعد حظا من أترابك ولو شئت لسميت لك عشرات منهن لا يتمتعن بخيال ما تتمتعي به أنت ...

فوزية ـ كلنا في الشقاء سواء

حلمي ـ الشقاء ، الشقاء ، أين هو الشقاء ؟ لماذا لا نعتقد بأننا سعداء فنكون سعداء ...

فوزية ـ كيف أعتقد بسعادتي والماضي ينهكني والحاضر يريعني ألست لآن على ميعاد ؟

حلمي (يهب) ـ على ميعاد (يهزها) على ميعاد ممن ؟

فوزية ـ من سري باشا

حلمى ـ كيف عرفت ذلك ؟

فوزية ـ من ابنته نفسها

حلمى ـ حورية ؟

فوزيه ـ انك لترتعش لمجرد ذكرها ، إن عينيك لتبرقان شهوة ومنى ، سوف يأتى والدها فتلقاه بوجه يطفح بشرا وشفتين مفغورتين بعبارات التمليق ثم تخطب اليه ابنته ، آه أبين يوم وليلة تنقلب الفكرة عملا والحلم حقيقة ولكن لا ، لا ، لن تفعل بى ذلك .. لن تنسى سنى زواجنا الاولى .. لن تنكر تضحيتى ، لن اكون فى بيتك من سقط المتاع .. لن تتزوج بحورية ، لن تتزوج بها ، اجبنى ، اجبنى .. اليس كذلك ؟ (تتعلق به فى تحبب رقيق)

حلمى يبعدها ـ واذا كان لا ؟ اذا كنت أشتهى تلك الفتاة لنفسى أفتغلين شهوتى ؟ أتدفعينى لاستباحتها قسرا فى حين أستطيع أن اجعل منها زوجتى ؟ هذا حق . هذا حقي أتفهمين ؟ . .

فوزية ـ وحق أنا؟ أيغيب عن بالك الى هذا الحد؟ أليس لى فى الاسرة حقوق؟

حلمى ثائراً ـ حقوقها؟ حقوقها ؟ من علمك هذه السفسطه؟ .. فى أى كتاب قرأتها وعلى يد من الهوانم تلقيتها ؟ . . أه صديقاتك نساء العصر المتبجحات الخارجات على كل شرع وقانون . . . هذه الكتب . . مرض البيوت . . النسائيات . . قاسم أمين .. سأمزقها . . ساحرقها . . آه ماأنت بالشىء المذكور لست إلا خادمتى ومربية أولادي . ليس لك حقوق ولا مشتهيات بل واجبات تؤديها كما يأمرك زوجك وولى نعمتك . الله . الله . كانت أمهاتنا وأخواتنا صالحات خاضعات فاصبحت زوجاتنا وبناتنا ملحدات فوضويات . .

فوزيه ـ أن ماتسميه فوضى ليس الا حق الحياة فى نبل وشرف؟ وهذا ما أطلبه أنا

حلمى بحقد ومرارة ـ أنت . . أنت . . أنت كابوس لايطاق . أنت

تضايقيني . أنت حجر عثرة فى سبيلى .. أنت جهنم حياتى وأنا أبغضك أبغضك أبغضك . .

فوزية ـ مرتمية منهوكة ـ آه

حلمى ـ سبع سنين من حياتى وهبتها لك وحدك . سبع سنين كنت فيها سلطانة بيتى تأكلين وتشربين وتمرحين. سبع سنين ظننتها مثمرة طاعة ووداداً وإذ بى أرى حقداً وفوضى .. إنك لامرأة جاحدة ، لهذا أكرهك ... لهذا سأتزوج عليك . . . .

فوزية ـ متوسلة ـ لن تفعل ذلك . . لن تفعل ذلك . .

حلمى ـ ومن يمنعنى ؟ من ؟

فوزية ـ فى أقصى حدود اليأس الذليل ـ أرضى بكل شىء ! احتمل ذلى وعارى وفضيحتى ! أطأطىء رأسى لتحل بى ماشئت ! لا أنبث بكلمة شكوى فقط دع هذا الزواج . . سأنكر وجودى، سأخنق عواطفي . سأمحو شخصيتى ساصيح بك اذهب الى عشيقاتك وخمرك . . اذهب واسكر وغازل وامرح على شرط ألا أعلم أو على الاقل ألا اؤكد اما أن أشعر فى كل ثانية أن هناك مخلوقا شرعياً . شرعياً . . يقاسمنى ما أنا أجدر به منه . . أبدا . أبدا .

حلمى ـ هذا ماسيقع فاختارى لك مايحلو . لست بالرجل الذى يلقي بزوجته على قارعة الطريق . انى أبقيك شفقة عليك وعلى ولدك . .

فوزية صائحة ـ شفقة على ؟ الشفقه . . . دائما الشفقة .

حلمى ـ ألا تريدين ؟

فوزية ـ لا أريد أن تتكرم على بالقوت ، لا أريد أن تشفق على .

حلمى ـ ماذا تطلبين؟ الطلاق إذن؟

فوزية ـ نعم أطلب الطلاق

حلمى ـ وابنك ؟

فوزية ـ يظل معى. أنت تتمتع بزواجك الجديد وأنا أعيش بجوار ولدي. وهذه عداله

حلمى ـ الولد لابيه . الولد لابيه .. أجل، تطلبين طلاقك لتصبحين حرة ؟ ليخلو لك الجو، افهم ذلك ...

فوزية ـ بل لانك تتزوج على ..

حلمى ـ وسأتزوج عليك !

فوزية ـ اشفق على

حلمى ـ وستظلين زوجتى !

فوزية ـ ارحمنى

حلمى ـ هذه ارادتى

فوزية مندفعة وهى لاتعى ماتقول ـ ولكنك ظالم. مستبد. همجى. متوحش.

حلمى ـ هاجما عليها ـ اخرسى. اخرسى

(يبدو حسن وفاطمة بباب الصدر)

وهذه أيضاً ماذا أتت تفعل هنا ؟ (يذهب اليهما)

فاطمه ـ بونجور يا بابا . حصل سوء تفاهم بينى وبين والدتى فجئت اليك ..

حسن ـ ان فاطمة يا أبى .. (يدخل الخادم فيسكت حسن)

الخادم ـ سرى باشا هنا بيسأل عن سعادتك

حلمى وقد اشرق وجهه ـ خليه يتفضل.. أهلا وسهلا.. ياللا ياحسن اخرج. اخرجوا كلكم .. اخرجوا، عندى موضوع خصوصى، ماذا أتيت تفعلين هنا. الى بيت أمك ... حالا الى بيت أمك. الى بيت أمها فلتعد اليه ... أخرجوا .. جميعاً أخرجوا .. (يدفعهم بيده)

المشهد الثامن

حلمى - سرى

حلمى - أهلا . . . أهلا وسهلا بالباشا .

سرى داخلا - نهارك سعيد ياسعادة الباشا . .

(سرى باشا هذا رجل بطين . ضخم الجثة . طربوشه أحمر فاتح . عابس الوجه لايضحك ولا يمزح مقطب الجبين دائماً رزين جدا . شامخ الرأس . محب للظهور ضيق الذهن يحتد لاقل شىء ويهدأ لاقل شىء)

حلمى - اتفضل . . اتفضل ياباشا . .

سرى - تأخرت على سعادتك لانى كنت مشغول بحجز تذاكر لسباق هليوبوليس غدا . .

حلمى - أعرف انك من عشاق السبق

سرى - في اعتقادى أن ركوب الخيل فن جميل لايقل عن الشعر والتصوير والموسيقي جمالا وفائدة . .

حلمى بلا ريب . . (يخرج علبة العطوس) تنشيقه ؟ . .

سرى - كوكايين ؟ أنا ؟ أبدا من المستحيل أن أتعاطى الكوكايين

حلمى - ولكن .

سرى - لالا . . أنت عارف، أنا رجل أولا أخاف جدا على صحتى . وثانيا أحب المحافظة على مركزى في المجتمع ..وثالثا احترم نفسى ولا يسمح لى ضميرى أوه . . أبدا .

حلمى - ولكن ياباشا.. دي علبة نشوق بسيطة ..

سرى - نشوق.. أوه .. بردون.. ميل بردون، بكل سرور ياسعادة الباشا اتنشأ بكل سرور ..افتكرت أنها ..

حلمى - ماتبقاش تفتكر ..

سري - والله ياسعادة الباشا انت تعرف احترامى العظيم لك وتقديري شخصك واعجابى باعمالك الخيرية المنزهة عن الاغراض ومدحى لك فى كل فرصة أمام إخواننا الاعيان وبرهانى انى أقمت حفلة منـــذ أسبوع لصديقي ممدوح باشا وهو كما تعـــلم مرشح للوزارة فتحادثنا طويلا وذكرنا سعادتك فسألنى ممدوح باشا عن مسأله ...

حلمى - الكوكايين ؟

سرى - نعم فدافعت عنك

حلمى - (يضحك) ممدوح باشا يعيب على تعاطى الكوكايين. واللهعال اسمع .. اسمع يا سري باشا ، أتريدالوقوف على سر مدهش ؟

سرى - أخبار جديدة ؟ اتفضل . اتفضل

حلمى - سر مضحك وسخيف يختص بممدوح باشا نفسه .أصرح لك بأن تذيعه بين كل اخواننا

سرى - بالتأكيد . تكلم تكلم

حلمى - أتعرف نجل ممدوح باشا ؟

سري - اسماعيل بك ؟ انه صديقي

حلمى - من فضل سعادتك انه صديق رياض بك

سرى - رياض بك ؟

حلمى - نعم المتعهد الكبير لبيع الكوكايين فى شارع عماد الدين .

سرى - ايه ؟ . إيه ؟ .

حلمى - انتظر . ان اسماعيل بك يشترى الكوكايين من صاحبك رياض بك لنفسه أولا . ثم يذهب إلى شقيقه حسنى بك فيعرض عليه البضاعة بحساب الجرام جنيه مصرى ثم يحول الدفة إلى والده المحترم ممدوح باشا فلا يتنازل له إلا عن ٢ جنيه ثمن الجرام لانه يعلم ان ممدوح باشا يخاف الفضيحة ولا يشترى من الغريب .

سرى ـ لا لا ياحلمى باشا أنا لا أظن .. الى هذه الدرجة ؟

حلمى ـ ياعزيزى الكوكابين على المودة وكلنا في الهوى سوا

سري ـ أنا لا أسمح للناس باهانة أصدقائى ياسعادة الباشا

حلمى ـ وكيف سمحت لهم باهانتى أنا ؟ انك تصدقهم حين يتهمونى ولا تصدقنى حين أتهمهم

سرى ـ لا مؤاخذه .. لامؤاخذه ياسعادة الباشا لقد فاجانى بهذا السر فاخذت على المسالك .. سبحان الله وهل أنا من أولئك الناس.. انسى خدمات سعادتك، انسى معروفك! أنسى الصداقة! معاذ الله لقد دافعت عنك بقوة وقلت لممدوح باشا مع أنه صديقي الحميم ومرشح للوزارة انى لا اسمح للناس باهانة اصدقائى

حلمى ـ أشكرك أنت عند موضع ظنى بك

سرى ـ وقلت له ايضا ان رجلا مثل حلمى باشا نطالع اسمه على صفحات الجرائد كل يوم تقريباً رجلا اخترته انا سرى بك على ماهو معروف عنى من الدقة فى معرفة الرجال ليكون شريكا لى فى عملى ، رجلا ...

حلمى ـ ماذا ؟ ماذا تقول ياسرى باشا؟ شريكا لك .. پردون انى لا افهم

سرى ـ وهل يغضب هذا سعادتك ؟ ...

حلمى ـ بالعكس ... سيجار ؟ ...

سري ـ مرسى .

حلمى ـ آخر علبه وصلتني من هولانده (يشعلها له) وبعد ؟ تفضل بالكلام أنا مصغ اليك ..

سري ـ والله المسأله ...

حلمى ـ بسيطه جدا .. انا عارف ... كمل كمل ...

سري ـ المسأله ياباشا ... المسأله ..

حلمى ـ اتفضل

سرى — عندى اقتراح .. اقتراح ربما يعود عليك بربح يفوق ماربحت فى المضاربات الاخيرة

حلمى — ياسلام ...

سري — اؤ كدلك...

حلمى — عال ... عال ... اتفضل...

سرى — سعادتك تعرف مقدار ثروتى وتعرف انى خسرت فى القطن فى العام الماضى ماينوف عن الخمسين الف جنيه ثم استعدتهم فى المضاربات الاخيرة وبدأت اشتغل فى الاخشاب

حلمى — نعم واعلم ايضا انك صادفت نجاحا في اول الامر ...

سرى — ولم ازل والحمد لله ..

حلمى — الحمد لله ... وبعد ؟ ...

سرى — ان الاسعار ارتفعت ...

حلمى — اهنئك

سرى — وبعت بأثمان لم اكن احلم بها ..

حلمى — انشاء الله دائما ...

سري — ولكنى مع ذلك غير مسرور ..

حلمى — ولماذا ؟

سرى — لانى أريد ان اكون يوما فرداً ممن يسمونهم اصحاب الملايين

حلمى — اوه واظن انك تريد لذلك ان اضم ثروتى إلى ثروتك فى نفس العمل

سرى — ثروتك ؟ لا . وهل اناوضعت ثروتى كلهافى هذا المشروع؟ ابدا والمشروعات الاخرى ؟ . . انناإذا اشتركنافى وضع رأس مال قدره مئة الف جنيه لابدان نربح بعد السنة الأولى ثلاثة اضعاف ماوضعنا ..

حلمى – ان ٥٠ الف جنيه مبلغ زهيد . . .

سرى ـ وهذا ماأقوله . . .

حلمى ـ زهيد جدا

سرى ـ بالنسبه لثروتك . . .

حلمى ـ وقد لااستعيد منه مليما واحداً . . .

سرى ـ ماذا تقول ؟

حلمى ـ انى افترض

سرى ـ لالا . . . الم اربحانا ؟ وهل انا مجنون لاعرض اموالى لمشروع سخيف . . . الاعرف السوق . . .

حلمى ـ اتضمن لى هذا المشروع ؟

سرى ـ وهل اضمن حياتى ؟ ان التجاره جرأة ومخاطرة . . .

حلمى ـ انالا اريد ان تضمن لى الربح بل سير المشروع . .

سرى ـ وكيف ذلك ؟ . . .

حلمى ـ الاتفهم ؟ . .

سري ـ لا . .

حلمى ـ محدقا فيه ـ أتؤكد لى ان ليس عليك ديون ؟ مالك ترتجف

سري ـ انا ؟ انا ؟ يستحيل . سوف أطلعك على الدفاتر . . الدفاتر كلها . . سوف

حلمى ـ الدفاتر ؟

سرى ـ نعم الدفاتر

حلمى صائحا ـ التى تثبت ان ليس عليك ديون ؟

سري ـ بالتأكيد

حلمى ـ (هائلا) سرى باشا انت كاذب !

سرى ـ ياسعادة الباشا

حلمى ـ اسكت تعال تعال (يقوده الى المرآه)

أنظر . إن وجهك يشتعل . . صدرك يعلو ويهبط . . يدك ترتعش . انت على شفا الافلاس !

سري يسقط على المقعد خائراً _ آه

حلمى ـ وقد تصبح فى الغد لصاً مجرماً . . اليس كذلك ؟ . . أجب ؟ . .

سرى ـ نعم

حلمى _ لقد وفد الى دائنوك بالأمس راغبين فى بعض الاستعلامات عنك فادركت . . . أيها التعس أيها التعس و تأتى هنا لمخادعتى ؟ . . للتغرير بى ؟ . . أنا صديقك المخلص . . . بدل أن تتقدم الى بكل صراحة وثقة و تأمرنى بمساعدتك . . . نعم تأمرنى فهذا واجبى ويجب أن اؤديه . . .

سري في صرخة فرح ـ واجبك ؟ واجبك ؟ اذن ستنقذنى . ستنقذ اسرتى . . بنتى المعبودة . . . ولدي المسكين . . . امرأتى الشقية . آه كم أنا صغير فى عينى نفسى الآن !

(يدخل الخادم بالشاى)

حلمى يقدم له فنجالا ـ اتفضل (يشير للخادم فيضع الصينية ويخرج) على مهلك . . . على مهلك . . . الشاي سخن . . . (وهما يشربان) والمبلغ ؟

سرى ويده ترتجف _ المبلغ ؟

حلمى ـ نعم كم تطلب ؟ . . كم تبلغ ديونك ؟ . . .

سرى ـ ديونى ؟ (ينظر اليه غير متأكد)

حلمى _ نعم نعم . ديونك

سرى ـ بصوت خافت _ ٣٠ ألف جنيه !

حلمى ـ ٣٠ ألف جنيه مبلغ جسيم . . .

سرى ـ جدا . . .

حلمى ـ وميعاد التسديد . .

سرى ـ يوم السبت ...

حلمى ـ ياسلام بعد أربعة أيام

سرى ـ نعم

حلمى ـ حسناً

سرى ـ لن أنسى لك هذا المعروف ياحلمى باشا

حلمى ـ سوف نرى

سرى ـ وتأكد انى لابد أن أسدد لك دينى فى الموسم المقبل

حلمى ـ أواثق أنت ؟..

سرى ـ كل الثقة

حلمى ـ واذا لم تفعل

سرى ـ لك أن تجرى الحجز على ممتلكاتى

حلمى ـ أمثلى يفعل ذلك يا سري باشا

سرى ـ وأنا لا أقبل بغير ذلك ياحلمى باشا

حلمى ـ عندى حل آخر

سرى ـ على شرط أن لا يمس بكرامتي ...

حلمي بشوفه ـ وهل كنت محتفظاً بها حين أردت مخادعتى؟...

سري ـ آه ماهى شروطك ؟

حلمى ـ شروطى ؟ أراك متأثرا ...

سري ـ ألبتة ...

حلمى ـ دع هذا لوقت آخر

سري ـ أرجوك بل الآن .

حلمى ـ نعم نعم فلننتهى في المسألة حياة عائلة باسرها ...

سري ـ هو ذاك ... اذن ؟ ...

حلمى ـ سأمدك بالمبلغ ... بالمبلغ كله ... أسامع .. قبل ميعاد ... الاستحقاق ... وفوقاعن ذلك فسأتناز للك ...

سرى ـ تتنازل لى؟...

حلمى ـ ساتنازل لك عن عشرة ١ لاف جنيه وأبقي لنفسى الحق فى عشرين فقط ...

سرى ـ ماذا ... ماذا تعنى ؟ .. لاأفهم ...

حلمى ـ الموضوع بسيط...

سرى ـ ولكن مقابل أى شىء ستتنازل عن العشرة آلاف جنيه؟

حلمى ـ مقابل أى شىء؟ (يحدق فيه)

سرى ـ افصح

حلمى ـ أتريد؟ ...

سرى ـ نعم اسرع

حلمى ـ مقابل حورية !

(تمر ثانية والرجلان يحدقان فى بعضهمافيفهم سرى الغرض فيصيح : آه ويهم بالانقضاض على حلمى باشا الا ان هذا يقبض عليه من كتفيه فى سكون ويدفع به حتى المقعد فيجلسه عليه وعينه فى عينه راسخاً كالطود)

حلمى ـ أريدهالى زوجة !

(يهدأ سرى شيئا فشيئا وتبدو عليه دلائل التفكير ثم يتمالك نفسه ويرفع رأسه الى حلمى متطلعا فيه باحتقار)

سرى ـ تتزوجها ؟ أنت ؟

حلمى ـ نعم وأصبح نسيبك

سرى ـ بضحكة صفراوية ـ نسيبى أنت ؟

حلمى ـ نعم أنا أنا

سرى ـ وهل تظن انى أريد قتل ابنتى بالقائها بين أحضان كهل مثلك

حلمى ـ لا تريد ؟

سرى ـ لا

حلمى ـ اذن فلتظل ابنتك حية ولمت أنت ! اذهب وانتحر يا عزيزي الباشا . اذهب وانتحر بسرعة فان تجد في القاهرة مجنونا واحداً يعطيك سلفية بثلاثين ألف جنيه

سري ـ أهذه هى الصداقة يا حلمى باشا ؟ ...

حلمى ـ وهل حلمت يوما بعرس لابنتك يدفع لها مهرا قدره عشرة آلاف جنيه وينتشلك أنت من وهدة الفضيحة ؟ .. يا عزيزى الباشا اغتنم الفرصة . . وإلا قلت عنك بحق انك مغفل !

سرى ـ لا ... لاأبيع ابنتى !

حلمى ـ ستبيع ورشة الاخشاب اذن ! ستبيع الفيلا الجميلة التى تتمتع بها عائلتك . ستبيع أثاث منزلك. ستبيع حلى امرأتك وبنتك . ستبيع نفسك للموت رخيصاً !

سرى ـ ولكنى لا أبيع ابنتى

حلمى ـ ولن تستطيع أن تجد لها زوجا غيرى

سري ـ كلام فارغ

حلمى ـ يا سري باشا اذا لم أتزوج بابنتك فستظل عانسا حتى تموت

سرى ـ ما تريد بهذا ؟

حلمى ـ (يهمس) رياض بك ... أنت تعلم انه لا يعيش الا من دخل الكوكايين وانه حين يكون فى حاجة للمال يقصد زبائنه فيتملقهم لينقدونه شيئا على الحساب .

سري ـ وأى دخل له بيننا ؟

حلمى ـ لانى اشتريت منه

سري ـ كوكايين ؟ وماذا يهمنى

حلمى ـ بل رسائل !

سرى ـ صائحا فى ذعر ـ آه سافل .. دنىء .. نذل ..

حلمى ـ اشتريت رسائل تطارح فيها ابنتك ذلك القواد الغرام . . . وسأطلعها لأول راغب فى الزواج منها وسوف ترى اما أن تكون لى واما أن أقتلها حسرة !

(فى هذه المرة ينقض عليه سرى ويتمكن من عنقه فيتخلص الآخر ولكن بعد جهد)

سري ـ أنا الذى يقتلك !

حلمى ـ يدفعه إلى الوراء ويصلح من ربطة عنقه فى هدوء ـ الاجدر بك الاتفاق .. تأمل فى المسألة من جميع وجوهها .. هناك الافلاس والخراب وهنا الغنى والحياة .. ان عملك هذا غير مخل بشرفك بل عليه صيانة شرفك . انى أحب ابنتك فزوجنى منها تأمن الفضيحة والعار . افعل ذلك من أجل امرأتك وابنتك . من أجل حورية كى لا تعيش فقيرة معدمة وهى بنت الرفاهية والعز .. أجب .. تكلم ..

(يقوم سري وهو مطأطىء الرأس ويذهب ببطء إلى الباب ويفتحه ليخرج)

حلمى ـ تذكر ان هذا آخر حديث بيننا وإنك ستقضى بيدك على حياتك وحياة أسرتك .. تذكر .. تذكر .

(يكون قد وصل إلى الباب فيلتفت ثانياً وينظر إلى حلمى طويلا ثم يتقدم اليه بالرغم منه مدفوعا بقوة لا سلطان له عليها)

حلمى ـ أقبلت ؟ . أرضيت ؟ . . تكلم

(سرى يحنى رأسه علامة الايجاب فتبرق أسارير حلمى)

حلمى بفرح عظيم ـ آه أنا الذي يشكرك الآن .. من صميم قلبى .. لوتدرى كم أحبها .. لا بد أن تمر بى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر لكتابة الاتفاق . .

كم أنا سعيد . سعيد جدا ؟. هات هات ايدك . مالك مكتئب ؟. مش مبسوط ؟. يادين النبي . (صائحا) والله والله والله لاجهز بنتك أنا من جيبي . وأعمل لها فرح لا قبل ولا بعد . أربعين ليلة وليلة . وأجيب الصرفية كمان . علشان ترضى عني بس . (وهو يصافحه) ياصديق . يا عزيزي سري باشا . ياصهري الكريم . يا حماي المحترم !

(يظل سري كالمبهوت وتنزل الستار)



الفصل الثاني

(نفس المنظر بعض الكتب على منضدة صغيرة)
(حسن يخطر جيئة وذهاباً وفى يده وريقات يقرأ فيها ويصحح)

المشهد الاول

حسن ـ أهلا وسهلا فؤاد بك (يتصافحان)

فؤاد ـ ماذا كنت تقرأ ؟

حسن ـ شذرات من كتابى « الربيع يتأمل »

فؤاد ـ أنا لا أفهم لماذا تريد أن تسافر الى أوروبا مثلى سعياً وراء الدكتوراه في الفلسفة ولك هذا النبوغ فى الأدب ؟ . . .

حسن ـ ألمثلك يقال ان الأدب والفلسفة عنصران لجسم واحد

فؤاد ـ الحق معك . . . لقد أتيتك بالكتاب الذي أوصيتنى به . هاهو . (مدام بوفارى) لجوستاف فلوبر؟ أليس كذلك ؟

حسن ـ اوه . مرسى

فؤاد ـ عظيم ولكن اين كنت طول هذه المدة ؟ . . أربعة أيام . . أربعة أيام لا أراك فيها . . . لا فى القهوة ولا فى السينما ولا فى التياترو حتى ولا هنا ؟ . . أين كنت ؟

حسن ـ كنت ! . . كنت منزوياً في مكتبي لا يدخل علي أحد ولا أستقبل أحداً أحاول انجاز كتابى

فؤاد ـ لا أصدق

حسن ـ نعم كنت أشتغل بينما كنت انت تهمل محاضرات الجامعة و رسالتك فى (الفلسفة الوضعية) لتتعلم على يدي صديقك الجديد مصطفى بك . كيف

تقضى سهراتك فى البانسيونات الفرنجية والمواخير البلدى

فؤاد – آه هذا هو سبب احتجابك إذن ؟

حسن – لا . ولكن ألد أعدائى هو ذلك المصطلح الشائع بيننا مصطلح الأرواح الراكدة أى قتل الوقت وأنت قد بدأت تولع به . .

فؤاد – أنا ؟ لا تظن ياعزيزي. لاتظن . . .

حسن – بل لا تبسم أنت ، لا تبسم . انك تشبهنى يافؤاد لو تعلم . . كلانا من أولئك الافراد الممتازين الذين أعدتهم الطبيعة لعظائم الأمور فوهبتهم حرارة فى التفكير قبل أوانها ونضوجاً فى الذهن قبل استكماله ثم شفعت ذلك بميول ثائرة ملتهبة ووجدان يود لو أنه يحس بما يضطرب فى أرواح الناس جميعا . . .

فؤاد – أجل هذا أنا وتلك هى نفسى !

حسن – ولكن هذا المزاج وا أسفاه ينحر الارادة نحراً بتركه العقل طعمة للعاطفة .

فؤاد – ولكنى لست بالحساس الأعمى

حسن – ستكونه فى غد إذا أنت واليت مصطفى بك . . . ستتداعى اعصابك فيجف ذهنك فتموت أعمالك فى أمل طويل !

فؤاد – محال . تلك خلجات وقتية أشبع بها مخيلتي ولا تشغل بها روحى أكثر مما تشغل روح الشاعر بما فى قاع المحيط . .

حسن – انما تندس العاطفة المجتاحة فى المركز اللاتنبهى منا أيها العزيز...

فؤاد – ماذا تعنى ؟

حسن – ان مدام بلانشار تحبك !

فؤاد – قالت لى ذلك اذ رأتنى لثانى مرة في البانسيون . . .

حسن – مع مصطفي بك ؟

فؤاد ـ نعم . ولكن من يصدق بغيا ؟

حسن ـ أنت !

فؤاد ـ أوه . أوه

حسن ـ انك تحاول أن تصدقها ارضاء لكبريائك ولذتك ولأنه يعز على كل شاب أن يتخلى عن امرأة تهب نفسها له ...

فؤاد ـ لا لا . أنك لم تحسن النظر فى هذه الناحية من نفسى . لقد اتخذتك قدوة لى من زمن بعيد ياحسن . انت تشغل ذهنك ما استطعت لتكبح جماح شهوتك وتسير احساسك في سبيل قويم وهكذا افعل أنا ...

حسن ـ انما قلت ما قلت مدافعا عن أعز مخلوق لدى

فؤاد ـ فاطمه ؟

حسن ـ أجل . أتقى اليوم لاجئة مستنجدة !

فؤاد ـ ممن ؟

حسن ـ من أمها

فؤاد ـ تريد أن تزوجها بالرغم منها ؟

حسن ـ هو ذاك

فؤاد ـ برياض بك ولاشك ؟

حسن ـ نعم

فؤاد ـ ابن زوجة عمى . . . تاجر الكوكايين النبيل في شارع عماد الدين من أقربائى . من أقربائى أنا . ذلك المخلوق الدنىء الوقح الذى قوضته المخدرات واحالته هيكل عظام نخر . . يتزوجها هو ؟ يستحيل . . يجب أن تمنع ذلك بكل قواك !

حسن ـ إنه صديق أبى وقد يحقق رغبة زوجته القديمة فيزوج ابنته منه وحينئذ كيف يمنع الابن مايقرره الوالد والوالده ؟

فؤاد - إذن فسأمنعه أنا

حسن - أنت ؟

فؤاد - سوف ترى

حسن - ومدام بلانشار ؟ . .

فؤاد - مدام بلانشار ؟ ! . .

حسن - أليست عشيقتك ؟ أعترف . اعترف الآن . لم يعد للنكران سبيل . انت تحبها وتنسى الماضى تنسى ماتعاهدنا عليه من أن تكون أختك لى واختى لك تنسى كل ذلك فى احضان الاجنبية مدام بلانشار !

فؤاد - لأن امرأة كتلك ليست جديرة بالحلول محل فاطمه سأهجرها ثم أبر بوعدي

حسن - إذن فانت عشيقها ؟

فؤاد - ربما

حسن - أنت ؟ أنت ؟

فؤاد - ماذا تريد أنك لا أدرى منى بما يولده جمال البغايا فى النفس من نازعة شهوية وقتية تأخذ على الذهن مسالك التفكير فتعنو لها الاعصاب

حسن - استمع لى. أنا عازم على محادثة والدك سرى باشا . ساخطب اليه أختك حورية فى القريب العاجل قبل مبارحتنا مصر الى أوروبا

فؤاد - كذلك أنا. وقد اخطب فاطمة اليوم اوغدا وأكبر ظنى انى سأتغلب برضاها وموافقتها على تأثيرات رياض بك . أما هو ؟

حسن - دعه وشانه سوف يتخلى عنه اى يوم ان تصيبه اول نوبة من نوبات الكوكايين

فؤاد - ولكنى قبل ذلك سافهمه أنى راحل وأن رجائى اليه هو الا يكثر من زيارته عائلتى فى غيابى

حسن ـ تحسن صنعا

فؤاد ـ وسانصح حورية بتجنب معاشرة أخته شمس هانم

حسن ـ وهل هى صديقتها ؟

فؤاد ـ نعم

حسن ـ وتظل ساكتا ؟ ان رياض بك يتصيدكل صديقات اخته واذا وقعت حورية بين يديه فان يرعى للقرابة حرمه . يجب ان تقطع كل صلة بين شقيقتك وشقيقته

فؤاد — سافعل بعدان احادثه هو

حسن — بل انت فاعل الساعه

فؤاد — كما تريد

حسن — بل الآن

فؤاد — ما اشد حبك لها

حسن — بل ماأشد فعل الميكروبات التى تستنشقتهاشمس هانم ملء رئتيها فى جوحياتها . ان فيها الكفايه لقتل مجتمع باسره فكيف بفرد ساذج ضعيف كاختك . هيا اسرع واعمل بنصيحتى ولاتنسى اعداد الباسبور . اننانسافر بعدغدا اليس كذلك ؟

فؤاد — نعم . اطمئن . ساكون على تمام الاستعدا . اوريفوار (يقف عند سماعه صوت رياض بك)

رياض من الداخل — البك هنا يا احمد ؟

احمد — ايوه ياسيدى ومعاه فؤاد بك

رياض — عال . عال جدا . .

فؤاد — اثناء ذلك — رياض بك ! . . اوكذلك انه فى حاجة لنقود . .

سوف نرى

حسن ــ انتظر (يتقدم الى الباب) اتفضل يا بك

(يدخل رياض بك . هوشاب انيق جداً من اولئك الذين تغتفر لهم المرأة كل شيء ذو جمال وقح جريء وصوت نسائي عذب يملأ بالغرابة ذلك الجمال تقاطيعه الدقيقة تستدق الى حدالهزال بفعل الكوكايين والسهر والعربدة . عيناه السوداويان الغائرتان تنتهزان الفرصه للايقاع بك . أنفه المعتدل المستقيم يخدعك بنبله . شفته الغليظة السفلى تتدلى من اليسار فى حقد ومرارة وشهوة . وجهه البديع تنهال عليه الغضون والصفرة والشحوب فلا يزداد إلا اجتذاباً وسحراً . يجب أن يخدش بالاظافر أو يجتاحه مرض جلدى ليمسى بشعاً . أما أخلاقه فالوقاحة مع النساء والتأدب الى حد الاستعطاف الذليل مع الرجال . لايعتقد بان له كرامة مادامت له غاية يسعى لتحقيقها)

المشهد الثانى

مذكوران ــ رياض بك

رياض ـ بونسوار يابهوات . أنا سعيد الحظ جدا بوجودكم هنا . بحثت عنكم ساعتين من سولت لجروبى للنيوبار لليبتون .

حسن ـ خير انشاء الله .

رياض ـ والله . . .

حسن ـ نعم ؟

رياض ـ المسألة بسيطة جدا تذاكر تياترو (يخرجها)

فؤاد ـ فاتورة جديدة

حسن ـ شيء جميل

فؤاد فى سخريه ـ ليله خيريه مش كده

حسن ـ دائماً

رياض ـ دوكده

فؤاد ـ وتحت رعاية مين من بشوات البلد ياسى رياض ؟

رياض ـ تحت رعاية فؤاد بك . تحت رعاية سعادتك

فؤاد ـ أنا ممنون جدا الله يخليك ياسى رياض

رياض ـ الله يخلى مدام بلانشار ياسيدى

فؤاد منفعلا ـ من فضلك ؟

رياض ـ مش قصدى . . . ارجو عدم المؤاخذة . . . المسأله . .

فؤاد ـ أرجوك .. أرجوك ياسى رياض . احترم نفسك

رياض ـ محسوب سعادتك

فؤاد متهكما ـ العفو يابك

رياض ـ ياسلام هو أنا أنسى . أنسى الجميل ياحسن بك ؟ أنسى الايام اللى كنت فيها ماصرفش مليم من جيبى

فؤاد ـ مفهوم . مفهوم

رياض ـ انسى الشيك بميت جنيه اللى خلصتني به من السجن ورفضت استرداده ؟ والله لا أدرى باى طريقة أشكرك

فؤاد ـ لاشكر على واجب

رياض ـ حفظتم يابك و أنا أقدر شهامتك قدرها ولولا أنى متأكد من شريف عواطفك ما كنتش اقصدك أبدا

فؤاد ـ أظنك محتاج لفلوس ؟

رياض ـ محتاج لتوزيع تذاكر مدام بلانشار لا غير

فؤاد ـ تذاكر مدام بلانشار ؟

رياض ـ لو تكرمت سعادتك بالقاء نظرة بسيطة على الامضاء المكتوب فى أعلى التذكرة . . (يناوله ورقة فيعيدها اليه توا)

فؤاد ـ اسمع ياسى رياض . انت تعرف انى مشغول باعداد نفسى للسفر

وان أوقاتى محدودة فاسمحلى . ما يمكنش . أنا أرفض التذكرة

رياض — ترفضها ؟

فؤاد — بكل تأكيد

رياض — ارجوك

فؤاد — يستحيل

رياض — ولكن . . . ولكن اذا كانت منى أنا ؟ . . .

فؤاد — منك انت ؟

رياض — نعم اذا كنت اشتريت الليلة بالاشتراك مع مدام بلانشار واذا كانت حالتى أصبحت عدم ماتساعدنيش واحنا قرايب ؟

فؤاد - اشتريت الليلة بالاشتراك مع المومس مدام بلانشار ؟ . .

رياض - ودفعت عربون لصاحب التياترو آخر ورقة بخمسة جنيه كانت فى جيبى . . .

فؤاد — مش حاجة فى استطاعة مدام بلانشار توزيع الصالة كلها على زباينها فى البانسيون . . . لازم تخدمك باخلاص . . هى نسيت انها كانت تحبك لحد الجريمة . لحد القنصلاتو . . يابختك ياسى رياض كل الاشكال دى واقعة فيك . . مركزك عال جداً عندهم . مع السلامة ياسى رياض . . مع السلامة . . .

رياض — والله مركزى حرج جداً يا فؤاد بك . . ولو اخفقت فى التوزيع لايمكنى أبداً الاشتراك تانى مرة مع مدام بلانشار ...

فؤاد — يعنى . . ناوى تعملها صنعتك ؟

رياض — بس أعمل ايه ما انت عارف

فؤاد فى سخرية — ارجع لبيع الكوكايين

رياض — واشترى الكوكايين بايه ؟

فؤاد — استلف من اخوانك

رياض — طيب سعادتك . .

فؤاد — لا يعنى مش غرضى . . والدتك غنية جداً وايرادها فى الشهر ميتين جنيه . .

رياض — والدتى تشوف الموت ولا تشوفنيش . . كل أموالها موضوعة تحت تصرف زوجها . . . عمك . . . وعمك طردنى من البيت بناء على طلبها هى . . .

فؤاد — ماعندوش حق كان لازم يسيبك تموت أمك وينسى انها امراتو .

رياض — يافؤاد بك أنا فى حيرة والوقت مش وقت هزار

فؤاد — وأنا اعمل لك ايه بس ؟ اشتغل ياسيدى . . نفتش لك على وظيفة زهورات فى الحكومة باربعة جنيه مادام معاكش ولا شهادة .

رياض — يافؤاد بك ارجوك . . التمس منك . .

فؤاد — اقبل التذاكر ؟ أبدا .

رياض — اعمل معروف

فؤاد — مش عادتى والله . .

رياض — أنا لاجىء اليك أنا معتقد بصداقتك وكرم نفسك

فؤاد — ماتتعبش نفسك .

رياض — رجاء صديق . رجاء خصوصى . رجاء اخ .

فؤاد — من العبث

رياض — خدمة ما أنساهلكش أبدا . .

فؤاد — اوه . اوه

رياض — شىء بسيط . لوج حريمى واحد لحرم الباشا وحورية هانم ٢٠٠ قرش بس . .

فؤاد — بكل أسف

رياض ـ وأنت ياحسن بك ؟]

حسن ـ شرحه .

رياض ـ وعليه فالتذاكر مردودة؟

فؤاد ـ هي بين ايديك ياسعادة البيه

رياض ـ ماكانش عشمي

فؤاد ـ أنا آسف جدا

حسن ـ وأنا متأثر للغاية

رياض ـ وأنا مغفل

فؤاد ـ استغفر الله

رياض ـ بونسوار ياهوات

فؤاد ـ بونسوار مون بين . . (يسير رياض إلى الباب متعثراً) ياسى رياض . كلمة من فضلك ٠ أظن انك لو حاولت تخفيف زياراتك عندنا أيام سفرى فتأكد ان الجميع يكونوا متشكرين لك جداً . .

رياض ـ كنت عازم على كده يا فؤاد بك . . أنا فاهم ...أنا أشكرك... أنا ممنون جدا

فؤاد ـ مع السلامه ياسى رياض.. بردون .. يارياض بك.. مع السلامه.. مع السلامه (يشيعه إلى الباب ويعود ساخطا)

حسن ـ أعوذ بالله

فؤاد ـ منتهى الدناءة والانحطاط

حسن ـ اذا كان أبناء البشوات على هذه الشاكلة ...

المشهد الثالث

مذكوران . فوزية

فوزيه ـ سمعت حسك يا فؤاد بك فجيت أسلم عليك

فؤاد ــ أهلا وسهلا .. انشاء الله مبسوطه .

فوزية ــ الحمد لله

فؤاد ــ كلفتنى والدتى بتبليغك سلامها وشوقها لزيارتك فى القريب العاجل . . .

فوزية ـ أهلا وسهلا البيت بيتها واحنا أخوات . فى أي وقت تتفضل . .

فؤاد ـ أشكر إحساساتك يا هانم

فوزية ـ تشير اليه بالجلوس ـ اتفضل . اتفضل . .

فؤاد ــ بكل أسف . أنا مضطر للذهاب بالنسبة لموضوع السفر . . . أستأذن . .

فوزية ـ مع السلامة

فؤاد ـ أوريفوار

فوزية ـ تروح وترجع بالسلامة

(فؤاد ينصرف)

المشهد الرابع

مذكوران

فوزية ـ يا سلام فؤاد بك مولع جدا بالسفر

حسن ــ بالطبع . كل شاب مصرى متعلم مولع بالسفر

فوزية ــ الا انت

حسن ـ لا سيما أنا .

فوزية ــ تحاول أن تخدع نفسك ولكنى أعلم بها منك

حسن ــ تظنين ذلك لانك امرأة . .

فوزية ـ الست صاحبة العاطفة التى تعيش الآن بها ولولم تكن موجهة

إلى ؟ . . . أنا التى خلقتها فى احساسك وخلقت احساسك بها فهل تنكر على صنع يدى ؟

حسن ـ كلا ولكن تلك العاطفة ليست كل حياتى وليس فى استطاعة أية مرأة اعتراض سبيلى . .

فوزيه ـ حتى أنا ؟

حسن ـ انت ؟ : أنت التى أيقظت وجدانى من سباته واليك مرجع سعادتى . أنت التى غافلتنى واستلبت منى عناصر شبابى . أحلامى . تأملاتى ، عواطفى . حواسى . ثم صغتها ونفخت فيها الروح فكانت حورية ! أنت التى اذا ما أتيح لى وقبلت فم حبيتى فيجب أن أقبل فى الحال يدك . أنت كل شىء ولكن مستقبلى قبل كل شىء !

فوزية ـ قبل حورية ؟

حسن ـ قبل الحب !

فوزية ـ اذن فانت لاتحب

حسن ـ الحب يسعدنى أنا وحدى أما نجاح مستقبلى فيسعدنى ويسعد الامة معى وعلى كل فالحب الصحيح يبنى ولا يهدم !

فوزية ـ من ذا الذى يضمن المرأة هجرها أليفها ؟

حسن ـ الحب القوى يزيده البعد قوة واذا نسيتنى حورية اعتقدت انها لم تحبنى .

فوزيه ـ أنت صارم للغاية . .

حسن ـ أنا أعبدها وأجل حبها عن تقويض مستقبلى

فوزيه ـ وهكذا لا بد من سفرك ؟

حسن ـ لابد

فوزيه ـ وإذا زوجوها فى غيابك بالرغم منها

حسن ـ حمدت القضاء لأنى لم أتزوج بامرأة ضعيفة

فوزيه ـ انت تطلب فى المرأة ما لن تجده هنا

حسن ـ إذا كانت حوريه أو أية فتاة مصرية لا تستطيع أن تثبت على عاطفة سنة أو سنتين نخير لها أن تتزوج ـ سنة الله فى خلقه ـ ممن يطلقها بعد شهر العسل . . .

فوزيه ـ انت فظيع !

حسن ـ أنا عادل !

فوزيه ـ أما هى ؟ . . .

حسن ـ أعتقد بحبها لى وأثق بأنك ستسهرين عليها حتى أعود ...

فوزيه ـ آه أما هذا فلا . . لقد جاوزت الحد . . . أنت تهزأ بى وإلا فكيف ترغب إلى أن أعد حورية مسؤولة عما يقع منها ؟ . . أهى زوجتك أم خليلتك ؟ أية حقوق لك عليها ؟ كيف تريد أن تثق بامرأة لم تربطك بها على الأقل صيغة شرعية بسيطة ؟ . . .

حسن ـ وهل أنا سخيف إلى هذا الحد

فوزيه فى لهفة ـ إذن ؟ .. إذن ؟ ..

حسن ـ سأخطبها إلى أبيها قبل رحيلى

فوزيه مشرقة ـ أهو كده . معقول جداً

حسن ـ أنا أخطب حورية وفؤاد بك يخطب فاطمة

فوزيه ـ ونعمل الفرح في ليلة واحدة

حسن ـ بعد السفر . . .

فوزيه ـ فاهمه ياسيدى . . . ولكن يجب أن تردد هذا العزم الأخير

على مسامع حورية نفسها. لقد طلبت إلى أن أصرح لها بالاختلاء بك لتتفاهما قبل رحيلك وأنا الآن فى انتظارها

حسن -- الآن ؟...

فوزية — نعم فعليك أن تودع فى نفسها الثقة وتبرهن لها على صدق عواطفك ...

حسن — سأراها ثم أذهب توآ إلى أبيها

فوزية - ولماذا ؟ إن سري باشا سيكون هنا نحو الساعة الرابعة والنصف انه على ميعاد من والدك

حسن - وبما أن أبى سيتاخر فى التيرو للساعة الخامسة ...

فوزية - فيكون عندك نصف ساعة تختلى فيها بالباشا فتعتذر له بالنيابة عن والدك وتحادثه فى الموضوع ...

حورية من الداخل — انت مبسوطه ياخالتى زكيه ...

فوزية - صوت حورية ... انتظرنى تحت في الصالون العمومى ولما تلمحنى نازله اطلع ... فاهم ... أخرج من هنا

(تدفعه من اليسار)

حسن مهرولا — تحت أمرك ... ألف شكر ... (يخرج)

المشهد الخامس

فوزية - حورية

حورية داخلة - بونسوار

فوزبة - ياميت ألف مرحبا ... (يقبلان بعضهما)

حورية تقع على مقعد لاهثه - أف ... (تنزع الفروة عن عنقها وتلقيها بعيداً وكذلك قفازها)

فوزية ـ مالك ؟ تعبانه ؟ . . .

حورية ـ على آخر نفس . . .

فوزية ـ الدنيا برد ؟

حورية ـ موت

فوزية ـ معلهش المشى يدفي . . . أعملك شاى ؟

حورية ـ مش ضرورى

فوزية ـ علشان تحمى . . .

حورية ـ مش وقته . . . والله ما كان لى غرض فى الزيارة دى . . . أكون هنا الصبح وأرجع بعد ساعتين . . . خايفه يفتكر إنى طايشه وخفيفه . . . ولكن الحق عليك انت اللى نادهالى . . .

فوزية ـ يا هانم بلاش تقول . . .

حورية ـ ان كان حبيبك عسل . . .

فوزية ـ ألحسو كله . . .

حورية ـ واعمل إ بعدين ؟

فوزية ـ تلحسى صوابعك وراه

حورية ـ انت رايئه للهزار

فوزية ـ ليه وانت مالك ؟ عين وزين ونغم طيب . . .

حورية ـ أوهام

فوزية ـ انت حزينه ؟

حورية ـ لو تعرفى . . .

فوزية ـ عارفه

حورية ـ ماأظنش

فوزية ـ أبقى غشيمه والعمله عملتى . .

حوريه — ولكن أنا مش مستريحه ..

فوزيه — وحياة عيونك رايحه أطمن بالك .. باذن الله

حوريه — أنت ؟

فوزيه — أنا ! صبرك على ... لحظه بسيطه ... (تخرج مسرعة فتنظر حوريه حواليها فيقع بصرها على المنضده فتتقدم اليها)

المشهد السادس

حوريه وحدها

حورية تقلب الكتب — كتب جديده .. كل يوم كتب جديده ... يحب كتبه أكثر منى ، ياخوفى ! .. (تسرح بصرها فيقع على الكونسول فتري عليه بضعة إطارات صغيرة فتهرع اليها وحالا تعرف صوره حسن فتتأملها)

حوريه ـ نعم هو ! . نشاط وأنفه ! جبهة عريضة . نظرة مشتعلة . أنف صغير مستقيم شفاه دقيقة غضبى .. ثم .. ثم طابع الحسن . . آه طابع الحسن . . (وتقبل الصورة فى شغف ويكون حسن قد دخل ووقف بجوار الباب ينظر اليها فى تأمل طويل فلما يراها تقبل الصوره يدنو منها فى شبه تهيج إحساسى محاولا بذراعيه المفتوحتين أن يضمها إلى صدره ولكنه يتمالك نفسه و يتراجع فتلتفت مذعورة فتراه فتقع منها الصورة على المنضدة وتطرق برأسها حياء وخجلا)

المشهد السابع

حسن — حوريه

حوريه — أنت هنا ؟ ! .

حسن — كل مطامع الشباب لاتساوي هذه اللحظة !

حوريه ـ أسكت ..

حسن ـ لا . كنت بالأمس أستحل السكوت؛ أما اليوم فلابد أن أتكلم تكلم وملء نفسي اليقين . اتكلم وقبلاتك تحرقني كأنما طبعت على خدي ! . .

حوريه ـ حسن . .

حسن ـ لم كل هذه المماطلات ؟ لم كل هذا التخبط أنت في المراوغة المفتعله وأنا في شكوكي الحيري ؟ . . أوكل ما تحاب شخصان امتلأ الجو حولهما بالالغاز ؟ . لما ذا نحاول الهرب من أنفسنا والعاطفة تبزغ من عيوننا كالشمس ؟ ! . أنت تحبينني وأنا أحبك ! . .

حوريه ـ عزيزي حسن . .

حسن ـ لا تنكري إذن ودعي لي هذه النعمه . أني لم أستلب منك اعترافا واحداً بحبي منذ ان صارحتك به للمرة الأولى . . في الاوبرا . . أجل . . أني لم أنس . . كنت تصفقين للرواية بكل قواك وقد اشترك وجدانك مع الاشخاص في الملحمة وهفت روحك من عينيك الى المسرح وكنت أحدق فيك البصر ملياً فالتفت بغتة فالتقت عيوننا فارتعشت أهدابك وسقط منديلك من يدك وحينئذ شعرت أنك شعرت بما قد انتاب روحي منذ أيام فاكتفيت وقمت لفوري فتأبطت كتابي وعصاي وخرجت !

حوريه ـ وفي اليوم التالى جئت الى هنا لتراني أو أراك وما كان أشد دهشي حين رأيت عمتك واقفه على كل شيء تشجعني على التمادي والاسترسال

حسن ـ وتقسم لك بعنفوان حبي الذي شب على يديها ونما

حوريه ـ فكنت أحملها السلام اليك . .

حسن ـ وكنت أحملها الشوق اليك . .

حوريه ـ وكنا نتبادل بواسطتها المواعيد التي نرى فيها بعضنا . .

حسن ـ آونه في التياترو . .

حوريه ـ وأخرى في السينما

حسن ـ ومع ذلك فقد كنت أحيانا قاسية القلب تقلدين نساءنا جهدك فتصنعين لتعذيبي تلك الرزانة المترفعة الحاقده المملوءة بالصد والاعراض الى حد التحقير والسخرية

حوريه ـ كنت أداعبك عن بعد ..

حسن ـ وهل كانت منك مداعبة يوم ان استقبلت رياض بك على مشهد منى فى مقصورتك فى السينما وجالسته نصف ساعة ؟

حوريه ـ كنت أجرب حبك . .

حسن ـ كنت تتمتعين بيقظة المرأة فى نفسك. كان كبرياؤك وحده يحبنى!

حوريه ـ لو لم أحس نحوك بشيء لما كلفت نفسى هذا العناء

حسن ـ ربما ولكنك تعمدت ألا تفضى إلى باحساسك لتؤلميني وتستذلين حبي وكأنى بك آسفة عما وقع منك الآن بالرغم منك

حوريه ـ أنا ؟ أنا آسفة ! . .

حسن ـ نعم

حوريه ـ لو تدرى مبلغ سروري . . انه يحبس لسانى عن الكلام.. انه يدفع الدمع الى عينى

حسن ـ حوريه

حوريه فى خلاعة ـ عينى. .

حسن ـ حبيبتى . .

حوريه تزداد ـ روحى . .

حسن ـ صحيح ؟ . .

حوريه ـ وحياه ربنا . .

حسن ـ أنا فى شك !

حورية ـ تحدق فيه طويلا ثم تبتعد وبدلال ونفور مداعب وصد خاطرك! (تجلس بعيدا)

حسن ـ صائحاً ـ أه انظرى . انظري . ها أنت تعودين إلى أعراضك المتغطرس . . .

حوريه ـ بالذمة . .

حسن ـ وسخريتك . .

حوريه ـ وايه كان ؟ . .

حسن ـ وخلاعتك !

حوريه ـ إن عجب . .

حسن ـ حرام عليك . انى أتألم

حورية متهكمة ـ كلام جد ؟ . .

حسن ـ فى ضحكة صفراء ـ لا بالطبع كلام فارغ !

(يسود الصمت ويقوم حسن إلى كتبه فيفتح أحدها برهة فتقوم هى ببطء مبتسمة فى أسى وتغلق الكتاب فى تؤده)

حوريه ـ الكتب عندك اعزمنى .

حسن ـ الحق عليك

حوريه ـ سامحنى !

حسن ـ أسامحك ؟

حوريه ـ لو شئت .

حسن ـ وإيه خطيئه إرتكبتها كى أسامحك ؟ أنت فى الباطن صافية السريره سليمه الطوية ولكنك ويا للأسف كسواك من المصريات لا تشفقين على من تحبين . .

حوريه ـ إذا فكرت فى حبك كثيرا خلقت من لاشىء أوهاما وخيالات

حسن - بل حقائق .حقائق راهنه ! المرأة المصريه ترى أن الرجل يستبدبها فتى أحبها عذبته ليظل فى قبضتها طويلا و أنت تفعلين ذلك

حوريه - أنت تتخيل ذلك

حسن منفعلا - أنا ؟ . . أنا أود تطهيرك من لوثات الوسط الذى تعيشين فيه ! أنا لم أحبك غواية تنقضى بالاستمتاع بى تسعين فى استرقاق حبى ليطول أمد سلطانك على ! يجب أن تكونى أرفع من ذلك . . كان عمل الجيل الماضى أن يزدرى المرأة جهده فيستغلها شهوة و يستوادها خلفا؛ أما عمل الجيل الجديد عملنا نحن فاحترام المرأة و تقديسها بوضعها فى مستوانا حقوقا و واجبات !

حوريه — كم أنت عظيم وجميل .

حسن - أحبك و أخشى ضياعك فى هذه البيئة ! أريد أن أطهر روحك بنار فكري ثم أخلق منك مثلى الاعلى ! أريد أن أشاهد فيك عملى فى الاصلاح مجسما حياً !

حورية مضطربة - كم أنا ضئيلة وحقيرة .

حسن - ذلك لخوفك من التفكير الذى لم تألفيه ! . . و لكنى سأدربك عليه . . سأقودك للينبوع الذي استقيته منه . سأعرفك بالعظماء الذين أعاشرهم سأرشدك إلى عالم المطالعة السحرى . بل سأعيرك أحب الكتب عندى فتقرأيه وتتأملين بنوع خاص فيما أشرت تحته بقلمى . .

حورية — نعم نعم وهكذا نوحد نفسينا

حسن — وهكذا أيضاً تملأين فراغ حياتك ، يثما أعود من سفرى !

حورية تتطلع اليه ممسكة بيديه — تسافر؟ لن تسافر. . . أبداً

حسن — بل سأسافر!

حوريه — لا لا . لن تفعل ذلك وفيك رحمة . . .

حسن — سأفعله

حوريه ـ وأنا ؟ ...

حسن ـ تنتظرين هنا كما أنتظر هناك

حوريه ـ بعيدة عنك ... بجوار أمى ... أمى التى لا تطيق أن ترانى فى الثالثة والعشرين ولم أتزوج ... إنى خائفة

حسن ـ . اطمئنى

حوريه ـ لا سبيل

حسن ـ بل اطمئني عزمت على أن أخطبك إلى أبيك اليوم

حوريه في اغتباط ـ ماذا تقول ؟

حسن ـ اليوم . إن سرى باشا على ميعاد من والدى وسوف يفد الآن

حوريه ـ أعرف ذلك

حسن ـ وسوف ترين .

حوريه ـ صحيح ؟

حسن ـ ما كذبت علك مرة فى حياتى

حوريه تتألم (وصوتها يتهدج) ـ آه ... ولكن .. ولكن ... يارب ... ولكنك سترحل ... ماذا يفيد كل هذا مادمت سترحل

حسن ـ أرحل نعم ولكن إلى أجل محدود ... سنتين على الأكثر أرحل على يقين من سعادتنا ... إنى لم أحادثك كل هذا الحديث إلا لأشجعك و تشجعينى فكونى عند ظنى بك وقوى عزمى

حوريه ـ أساعدك على البعد عنى ؟ ! لا أستطيع ... لا أستطيع ...

المشهد الثامن

مذكوران . فوزيه

فوزيه ـ أرجو عدم المؤاخذة ...

حوريه تهجم عليها و تقبلها ـ أنت حبيبتى أنت أختى أنت ..

فوزيه بابتسامة معنوية ــ كده كده ... سرى باشا فى الصالون والكارت أهيه ...

حسن ــ الباشا هنا ؟ . .

حوريه ــ بابا هنا ؟ . .

حسن بالباب ــ أحمد يا أحمد ... خلى الباشا يتفضل ...

فوزيه ــ اليوم يومك ياسى حسن اظهر وبان ياخويه عليك الأمان . .

حسن ــ ادخلوا ... ادخلوا فى مكتبي هنا ... من هنا يمكنكم سماع كل شيء ... ادخلوا ... (يدخلهم ويذهب من باب الصدر ثم يعود) (ويسمع صوته وصوت سرى باشا)

المشهد التاسع

حسن . سرى

حسن ــ أهلا وسهلا بسعادة الباشا ...

سرى ــ نهارك سعيد ياابنى

حسن ــ نهارك مبارك ياباشا

سري ــ والدك خرج ؟

حسن ــ أقدم لسعادتك اعتذاره بالنيابة عنه لانه . .

سرى ــ أوه عارف (يخرج ساعته) الساعه أربعة ونصف ... لازم هو فى التيرو . .

حسن ــ نعم ولكن بعد نصف ساعه يكون هنا . اتفضل . اتفضل سعادتك

سرى يخرج منديله وينظف به المقعد كعادته ثم يجلس ــ التيرو ... شيء جميل ... غيه لطيفه جداً وكان يجب على المحافظة عليها كعادتى فى كل غية عصرية ... التياترو والسينما والشطرنج والروليت والبكارا ... والسبق ... لا سيما السبق ...

حسن ـ أظن سعادتك تعرف أن فى نية فؤاد بك أن يتزوج بعد عودته من أوروبا؟

سري ـ أتذكر انه فاتحنى مرة فى الموضوع فاجبته أن الامر مستحيل قبل تزويج أخته وحصوله على الدكتوراه فى الحقوق.

حسن ـ وأنا من فكر سعادتك . ولكن ما رأيك فى أن مسألة زواج فؤاد بك مرتبطة بمسألة زواج المدموازيل حوريه .

سرى ـ مش فاهم .

حسن ـ الامر فى غاية البساطة .

سرى ـ اتفضل .

حسن ـ فى عزم ـ تعاهدنا فؤاد بك وأنا على أن يتزوج هو أختى فاطمة وأتزوج أنا . أخته حورية

سرى يرفع اليه بصره مبهوتا ثم يعرض عنه هازئا ـ أنت مجنون !

حسن كالمصعوق ـ مجنون ؟! . مجنون لانى أخطب اليك ابنتك ؟!

سري يهوله الامر ـ تخطب الى ابنتى ؟ أنت ؟ أنت ؟ . ماذا تقول ؟ اسكت انت ولا شك مجنون .

حسن ـ أنا لا أفهم .

سرى ـ كفي كفي انتهى بيننا الحديث ؛

حسن ـ ولكن السبب ؟ السبب يا باشا؟

سرى ـ هناك أسباب خصوصية . أسباب عائلية تحملنى على رفض طلبك

حسن ـ بهذه القوة . بهذا العنف . بهذا الاستنكار لا ياسيدي الباشا. لا . أنت تتملص منى . أنت تحاول اخفاء عذرك لانه ولا ريب يتعلق بى فافصح . أفصح ؟ تكلم . أرجوك التمس منك اتوسل اليك . آه ياسيدى الباشا لو تعلم . لو تعلم .

سرى مذعورا ـ وقد هالته عاطفة حسن الشديده ـ ماذا ؟ ماذا تريد

ما معنى كل هذه التوسلات الحارة ؟ أكنت تعلق الامل الكبير على هذ

الزواج ؟ أكنت على ثقة من وقوعه ؟ انت تتألم . احس بك تتعذب (صائح

وقد تحقق) انت تحبها !

حسن ـ نعم أحبها !

سرى ـ ولكنها لا تحبك ولن تحبك

حسن ـ يقيني بحبها كيقيني بحياتي الساعه

سرى ـ أعاهدتك على الزواج ؟

حسن ـ وعاهدتها !

سرى ـ بنتي ؟ بنتي تفعل ذلك ؟ ماذا تقول !

حسن ـ الحقيقة !

سرى ـ انت عشيقها ؟!

حسن ـ أنت تهينني !

سري ـ صرح . . صرح لابدأن تصرح . آمرك ولكن . ولكن . أ

رأيتها ؟ أين حادثتها . أين اجتمعت بها . هنا . هنا ولا شك . اليس كذل

تغافلني فتسطو على قلب ابنتي . تغتنم فرصة صداقتي لابيك وزياراتنا ل

لتغوي البريئة الساذجة .

حسن ملتمساً ـ ياسيدي الباشا اني لم أفاتح ابنتك بحبي الا منذ أسبو

فقط ولما ازمعت خطبتها أتيت توا اليك .

سرى ـ لن يكون هذا الزواج . لن يكون

حسن وعيناه تلمعان ـ اترفض اذن!

سري ـ أنا حر في التصرف بابنتي ،

حسن ـ حذار ياسيدي الباشا . اذ كنت تظن انك حر التصرف بابنتا

فلا تظن انك حر التصرف بى وانت الآن تحطم حياتى

سرى متضايقاً ـــ ماذا يهمنى

حسن ـ ولكنى أريد ان أعيش وستكون حورية لى . قبلت ام لم تقبل

سري - انجسر .انجسر

حسن ـ وقد جاشت نفسه ـ انا ! ! انا احبها الى حد العبادة . الى حد العبادة ! لاغنى لى عنها . انها بمثابة دمائى منى فدعها لى ودعنى لها ، بعد لحظة ، الا تجيب !اتصمت ! اتلوى بوجهك عنى ! الا تنثني

سرى ـ محال !

حسن صارخا ـ آه اذن فستسمع وسترى ! (مناديا) حوريه . . . حوريه . . . أين أنت ؟ . . . (ذاهبا ليفتح الباب) تعالى .. تعالى ... ادخلى داخلى . . .

(المشهد العاشر ـ مذكوران ـ حورية)

سرى يتراجع ـ هى هنا ؟!

حسن ـ أنه برفض . . . برفض . . . فحادثيه . . . رددي عليه ان زواجك من سواى مستحيل . . . قولى له انك لست بعشيقتى . . . اقنعيه بان وجودك الآن هنا . .

سري ـ هو الفضيحة . . . هو العار . . . (يجذبها من ذراعها بعنف) ماذا كنت تفعلين هنا ؟

حسن ـ ياباشا . . .

سري ـ يكفي ! . لى معك شأن آخر فى حضرة أبيك . . أما أنت أيتها الآنسه فسيرى أمامى . . .ستتفاهم فى بيتنا . . . سيرى . . .

حسن لحورية ـ تذهبين ؟ . . . على هذه الشاكلة . . . وأنا ؟ . . أنا ماذا يحل بى . ؟ (يتصدى لها ؟)

سري ـ الزم حدك ياحسن بك فذلك خير لك . .

حورية ـ أبى . لا أستطيع !

سرى محتداً ـ قلت لك سيري امامى

حوريه ـ وهو ؟ . . ماذنبه ؟ . . لابد أن أحادثك . لا بد أن أقنعك .

سري ـ ارفض بتاتا .

حوريه ـ اذن فاريد معرفة السبب . . أريد ذلك . قبل مبارحتنا هذه الدار . . .

سرى ـ أتريدين ؟

حورية ـ نعم

سرى ـ اذن فليسمح لنا بخمس دقائق . فليحتجب عنا . . واظن أنه لن يتسمع علينا خلف الابواب . . .

(حسن ينحنى ويخرج فيتفحص سرى باشا الغرفة فى نظره ثم يأتى اليها)

المشهد الحادى عشر

سرى ـ حوريه

سرى ـ اذا لم تعدلى عن زواجك به ارسلت اليه من ينبئه بما كان بينك وبين رياض بك ! . .

حورية فى صرخة هائلة ـ الا هذا ! . . ألا هذا ! . . انه يجن لو علم !

سرى ـ سيحرمه أبوه من ميراثه اذا هو اقترن بك يوما وعندئذ ما أنت فاعله ؟ انى استطاعتك الحياة فقيرة معدمة ؟ أفي وسعك الخروج على معيشه الترف والرفاهية والكسل التى ألفتها في بيت أبيك ؟

حورية ـ بالطبع . . انه يريد تزويجه من غنية تضارع ثروتها ثروته أما نحن فبالنسبة اليه . . أليس كذلك ؟ تكلم أجبنى . انه يرى فى الفتاة الطموح الماكرة التى عرفت كيف تصيد قلب ابنه وماله . . أنه يحتقرنى ؟ . . يبغضنى ؟ . . .

سرى ـ بالعكس

حورية ـ اذن ؟ اذن ؟

سرى ـ أنه يحبك

حورية فليهبنى اذن قلب فتاه

سرى ـ بل هو مستعد لاكثر من ذلك ..

حورية ـ كيف ؟

سري — مستعد .. لان يهبك قلبك هو . أتفهمين ؟ هو ..

حورية ـ كيف ؟ لا أفهم .. من ؟ هو ؟ .. هو ؟ ..

سرى — أجل

حورية فى رعب — يتزوجنى ؟ !

سرى — هو ذاك

حوريه ـ ماذا ؟ ماذاتقول ؟ أنا ؟ أنا ؟ زوجته هو ؟ حلمى باشا زوجى ؟ والد حسن ؟ والده .. (تخبىء وجهها) أحس بكثافة فى ذهنى وشرود .. الآن فهمت معنى تلك النظرات . هو يحبنى ؟ يريدنى زوجة له ؟ زوجة رابعة ؟ مستحيل ولو أدى بى ذلك لتوديع حسن والحاد شبابى !

سرى ـ وهكذا تفقدين كل شىء

حورية ـ إلا إحترام نفسى !

سري ـ وتفقدين أيضاً .. حياتى أنا .. العار والفضيحة والخراب فى انتظارنا جمعياً إذا أخفق هذا الزواج

حورية ـ فى استشعار واجفال ـ ماذا تقول؟

سري ـ انى على وشك الافلاس . الافلاس . أتسمعين ؟ وقد عرض على حلمى باشا أقصى المساعدات اذا أنا ..

حورية — إذاً أنت زوجتنى منه ؟

سري — نعم

حورية — (تهب ثائرة) ثم قبلت ! قبلت !..

سري ـ مرغماً

حورية — تبيعني حفظا لمركزك ؟!

سري ـ أنا لا أبيعك بل أشتريك وأمك وأخيك لو تعلمين

حوريه ـ نعم بتزويجي من والد من أحب ؟ والده ؟ هذا لا يكون .

سري ـ حوريه . فكري في المستقبل . فكري في أمك وأخيك .

حوريه ـ لا لا لا أستطيع

سري ـ وأنا أيضاً لا أستطيع ! لا أستطيع مشاهدة خرابي وذلي. أجدر بي الانتحار من رؤية نفسي مخلوقا تافها لم أكنه عمري .. لم أتعوده وليس في مكنتي أن أتخيله.

حوريه ـ لماذا تضيق على الخناق وأنت أبي ؟لماذا تجبرني على ما أكره ؟ أنت مجروح في عزة نفسك أما أنا .

سري ـ وقد عيل صبره يستخدم سلطانه الابوى ـ أنت فتاة كثيرة التصورات أفسدتك المطالعة . . كيف يروق لك أن نبأس بعد الرفعة ونستذل بعد الغنى ؟ كيف تضحين أسرتك لاجنبي عنك ؟ كيف تنسين أني أبوك وطاعتي واجبة ؟ يجب أن تقبلي هذا الزواج .. يجب . . يجب

حورية ـ صائحة ـ واذا لم أقبل .

سري ـ آه اذا لم تقبلي ؟!

حوريه ـ ماذا يكون . .

سري ـ ماشيا اليها وقبضتاه مرفوعتان ـ لابد أن تقبلي .. لابد أن تقبلي .

حورية ـ أضربني حتى الموت فلن أقبل !

سري ـ يلطمها على خديها صارخا ـ آه أيتها الجاحدة . أيتها . . (تحين

منه التفاتة فيرى حسن وقد وقف بالباب يرى المشهد مذهولا وقد جحظت عيناه)

المشهد الثانى عشر

مذكوران حسن

سرى – عن اذنك . أريد أن أمر . ساقابل الباشا فى وقت اخر . سيرى أمامى . . (تقوم حورية متحاملة على نفسها صامته واجمه)

حسن – ياسعادة الباشا

سرى في صرخه عصبية – يكفيك . يكفيك ما فعلت . . .

حسن – ولكنى أريد أن أعلم . . .

سرى – لاحديث بيننا . ستعلم كل شىء فيما بعد . . .

(حورية تسير فيهرع اليها حسن)

حسن – حوريه ؟ !

سرى – أمنعك بتاتا من التحرش بابنتى ومحادثتها فى أى وقت وأي مكان هيابنا . (يسير وتتبعه حوريه)

حسن – يتبعهما وصوته يتهدج فى التماس – حوريه ماذا جري . . . ماذاجرى . ؟

(وعند الباب حينما يراهما قد خرجا تخور قواه فيجهش بالبكاء صائحا كالاطفال)

حوريه ! . . حوريه ! . حوريه . ؟

المشهد الثالث عشر

(تدخل فوزية فما أن يراها حتى يهرع اليها)

فوزيه — حسن

حسن ـ ذهبت ولم أعرف السبب . هى أيضا لم تتكلم ... آه ذهبت .. ساقها الى بيته ليعذبها هناك بعد أن ضربها هنا . ضربها . شاهدته بعينى

فوزيه ـ تمالك نفسك واهدأ . سازوجك بها رغم الجميع ..

حسن ـ ولكن ذلك السر . لماذا رفض أبوها زواجنا ؟ .. لماذا ؟ .. أن حيرتى تأكلنى ..

فوزية ـ سأعرف السبب

حسن ـ كيف وممن ؟

فوزيه ـ من أمها ! من والدة حوريه . أنها تحبك وتتمنى زواجك بابنتها وسوف نتعاون سوياً وأنا الكفيلة بالنجاح

حسن ـ اذهبي اليها في الحال

فوزيه ـ . سأرتدى ثيابى وأخرج توا . (تخرج)

حسن ـ أشكرك أما أنا فساعلم جليه الامر من فؤاد بك من أخيها نفسه (يأخذ طربوشه ويندفع الى الباب فيسمع صوت فاطمه تخاطب دولت وهما داخلتان . يلتقي بهما فيفسح لهما المجال)

المشهد الرابع عشر

فاطمه — دولت — حسن

فاطمه — أظن عمى هنا. أدخلى ..أدخلى .. أوه انت هنا ؟ ..

حسن لهما — اتفضلو.. اتفضلو.. انا خارج ..

فاطمه — الى أين .. مابك ..! كنت تبكى ؟

حسن — الى فؤاد بك أطلب اليه مفاتحه أبيه فى موضوع رفضه زواجى من حوريه عله يعلم السبب .. أن الباشا رفض .. يرفض ولا يبدي عذراً

فاطمه — رفض ؟

حسن — ولقد كلفت عمتي بالذهاب الى منزله واستماله حرمه الينا وستفعل بعد أن ترتدى ثيابها .

فاطمه — ولكن كيف يرفض ؟

حسن فى يأس — هذا ما كان . عن اذنكم (يخرج مسرعاً)

المشهد الخامس عشر

فاطمه — دولت

دولت — ارأيت ؟ ألم أتنبأ لك برفض الباشا .. مسكين حسن ..

فاطمه — نعم ولكنك أنت أيضاً كتمت السبب . كتمته بحجة أنه سر صديقه عزيزه . لقد شاهدت عذاب أخى فاعملى لخلاصه

دولت — بودى أن أصارحك بما يثقل ضميرى ولكنى وعدت بالكتمان أنا بين وعدي وصوت ضميرى .

فاطمه — ثم تترددى في الى أيهما تجيبين . أنت الفتاة التى لم تحمل ضميرها وزراً قط ؟

دولت — اذا أنا تكلمت شقي حسن وشقيت صديقتى .

فاطمه — ولكن هو ماذا جنى ؟

دولت — ماذا جنى ؟ تلك هى الفكرة التى تعذبنى . انه برىء . برىء . لقد وعدتها بمساعدتى ، لكن ليس فيما يتعلق بحسن . انها تعذبه بوحشية وهى . هى الجانية .

فاطمه — من ؟ من هى ؟

دولت — ألم تحذرى؟ فوزيه هانم!

فاطمه — امرأة أبى ؟ كيف ذلك ؟

دولت — ولكنها مسكينة على كل حال

فاطمه — كيف ذلك تكلمى

دولت — هى التى حببت حوريه لحسن . هى التى خلقت غرامهما . حتى أن الحبيبين ليحبانها أكثر مما يحبان بعضهما بل ويشعران أن مركز غرامهما فيها لافيهما . لقد مهدت لهما سبل الاجتماع هنا وسعت فى تزويج حسن من حوريه على علم منها أن حوريه كانت خليلة رياض بك ..

فاطمه ـ ماذا تقولين ؟

دولت — وانه يحمل منها رسائل غرام

فاطمه — ماذا تقولين . ولكن لم فعلت ذلك ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

دولت — لماذا ؟ انتقاما من زوجها ؟ انتقاما من أبيك . تذكرى . أما كنت معنا منذ شهرين تقريباً عند حرم على بك ؟ . . ألم تسمعى ما قالته عن أبيك بالنسبة لحوريه ..

فاطمه — آه .. أدركت ..

دولت ـ يريدها زوجه

فاطمه — وأبوها ؟ .. أبوها ؟. سرى باشا ؟.. أقبل ؟ ..

دولت ـ انه على وشك الافلاس وقد باع ابنته مقابل بعض المساعدات..

فاطمه ـ احقاً ؟ إذن فقد قضى الأمر ؟ سيتم هذا الزواج ؟ زواج الاب بمن يحبها ولده ؟ زواج الاستبداد الفاسق ؟ وهى ؟.. هى ؟.. فوزيه ؟.. ذاهبه ولا ريب لتقوية عزائم الفتاة واستمالة أمها لحسن كى يقف الابن أمام الوالد والوالد أمام الابن ؟ ولكنى سامنعها عن الذهاب . سامنعها .. سادافع عن هذا البيت . أنا الغريبة الدخيلة سادافع عن أبى وأخى . أما أنت . فاذهبى لم يعد يمكننى أن أصحبك الى السينما . اذهبى وغدا ..

دولت ـ غدا قد لا أظن فوزيه تعرفنى

فاطمه ـ امتأسفه أنت لذلك

دولت ـ بالمره . لقد استرحت الآن. اوريفوار (تخرج)

المشهد السادس عشر

(تتشاغل فاطمه بتقليب الكتب فتدخل فوزيه مرتدية ملابسها)

فاطمه ـ فوزيه

فوزيه ـ اوه . فاطمه هانم .. بونسوار .. (تستعمل فى حديثها التهكم المر)

فاطمه ـ لامؤاخذه ياهانم .. انت عارفه انى جيت

فوزيه ـ ياسلام البيت بيتك على كل حال .. مهما كان رأى الباشا .. يابلى مالك صفره كده ؟ . . لا لأ فعرضك بلاش دلال هو انا فؤاد بك .. انشاء الله يكون بخير وعافيه فؤاد بك .. يادين النبي يافؤاد بك ..

فاطمه ـ ياهانم ..

فوزيه ـ بلغنى انكم ناويين .. شوبش ياأختى .. مبروك .. مبروك تعشى وتدوبى .. على الله تتهنو ومايفوتكيش زى مافات أبوك نينتك ..

فاطمة ـ فوزية هانم . . .

فوزية ـ أه عايزه حسن بك ؟ . . . جيتى علشان تاخديه ؟ . . تروحو السينما سوا . . . يابخته . . . والله صعبان على انك تحبيه أ كترماتحبينى . . ماليش حظ . . . أمرى لله . . بالزمه لوكنت أعرف هو فين لاجيبوهلك لحد عندك . . . بالشرف . . . ولكن بس من الاسف أنا مستعجله جداً وورايه زيارة . عن اذنك ياهانم . .

فاطمه ـ وقد عزمت على الكلام ـ يافوزيه هانم انت ست شريفة . .

فوزية ـ في كبرياء وأنفة ـ نعم ؟

فاطمه ـ ومهما تكن ظواهرك فانا أظن قلبك طيب . .

فوزيه ساخره ـ مش بعيد . .

فاطمه ـ حرام انك تضحى حسن فى سبيل اسعاد نفسك !

فوزيه ـ إيه ؟ إيه ؟

فاطمه - حرام انك تسعى فى زواجه من حوريه وانت عارفه هى مين. إيه ذنبه اذا كان والدى حب يحوز عليك..

فوزيه - بتقولى إيه؟ يعنى ايه الكلام ده؟ انت لازم الحب جننك أما أنا فماعرفش اكلم مجانين..

(تريد أن تمر فتمنعها)

فاطمه - لالا ياهانم. انت بتغالطى نفسك انت عارفه انى عاقله وان كلامى فى صالحك. انتظرى. أرجوك تنتظرى عشر دقائق لأتمكن من اقناعك بعدم زيارة حوريه..

فوزيه - شىء مدهش. أنا مش فاهمه.. أنا ماعنديش وقت احل فيه الغازك.. من فضلك.

فاطمه فى خشونه - لازم تسمعى كلامى

فوزيه فى عنف - مش فاضيه أسمع هذيانك

فاطمه ثائرة - راح تسمعيه غصب عنك. انت رايحه عند حوريه علشان تحرضيها على التمسك بحسن ورفض زواجها من والدى رايحه عندها علشان تبحثى عن طريقه لخداع حسن باخفاء رسائلها الغرامية لرياض بك..

فوزيه - يافاطمه هانم انت بتدعى على ادعاءات سافلة وبتهينينى فى بيتى وأنا عيب على لما أحط من قيمة نفسى وأجاوب بالمثل وحده زيك قليلة الادب أنا عايزه أخرج من فضلك

فاطمه - وأنا عايزه انك تغيرى عزمك وترحمى الشاب البريء المسكين.

فوزية - شىء جميل.. تحبسينى فى بيتى؟ واذا كان لابد... لابد من خروجى..

فاطمه - أفضح اعمالك واعترف بالحقيقة لحسن بل لوالدي نفسه!

فوزيه مندفعة - أي حقيقة؟ انت واحده مجنونه.. لازم بعتاك أمك

والا أخوك علشان توقعي بيني وبين جوزي . ولكن على مين الكلام ده ياهانم .. مين انت ومين أخوك ؟ هو أبوك يقدر يشوفك ؟ يقدر يتصورك ! انت والا أمك ؟ . . نسيت انه طردك النهارده الصبح من البيت ؟ . . أنا مش فاهمه ازاى رجعت هنا وفى وشك دم ؟ . . امشى . . ياللا امشى اخرجى من هنا . أخرجى من بيتى . أخرجى .

المنظر السابع عشر

الباشا — فوزيه — فاطمه

صوت الباشا من الخارج - جري إيه ؟ . . جرى إيه ياهانم ؟ . إيه لزعىء ده ؟ . (ويدخل) سرى باشا خرج ؟ . إيه فاطمه هنا ؟ . (يغضب) انت جايه تعملي إيه يافاطمه ؟ . .

فوزيه - جايه تتهجم على يا سيدي .. جايه تشتمنى في بيتى .. جايه تهينى فى شرفي وعرضى علشان بسألها ازاي رجعت هنا بعد اللى حصل الصبح ...

فاطمه - انت كدابه ... كدابه .. المسألة يا . .

فوزيه - لا تدع لها مجالا للكلام - انت قليلة الحياء .. قليلة الادب ... قليلة ...

حلمى - ما شاء الله .. اضربوا بعض علشان ما اتفرج عليكم . . هو انتم فاكرين يعنى انى فاضيلكو أوى والا رايح أأعد فى البيت اعملكم قاضى حريم ؟ .. أنا قلت لك يافاطمه ألف مره انى مش عايزك هنا . مش عايزك هنا .

فاطمه - ولكن المسأله تخصك يا بابا .

فوزيه تقاطعها - طبعا تخصه ما دام بتشتمى الست بتاعته .

حلمى - أنا يا فاطمه مش عايز حد منكم بينى و بين امراتى . أنا فاتح لك

أنت وامك بيت بفلوسى روحى أقعدى فيه وسيبينى ، واذا كنت عايزه تاخدي اخوك كان خديه وفارقينى . يالله روحى.

فاطمه ـ يا بابا..

حلمى ـ يعنى ايه ؟ عايزه تخربيلى بيتى التانى زى ما خربتلى أمك بيتى الاول مش كفايه ؟ .

فاطمه ـ وقداختنق صوتها ـ يابابا.حاضر.

حلمى ـ فى اوام ـ بتستنى ايه ؟ طالبه ايه ؟ . أنا ما بعش امراتى دي لا بيك ولا بامك ولا بعيلة امك كلها كان . . روحى بلغيها كده عن لسانى وأوليلها انى عايز أعيش مستريح فى بيتى . . يا لله . . يا لله روحيلها . روحيلها

فاطمه ـ أنا رايحه بس اسمع كلامى.

فوزيه ـ يسمع ايه ؟ يسمع القباحه وقلة الحيا ؟ والله ياباشالو فضلت بنتك خمس دقائق هنا كان ما يحصلش طيب . يانا يا هى فى البيت ده .

حلمى ـ مبسوطه يا ستى . ادى اللى بينوبنى منك ومن أمك يالله أمال . يا للا . .

فاطمه ـ وقد احتبس صوتها ـ أمرك أنا رايحه . . رايحه حالا . . المظلوم له يوم . .

(أثناء كلامها تسير نحو الباب وعند العتبة قبل أن تخرج تلتفت الى أبيها وقد احمرت عيناها وتهدج صوتها وعزت عليها نفسها فتقول بصوت ملؤه الذل والأسى)

مرسى . . مرسى يا بابا . .

فوزيه ـ تقهقة قهقهة وحشية وهى تلوح بيدها ـ مع السلامة .مع السلامة ياهانم سلميلى على نينتك . .

تجهش فاطمة بالبكاء واضعة رأسها بين يديها وتركض مسرعة

الفصل الثالث

(نفس المنظر)

(حلمى باشا يسير جيئه وذهابا مفكرا)

احمد (يدخل) الباشا تحت يا سيدى ..

حلمى - سرى باشا؟ أولو يتفضل ..

المنظر الاول

حلمى - سرى

حلمى يصافحه - يا باشا بونسوار .. أنا آسف جدا ... وصلت هنا بعد خروج سعادتك بخمس دقائق .. انفضل (يقدم له سجاره)

سرى - أشكرك

حلمى - أراك مكتئبا ؟.. ماذاجرى ؟

سري يرفع اليه بصره ثم يحوله الى الارض - لا شيء ..

حلمى يقوم ويشعل سيجار ويروح جيئه وذهابا ثم يقف متكئا على المنضدة تجاه سرى مكتف اليدين وفى فمه السيجار يدخن - يا باشا أنا على تمام الاستعداد لسماع حديثك. تكلم مهما يكن الامر .

سرى قائما - وما الفائدة ؟ ما الفائدة ؟ ما النتيجة ؟ دعنى .. دعنى اذهب وأنس ما كان بيننا

حلمى يلقى السيجار من فمه و يهز الباشا من كتفه - ماذاتقول ؟ أرفضت

سرى - كل الرفض !

حلمى - والسبب ؟

سري ــ انك تكبرها بعشرين سنة على الاقل

حلمى ــ ولكن انت ؟ كيف رضخت لها ؟ كيف لم تقاومها ؟ كيف لم تحاول اقناعها ؟ كيف استحوز عليك هذا الضعف وفى المسألة موتك أو حياتك ؟

سرى ــ أشفقت عليها ...

حلمى ــ بابتلائها والاسرة كلها بعار الافلاس وذل الفقر ؟ لا . لا . أنا أعرفك ولا اصدق . . . إن رجلا مثلك يؤثر الانتحار على النزول من وسطه الرفيع لا يأبه لسبب تافه كهذا . . . اصدقنى الخبر . . .

سرى ــ إنى والد قبل أن أكون أي شىء ...

حلمى ــ لا بل أنت وجيه قبل أن تكون والد ... الأبوة فيك شىء طارىء عرضى أما الوجاهة . الوجاهة العمياء ياباشا فوراثية تجرى فى عروقك وعروق مع الدم ! لهذا أنا أشك فى قولك وأرى أن شفقتك جاءت متأخرة فصارحنى ... صارحنى ... هل رأيت فى غيري مسعفاً بلا أجر فعزت عليك ابنتك ؟

سرى ــ هو ذاك ..

حلمى ــ إذن فلقد أنقذت ؟

سرى -- نعم

حلمى ــ من الافلاس والخراب ؟

سرى ــ نعم

حلمى ــ فأنت سعيد ؟

سرى ــ أعتقد ذلك

حلمى ــ أنت ؟ ... ثم تطالعنى بهذه السحنة المتحجرة الصفراء وهذه العيون الوجلة الهاربة ؟ محال !

سرى – بل هى الحقيقة ...

حلمى – الحقيقة ان ابنتك ؟... ان ابنتك تحب ..

سري – ماذا تقول ؟

حلمى – لا بد ...

سرى – ياباشا أنا لا أسمح لك

حلمى – وأنا أسمح لنفسى . لقد تعاقدنا فأخلفت فحق عليك الملام أجبنى من ذا الذى تحبه المدموازيل حوريه ؟ ...

سرى مذعوراً – أنت أيضاً معتوه ! ...

حلمى – ماذا تعنى ؟

سرى – دعنى أذهب وكأن لم يكن بيننا شيء

حلمى – تذهب ؟ .. وأمكث أنا هنا فى ذهول تحت تصرف كلامك ؟ أنت واهم .. هيا ياباشا ... افصح ولا تبالى . فى الحقيقة لذة الاستقرار

سرى – إنى أرثى لحالك

حلمى – إن كبريائى فوق حبى ولسوف يخنق غصتى فلا يسمع أنينى

سرى – بل سوف تجأر ذعراً متى علمت ! هنا ... هنا . فى بيتك تحالف عليك أحب الناس اليك ... ولقد أفلحوا

حلمى – تحالفوا على ؟ من هؤلاء ؟

سرى – امرأتك وابنك وابنتى

حلمى – حسن وحوريه و..

سرى – نعم

حلمى – ولكن ... ولكن ... ما .. ما العلاقة ؟

سرى ناظراً اليه – العلاقة ؟ ألم تفهم بعد ؟

حلمى يتراجع ولكنه يعود فيبتسم ابتسامة مكمدة – انك لمراوغ أينصب لمثلى الشرك ؟ أتفكر فى ذلك أنت ؟ هذه خيانه ياباشا ... تفكر فى تزويج

ابنتك من فتاى انقاذا لشبابها واستمتاعا بمالى ؟

سرى ـ هى امرأتك التى فكرت فى ذلك !

حلمى ـ امرأتى !

سري ـ تواطأت مع ابنك فى بيتك وأنت لا ترى

حلمى يحتدم ـ امرأتى ؟أى شأن لك مع امرأتى ؟من أين لك ذلك؟ أسرع

سرى ـ من ابنتك . من فاطمه هانم

حلمى ـ ابنتى ايضا

سرى ـ أتتنى منذ عشر دقائق باكية مسترحمة وقصت عليها كيف أنها شاءت أخطارك بالامر فطردتها بلارحمة

حلمى ـ وماذا قالت ؟

سري ـ إن فوزية هانم أوعزت لحسن بالتطلع لحورية وسهلت له سبل الاجتماع بها هنا . . .

حلمى متأملا ـ حسن وحوريه ؟ .. يتحابان ؟ (ينفعل) على مقربة منى؟ هنا ؟ .. فوزية تفعل ذلك ؟ . تجسر ؟.. تخالجها الفكرة ؟ . (صائحا) ولكن أنت . أين كنت ؟ كيف لم تحافظ على ابنتك ؟ . .

سرى ـ لم لم تراقب ولدك ؟ . لم لم تلاحظ امرأتك ؟ .

حلمى ـ آه تلك الحشرة . الى هذا الحد ؟

سرى ـ إنها الآن بقرب حوريه . فى دارى لقد شاهدت أوتوموبيلك بالباب عند خروجى فادركت .

حلمى ـ ذهبت لتستحث البنت على المقاومة . تفعل بها فعلها بالشاب . تريد أن أفشل فتنتقم . . .

سرى ـ إنها الفائزة حتى الآن

حلمى ـ تضل نفسك لو توهمت ذلك

سرى ـ إنى خائف !

حلمى ـ تخاف ؟ تذعرك الاعيب امرأة ؟ هون . هون عليك أيخالجك ريب فى أن ابنتك ستكون لى وأن الشيك بثلاثين الف جنيه . سوف يدخل جيبك ؟ اذا كنت فى شك من ذلك فاذهب . اذهب ياسيدى الباشا ورفه عنك بسماع الموسيقى فى سولت ودعنى أنا اشتغل وحدي هنا وسوف أدعوك بالتليفون عند الحاجه . مع السلامه . مع السلامه ياباشا . اجتهد فى التأثير على حورية .. مع السلامه

(يوصله ويعود)

المشهد الثانى — حلمى

(يذهب الى مكتبه ويفتح أدراجه ويفتش)

تجحد صنيعى ؟ ! . تحرض ابنى على ؟ . تدس لى الدساس . لا بأس .. (يخرج رزمة ورق) هذه رسائل حوريه لرياض بك (يعدها) واحد . اثنين . ثلاثة . (يضع الرسائل فى محفظته وتخالجه فكرة فيهرع للتليفون) ألو . ألو . سنترال ١٥ — ٢٢ مدينه ؛ فاطمه ؟ بونسوار أنا بابا يا فاطمه . ماتزعليش ياروحى حقك على . أنا عايزك حالا . تعالى موضوع مهم . مهم جدا . بخصوص حسن . أنا فى انتظارك . أوريفوار (بعد لحظه) سيلتقيان ؟ وسوف نرى هاهى زوجتي

المشهد الثالث

حلمى — فوزيه

فوزيه ـ تدخل وعيناها تلمعان غبطة واثقة ـ تتكلم بلهجة المنتصر المتهكم الغير مبالى

حلمى ـ من أين أنت قادمة ؟

فوزية ـ من الفسحه

حلمى ـ الساعه سته

فوز يه ـ بردون سته ونص

حلمى ـ خرجت فى الاوتوموبيل وحدك ؟

فوزيه ـ على كيفي

حلمى ـ إيه ؟ لهجة جديدة يعنى ؟

فوزيه ـ وحياه جديده واحده بواحده

حلمى ـ انت عارفه انك خالفت أمرى لثانى مره ؟

فوزيه ـ لخامس مرة وانت الصادق

حلمى بمرارة ـ بالطبع لانى زوج غبى ؟

فوزية ـ لاسمح الله .انت رجل جليل . رجل عاقل وزكى فى منتهى الابهة والوقار !

حلمى ـ وفي منتهى التغفل ... أليس كذلك ؟

فوزيه بسخريه ـ أظن لا ..

حلمى بعنف ـ أين كنت ؟

فوزية ـ أعوذ بالله

حلمى ـ أين كنت

فوزيه ـ فى الجزيره ..

حلمى ـ انت كاذبه !

فوزيه ـ والله فى الجزيرة ..

حلمى ـ انت كاذبه !

فوزيه ـ اسأل الشوفور ..

حلمى ـ اسأل الشوفور ؟ ما شاء الله . حتى الشوفور له يد فى المؤامرة ؟ يتلقي التعليمات السرية من سعادتك ؟ .. الشوفور أصبح كاتم أسرار حرم الباشا !!

فوزيه ــ أسرار؟.. أى أسرار وأي تعليمات؟. انت ولاشك فى أزمة من أزماتك العصبية وأنا لا أستطيع احتمال الاهانة.. يكفي ما جرى الصبح.. اوريفوار

حلمى ــ تعالى. تعالى هنا. وانا لاأستطيع احتمال السخرية منى والعبث بى. لا أستطيع احتمالك متألبة على بما فيك من خسة ودهاء جاعلة منى أضحوكة يرمقها الجميع بعين التحقير والتسلية. اتعلمين اين كنت؟

فوزيه ــ كنت حيث كنت

حلمى ــ هكذا أريد أن تخاطبينى فى وقاحة أية صريحة.. أليس هذا ماتريدين؟ (صارخا) اتعلمين أين كنت..

فوزيه ببرود ــ كنت في الجزيرة..

حلمى ــ كنت فى منزل سرى باشا!

فوزيه ــ لم ادخله منذ اسبوع

حلمى ــ كنت عند حورية

فوزيه ــ لم ارها منذ الصباح..

حلمى ــ ولكن الباشا رأي أتومبيلى بالباب فايكما الصادق؟

فوزيه ــ بالطبع هو..

حلمى ــ نعم هو.

فوزيه ــ اوف واذا فرضنا انى ذهبت الى هناك فاذا يهمك؟

حلمى ــ اريد أن ابشرك بفشل الخطة وحبوط المسعى.

فوزيه ــ أي مسعى وأي خطة؟ أتخاطب نفسك أم تخاطبني؟ انا لا افهم

حلمى ــ اريد أن أؤكد لك أنه بالرغم من مجهوداتك فستكون حورية لى!

فوزيه ــ انت حر. وهل فى وسع زوجة ضعيفة مثلى أن تحول بين زوجها وامرأة يشتهيها؟.. تزوجها ولتفرح ببكر جديدة. ربنا يتمم بخير..

حلمى ـ نعم تقولين ذلك الآن بيقين المنتصر في هدأة الشموخ والتهكم وقد كانت الغيرة تمزق فؤادك صباح اليوم ذعرا و وعيدا ! تقولين ذلك بعد أن سولت لك عصفة كبريائك السخيفه وعزه نفسك الموهومة أن تسوق الى الخراب والانتحار .ذلك الباشا المفلس وتدفعى الى الحب والجنون ذلك الدعى الغر وتبتلى بالحسرة والندم هذا الزوج الغبى أفى استطاعتك الانكار

فوزيه ـ انت تدهشنى ! انت تهيننى ! انت تفترى على كعادتك افترامات مبهمة تبرهن على صحتها بالشتم والصراخ

حلمى ـ ألم تجعلى بيتى مسرحا يخطر فيه غرام ولدي بزوجتى المقبله ؟

فوزيه ـ أنا ؟

حلمى ـ نعم أنت

فوزيه ـ هذه دسائس لاتتنزل اليها مثلى وأن حورية لاضأل من أن تحرجنى للعمل بهذه الترهات . . .

حلمى ـ إذن لماذا عاونتنى على طرد فاطمه ؟

فوزيه ـ لانها سبتنى فى عرضى

حلمى ـ بل لانها كانت عازمة على مكاشفتى بما وقع !

فوزيه ـ ولم لم تتكلم

حلمى ـ لقد تكلمت !

فوزيه ـ ماذا تقول ؟ اتهمتنى بهذه الدنيئة ؟

حلمى ـ اعترفت لسري باشا بماجرى فهرع توا إلى . . .

فوزيه ـ آه بنتك ؟ بنتك أيضا تناصبنى العداء ؟ تلفق على الاحاديث بين العائلات ثم تسكت أنت ولا تدافع عن زوجتك ؟ أين هى شهامتك المعهودة ؟ أين هى كرامتك ؟ ولكنك نحن لزوجتك القديمة وبنتها ولكنك تبغضني مثلهم . تبغضنى...كلكم تبغضونى كلكم ضدى...كلكم كلكم ! (يسمع وقع أقدام)

حلمی ـ حسنا ها هی فاطمه دافعی عن نفسك الآن لو كنت بريئة ! فاطمه ادخلی .. ادخلی .. (تدخل)

المشهد الرابع

حلمی - فوزیه ـ فاطمه

فاطمه ـ بونسوار يا بابا . ها أنذا كما أمرت

حلمی ـ كان سری باشا هنا

فاطمه ـ نعم

حلمی ـ وعرفت منه كل شیء

فاطمه ـ نعم

حلمی ـ وانت التی أرسلته إلی ؟

فاطمه ـ لا أنكر

حلمی لفوزیه ـ اسامعه؟

فوزیه ـ اسمعها تتهمنی فی وجهی بما تغتابنی به فی بیوت الناس . اسمعها ترمینی بما لقنتها اياه أمها الحاقدة المتحرقة لاسترجاع مكانتها فی بیتك واتخاذ اسمك ستارا ترتكب خلفه ماهو مشهور عنها فی البلد كله . .

حلمی ـ هذا هو سلاحك ... البذاءة !

فوزیه ـ أن بنت امرأة كتلك لاتساوي إلا ...

حلمی ـ صارخاً ـ اسكتی

فوزیه ـ اضربنی أمامها . . نعم اضربنی . . فمن يدرينی اذا لم تكن أنت الموعز اليها بما قالت ؟

فاطمه ـ بل هو حبی لاخی وشفقتی علیكم وأنت تعرفين ذلك

فوزیه ـ أيتها الآنسة إنك تطاولت علی ومازلت تعرضين بی فاحذری العقبی اذا أنت أوغلت ولم تثبت الحجة قدمك .

فاطمه - إنك تعاملينى كعدوة مع أنى لاأضمر لك السوء ولكن بما أنك تريدين برهانا . .

فوزيه - نعم برهانك ؟

فاطمه - دولت هانم لقد سمحت لى بذكر اسمها تأييداً لعملى . . .

فوزيه مضطربة - وما شأنها بيننا وماذا قالت ؟

فاطمه - ماأفضيت اليها به !

فوزيه - أنا ؟

فاطمة - نعم أنت . هنا فى هذا البيت . هذا الصباح (تبهت لحظة)

حلمى - تكلمى . دافعى عن نفسك . انطقى .

فوزيه مسرعه وبدون ترو — ما كاشفت دولت هانم بشىء من هذا وما رأيتها اليوم قط (تجفل لغلطتها)

حلمى - ماذا تقولين ؟ كيف ؟ ؟ لقد رأيتها بعينى خارجة من هنا ولقد حيتني وأسرعت توسع الخطى . فعلام . علام المخاتلة ؟ علام الكذب ؟ علام هذا التغطرس ؟

فوزيه - مارفعت الصوت فى وجهك أمام غريب . فارغب اليك أن تبادلنى احتراما باحترام

حلمى - وهل تستحقين ؟

فوزيه - أكثر من هذه الواشية النمامة

حلمى - إنها أنبل منك احساسا وأعز خلقاً

فوزيه - بلا ريب فهى ابنتك من لحمك ودمك أما أنا فالاجنبية الدخيلة التى اقترنت بها مؤقتا للشهوه واللقب والمال نعم أنا الوضيعة وبنتك هى الرفيعه .

حلمى - لقد فعلت فى سبيل أخيها مالم تفعليه أنت فى سبيل زوجك

فوزيه - إن العيش معك لايعلم الاخلاص بل الخيانة ! كيف تريدنى

جادة ساعية أجيئك بمن تهوى فالقي بها بين أحضانك ؟

حلمى ـ ماوددت إلا استكانتك وصمتك فى حدود الواجب والطاعة

فوزيه ـ اذا كان الرضاء بالذل واجب فانا لاأعرف لى واجبا كهذا

حلمى ـ وتعرفين كيف تنصب المكائد ؟

فوزيه ـ هو الطريق الفرد للضعيف المظلوم

حلمى ـ ولقد سلكته؟

فوزيه ـ نعم

حلمى بوحشية ـ صحيح إذن ؟

فوزيه فى حرارة ـ وكيف لايكون صحيحا وأنا منذ أدركت حبك لها أعيش فى احتضار يومى . ألا تقرأ صفحة وجهى ؟ ألا تحس عذابى ؟ غيرتى ؟ شقائى إنى امرأة على أبواب الاربعين . في خريف حياتى . جمالى يذبل . يموت .. تخنقه حشرجة الكهولة.. لاحياه لى إلا فى بيتى .. فى أسرتى .. بين زوجى وولدى فاذا فقدت هذه الحياة فمن يمنحنى غيرها ؟ اذا فقدت هذه الاسرة فكيف ابنى غيرها ؟ اذا نبذتنى انت فمن ذا يرضى بى ؟ لااحد . لهذا فعلت ما فعلت لاحتفظ بوهم العمر وسراب الحياه !

حلمى — لم أفكر فى نبذك من بيتى بعد زواجى

فوزيه — ولكنك ستنبذنى من قلبك بالرغم منك

حلمى — من قلبى ؛ على هذا الخيال نصبت المكيدة ؟ على الحب الذى تقرأين عنه فى الروايات بنيت المؤامره ؟ أنا لم أتزوج بك عن حب ولن أتزوج بحورية عن حب .. أنا أمقت الزواج الحبي وأحتقره بل وأفخر انى لم أحبب امرأة فى حياتى .. وعلى كل فاذا داهمتنى العاطفة يوماً فسأحللها قلب حورية فهى أجدر بها منك ..

فوزيه ـ لو تبصرت لقست مقدار حبي لك بمقدار فظاعة جرمى . أما هى

فلا تحبك ولن تحبك .. بل تكرهك .. تكرهك .

حلمى ساخطاً ـ بمقدار ماتحب حسن ؟ أليس كذلك ؟ هذا عملك . تلك فعلتك ولكنها مع ذلك لى .. لى وحدى .. الا تصدقين ؟ أنظرى . أنظرى (يريها الرسائل)

فوزيه ـ ماهذا ؟

حلمى ـ رسائلها .

فوزيه ـ لمن؟

حلمى — لحبيبها الأول ... لرياض بك . .

فوزيه — من أين لك ؟ من أين لك ؟

حلمى — اشتريتها منه . . انه صديق ... اشتريتها منه بخمسة جنيه كانت رأس ماله الأول فى تجارة الكوكايين .. خمسة جنيه فقط...

فوزيه — وهذه الرسائل؟ ..

حلمى — نعم سيراها ولدى

فوزيه — حسن ؟ !

حلمى — اجل وسيفض يده من حورية

فوزيه — ثم ؟ . . .

حلمى — اتزوجها انا !

فوزيه كالمحمومه — تتزوجها؟... تطلعه على الرسائل ؟ تقصيه عنها ؟ .. تفوز بها؟. . . وانا ؟ وانا ؟ ماذا يحل بى؟ ابقى هنا ؟ اخضع لها ؟ أراها بقربك ؟ أراكما ؟ ...انت وهى ؟ ... انت وهى ؟ ...

حلمى — هذا عقابك وانتقامى !

فوزيه ـ لا .. لايمكننى .. هذا فوق الطاقة

حلمى ـ ولكنى أريد .. أريد أن شاهدك بين زوج يمقتك وضرة تتيه عليك . . .

فوزيه ـ طلقني ! طلقنى ! فذلك خير لى .

حلمى ـ أبدا

فوزيه ـ خذ ولدى اذا شئت ودعنى افر من هنا

حلمى ـ محال

فوزيه ــ اقتلنى اذن

حلمى ـ ليس من صالحى

فوزيه ـ « من أعماق نفسها » من صالحك حياتى ؟! استعبادى ؟! آه كل هذا الذل !. • وبنته هنـــا أيضاً . . أمامها . هى السبب . هى السبب . « بكل قواها » فلتخرج . فلتخرج على الاقل . لاأطيقها !. أليس لى كرامة أليس لى نفس واحساس « وترتمى على مقعد متداعية » آه « تنسحب فاطمة متأثرة الى حجرة أخيها »

وفي الحال يدخل حسن مهتاجا

المشهد الخامس

حلمى ـــ فوزيه ـــ حسن

حسن ـ أنت هنا ياأبى . الحمد لله . ليس غيرك من يساعدنى . . . سوف تنقذنى ولا شك . من صديقك . من سري باشا . انى اعتزمت الزواج كما أشرت على . فخطبت الى الباشا ابنته فرفض لفوره بلا عذر ولا سبب . . بحثت عنه في كل مشرب وملهى لأثنيه عن عزمه فلم أجد له من أثر . . ولكنى وجدتك أنت وفيك وحدك أملى . . انى أضع بين يديك قلبى ومستقبلى ! . .

حلمى ـ شىء غريب . . ألم تجد لك بين بنات كل أصدقائنا البشوات غير بنت سري ؟ . . . ماالداعى يعنى ؟ . . .

حسن ـ انى أحبها !

حلمی ـ ـ الله أكبر ياسيدي . . . ومن تاريخ كام يعني

حسن ـ يشعر بالسخرية فيتجمد ثم ينطلق ـ اتمزح ياأبي ؟ . أشكرك ... بونسوار

ويهم بالخروج فيمسك به الباشا)

حلمی ـ الى أين ؟

حسن ـ أو الى البحث عن سري باشا

حلمی ـ و بعد ؟

حسن ـ اضطره للكلام

حلمی ـ وكيف ؟

حسن ـ احرض الفتاة على الهرب . . . معی . . .

حلمی ـ معتوه . . وسمعتي ومركزى و بيتى ؟ . .

حسن ـ فى وسعك انقاذي

حلمی ـ اتهددنی ؟

حسن ـ انكم جميعا تتحالفون بسخف على أنت و أبوها و القضاء !

حلمی ـ و الاولى بك التخلى عنها

حسن ـ أنت أيضا تنصح لى بذلك ؟ لماذا ؟ لأى عذر ؟ لأى سبب ؟ هذا ماأستفسر عنه منكم فلاارى غير وجوه جامدة مقطبة اتفقت على بصمت مراوغ غريب . . . انت تطالعنى بنفس السحنة التى طالعنى بها الباشا . . . أنت تعرف السر مثله ياأبى . . . أنتما تأتمران على ! . .

حلمی ـ أتظن ؟

حسن ـ بل أؤكد . أحس بذلك

حلمی ـ وهو الحق !

حسن ـ فى وجهه ـ ماتقول ؟

حلمى ـ نعم

حسن ـ أنتما الاثنان ؟ ! ..اتماما ؟ ! ..: ولكن ما الموجب؟ ما الموجب كاد أحطم رأسى بحثا بلاجدوى . قل . .

حلمى متفرساً فيه بغل محتجز ـ ما أشد حبك لها ! . .

حسن ـ انى اعبدها !

حلمى فى حنو مفتعل ـ مسكين . . . مسكين يا أبنى . . .

حسن ـ ساعدنى اذن ؟ . . .

حلمى ـ اتحبها الى هذا الحد ؟

حسن ـ و تحبنى بلاحدود !

حلمى ـ لا . . . . هنا نختلف .

حسن قافزاً ـ لم أفهم

حلمى ـ أنت كسائر العشاق تهتم بحبك أكثر مما تهتم بحبيبتك فلاتراها الا من خلف قناع . . .

حسن ـ ماذا تعنى ؟ . . .

حلمى ـ تمهل . . .

حسن فى صرخات حاسمة ـ اختلاقات . . . افتراءات . . . كاذيب . . . لا أريد أن أسمع . . . كان من واجبك أن تردها فى أفواه قائليها و لو احتفاظا بكرامة صديقك

حلمى ـ كان يعلم بها قبلى و يعلم انى على علم بها و الدليل انه خجل من تقديم عذره لك فى رفضه طلبك . .

حسن صائحا ـ ايكون لها عشيق ؟

حلمى ـ كان لها عشيق . . .

حسن فى شبه غيبوبه ـ كنى . . . أنتم افاكون . . . مغرضون . .

أبعد ماتكونوا عن النزاهة و النبل .. باى حق .. باى حق تتهمها ؟

حلمى - لا تتهور.

حسن - أ كاد أختنق بمشهدمنك ولا رحمة . أين ماتستندعليه فى اتهامك ؟ دلنى على من يهدينى.. ارشدنى على الاقل الى الاثر.. أبعث الطمأنينة فى نفسى ولو على الانقاض !

حلمى -أتريد؟

حسن — لاشفقة بى على نفسى . تكلم

حلمى — خذ . . . خذ واقرأ (يناوله الرسائل)

حسن محدقافيها قبل أن يلمسها — ماهذا ؟

حلمى — اقرأ . اقرأ . رسائلها لرياض بك !

حسن باستغراب مشمئز - رياض بك ؟

(ينقض عليها و يختطفها ثم يقلب أحدها بين يديه قارئامنه سطراً أو اثنين صائحاً كالمخنوق آه . ثم يأخذغيره و يطالع سطرا أيضا فيعاود صياحه ثم يهرع الى المكتب فيرميها عليه و يبعثرها قارئا من هذه بعضها والاخرى كلها والثالثة شيئاً منها فى سرعة متشنجة و يده تتعثر بادوات المكتب وهو يزيحها من أمامه بقوة ضاربا بها المكتب فى عنف وكلما انتهى من واحده احتبس نفسه فرفع رأسه الى فوق واستنشق طويلا ليعاود القراءة هذا وسحنته تتغير شيئاً فشيئا من دهشة فظيعة الى استنكار أليم الى يقين مصعق الى غيرة قتالة يهب تحت تأثيرها فيجمع الاوراق بنفس السرعة المتشنجة و يدسها فى جيب بنطلونه الخلفى ثم يعقد أزرار جاكتته و يتقدم نحو أبيه فى تهالك يتضاءل و يختفى عند كل خطوة ليحل محله العزم على استقصاء الحقيقة كلها هذا والاب عن بعد يبتسم ابتسامة غيرة لئيمه ينهل بها آلام ولده و يستمرئها)

حسن — من أين لك هذه الرسائل ؟

حلمى — من رياض بك نفسه وتستطيع أن تسأله

حسن — وكيف أعطاكها ؟

حلمى ـ اشتريتها منه

حسن ــ ولماذا ؟

حلمى ــ لانقذك ..

حسن ــ من أنبأك بقصتى ؟

حلمى ـ لاحظتك ..

حسن ـ وهل كنت عالماً بعلاقة رياض وحوريه ؟

حلمى ـ كان يعلم بها الكل إلا ..

حسن ـ إلا أنا .. لابأس .. أما الآن فالى الملتقى .. (يهم بخروج)

حلمى ـ الى أين ؟

حسن ـ الى بيت أبيها .. الى بيتها ..

حلمى ـ أأنت مجنون ؟ (يضع يده على كتفه)

حسن يأخذها ـ هذه اليد · لقد حطمتنى ومع ذلك فانا أقبلها !..

حلمى ـ لن تذهب الى هناك

حسن ـ بل سأذهب . سأدخل البيت ..

حلمى ـ فكر ملياً

حسن ـ الى حرم الباشا تواً و بلا استئذان ..

حلمى ـ و بعد ؟

حسن ـ أريد أن أراها !

حلمى ـ وما الفائده ؟

حسن مفرغاً عصارة نفسه ـ أريد أن أراها فى بيتها . فى مخدعها ان استطعت . لافي بيتى . فهى هناك غير هاهنا ! أريد أن استبين الآن جيداً ذلك الوجه . الذي كانت تحبنى به ! أريد أن أتأملها . وهى تقرأ رسائلها أمامى واحدة فواحدة . أريد أن أقول لهـا أنها أفظع مخلوق عرفته ! أريد أن أقول لهـا

ماذنبي اذا كنت أحببتها !.. أريد أن أذكرها بالماضي لالترحمني بل لاستفظعها !..أريد أن أصيح بها اتنحطين الى مثل ذلك الرجل وتعقدين معه صلة الشهوة مختاره . أنت التي كنت تبتئسين طول يومك اذا ما قبلتك في يدك قبلة واحده ؟ . . من أين كنت تستمدين تلك الصراحة المزهوة التي كنت تطلين بهاجبينك وعينيك عند محادثتي ؟.. آه أريد نعم أريد .. أريد أن أمتحن روحي هل سيزفر لديها وجداني ويغلي كعادته ،أم ستحفر الهاوية بيننا فجأة فاقف ازاءها حائراً مبهوتاً أتفرج عليها تتخلع كسائر الهوانم . . وتضحك وتغمز وتنكت .. ياالله ! .. ياالله ! ..

(يبكى)

حلمى - البكاء بعد الخديعة ذل سخيف

حسن - بل هو عزاء سخيف

حلمى — عزاؤك في النسيان

حسن - وسأنسى. ولكن بعد أن أراها . .

حلمى - انها الآن ليست لك . . انها لغيرك .

حسن يتجلد - كيف ؟ ستتزوج ؟

حلمى - نعم

حسن - ممن ؟

حلمى - وماذا يهمك ؟

حسن - نعم لم يعد يهمني . . ولكني أريد أن أراها ..

حلمى - كلا فقد تفسد عليها مستقبلها . انت لاتريدها فدعها لغيرك وانسحب . إنها بزواجها العاجل تستر ماضيها وحاضر اسرتها . انهم يزوجوها ليطمسوا معالم جرمها وينقذوا البيت من الدمار ..

حسن — أي دمار ؟

حلمی — الباشا علی شفا الافلاس . . .

حسن — الافلاس ؟ اذن هذا هو السر ؟ انه یزوجها مکرهة ؟ یبیعها ؟

حلمی متضایقاً — وما یضیرك انت ؟ مکرهة أو غیر مکرهة ؟ بیعت أو لم تبع ؟ لقد تراضی أولوا الشأن وتم الأمر . . .

حسن — ولکنی ... ولکنی ..

حلمی — ولکنك أحمق . . فی هذا الحل نجاتك . سمعتك وحبك ..

حسن — لا . لا . انهم یعذبوها وقد تکون فی حاجة الی ! ...

حلمی — لا أحد بحاجة الیك ... لا أحد یهتم بك ... ولا یجب أن تهتم بأحد

حسن ـ أنا ذاهب الیها فی الحال .

حلمی ـ انك لن تذهب

حسن ـ أوه . (یسیر جیئه وذهابا وتعود أعصـــابه للثوران فیضرب الارض بقدمه ثم یأتی ویقف أمام والده مکتف الیدین صارخا) مم نخاف ؟ .. لن أعاقب الناس فی بیوتهم ولن أصیح لن أتشنج ولن أبکی . لن أکون جلابا للفضیحة فی عائلتی ولا للعار

حلمی ـ لست ممن یعبأون بأقوال الناس . لقد أمرتك ویجب أن تطیع .

حسن ـ و إذا کان أمرك فوق طاقتی ؟

حلمی ـ جعلتهم یغلقون الباب فی وجهك هناك

حسن ـ سأتربص بها فی الشارع اذن . . فی التیاترو أو السینما أو . .

حلمی ـ أو هنا!

حسن ـ ماذا تعنی ؟

حلمی ـ قاطعاً ـ ان حوریة هانم بنت سری باشا ستصبح غداً زوجتی!.

حسن مذهولا ـ ماذا تقول ؟

حلمی ـ زوجتی . . زوجتی.. هذا هو السر!

حسن ـ أعد .. أعد ماقلته .. حورية ؟ ..

حلمى ـ زوجتى أنا !

حسن ـ زوجتك ؟ . أنت ؟ . أنت ؟ . لا . لا . قل بسرعة لا . بسرعة بسرعة . (يكاد يجن) انه جامد . يبتسم . يتهكم . يحتقرنى . انه عازم . (وفى مرارة البغض) انه أبى ! انه أبى ! (يدفعه و يطمس وجهه بين راحتيه)

المشهد السادس

مذكوران حوريه

حورية من الداخل ـ فوزيه هانم هنا ؟

زكيه ـ اتفضلى ياهانم . اتفضلى

حسن ـ هى ؟ !

حوريه داخله (متداعية جدا) (وخصوتها يتهدج) ـ بونسوار

حلمى ـ اتفضلى ، اتفضلى ياهانم

حوريه ـ العفو ياباشا . أنا فى حاجة لفوزيه هانم

فوزيه ـ تعالى . تعالى ياحوريه .

حوريه ـ عن اذنكم

حسن يتقدم اليها ـ ياهانم اسمحى لى .

حوريه ـ أنا ؟ . .

حسن ـ نعم انت

حوريه ـ ولكنى .. مشغولة.

حسن بمنتهى العطف ـ دعك من هذا وأجيبينى لم أنت الآن هنا ؟ أطلب اليك أن تصرحى أمامنا جميعاً لا سيما أمام أبى بما تريدين اسراره لفوزية على حدة . (وفى شفقة عميقة وحنان غريب) أنا عالم بكل ما جرى وأنا وحدي أقرأ استغاثتك فى عينيك . لله كم أنت شاحبة وكم ترتجفين ! .. أعذبوك هناك

أتطاولوا عليك ؟. أو امتهنوك ؟. أو اعتدى عليك بالضرب مرة ثانية ؟!. تكلمى .. ها أنا أتناسى قلبى ومايحمل . ها أنا أحاول أن أخنق فى صدرى كل ما أعددته لك من صخب ووعيد . لأعاونك عليهم . لأحميك منهم . (تجهش بالبكاء) لا . لا تبكى لقد بكيت عنى وعنك وعن حظنا !. فامسحى دموعك وتكلمى ..

حوريه ـ وماذا تريد أن أقول ؟

حسن ـ أجئت اظهارا لرضاك عن هذا الزواج ؟

حوريه ـ بل استعدادا لتضحية نفسى

حسن ــ ذلك لن يكون

حوريه ــ وأسرتى ؟ أبى وأمى وأخى ؟ مستقبل أخى ؟.

حسن ــ هذا الزواج لن يكون

حوريه ـ دعه يأخذنى رحمة بأبى ..

حسن لابيه ـ وأنت ؟ أتصمت ؟ الآن المال في يدك تبيح لنفسك موقفاً كهذا ؟ ولكنى أكاد أموت اشمئزازاً وخجلا . فى صوتها ذلة تستحثنى على الفرار من مكان أنت فيه ! ألا تشعر بأنك . انك ...

حلمى هاجماً عليه ـ اخرس

فوزيه تتوسط ـ ياباشا .

حلمى منفجرا ـ أنت نعم ؟ . اشمتى بى واسخرى بالجميع فهذه ساعتك . أى فرح يضارع فرحك الآن ؟ . لن تفل عزمى هذه المشاغبات الاحساسية العقيمة (مشيرا لحوريه) أنا قابل بها وهى قابلة بى ..

فوزيه ـ ولكن حسن ؟!.

حلمى ــ نعم تشفقين عليه ؟ لماذا لم تشفقى عايه حينما ولهته بحورية على علم منك بماضيها ؟ كنت إذ ذاك بلا شعور . أما اليوم فأنت تتأثرين بسهولة ..

حسن مذعورا وقد دبت فى قلبه الغيرة والذعر يتذكر غريمه فيدع حورية ويقبل نحو فوزية ـ رياض بك ! ماذا ياعمتى . كنت تعرفين ؟ كنت واقفة على ما كان بين حورية ورياض بك ؟

فوزية ـ نعم

حسن ـ انت ؟ ومع ذلك دفعتنى لحبها ؟ أطنبت فى مسلكها ؟ زينت لى الحياة معها ؟ تركتنى أتمادى ولم تبالى ؟ حتى أنت حتى أنت ؟ . أهذا كان عهدي ؟ . « ويتذكر » آه . رياض بك ، ولكن ماذا فعلت لك ؟ ماذا فعلت لكما ؟ ماذا جنيت ؟

فوزية مشيرة نحو زوجها ـ كان يحبها فدافعت عن نفسى

حسن ـ لقد جاوز انتقامك حد الاساءة وانتهى بانانية ضريرة الى وحشية حمقاء .. أنظرى الى هذا الرجل ، أهو يتألم ؟ أبدا ، انك لم تؤلميه ، ماذا يهمه لولم يتزوج بهـا ؟ سينساها فتسير حيـاته فى مجراها الطبيعى . أما أنا حياتى أنا . فسترسب . ثم تتعفن ، انك انتقمت منه فى وحدي ولكنك لم توقعى في نفسه الرعب منك ، انه لا يخافك واذا تخلى اليوم عن حورية فقد يتعلق فى الغد بسواها وكأنك لم تفعلى شيئا . (لحوريه) أما أنت .

حوريه ـ كنت أحبك فأنكرت الماضى ودافعت عن حبى

حسن ـ بل كنتم تموهون على جميعاً . كلكم أنانيون . كلكم قساة نفعيون . لم يرع لى أحدكم حرمة عاطفة . كنتم تدللونى جهدكم لاعتز بسعادتى فلا أرى . ولم أر . لم أر شيئا .

فوزيه ـ أتسمح بزواجه على .. أتبيح باتخاذ حبيبتك ضرة لى فى بيتى ؟. ان شرف العائلة بين يديك فاحكم بما ترى !

حسن ـ احكم ؟ ! . ليس لى غير شىء واحد أقوله .

حلمى ـ انك راحل عنا في أول باخرة

حسن - بل هو أن تمد سرى باشا بالمال اللازم حتى تذهب حورية وينتهى الامر

حلمى مستشيطاً — المال اللازم ؟ شىء لطيف جدا .. سعادتك تصدر الأوامر وعلى أنا التنفيذ .. بالطبع المال مالك .. لقد تعبت كثيرا فى جمعه.. مسكين... كنت تأكل خبزك بعرق جبينك وتنفق فى صولت وجروبى من جيبك الخاص وستسافر فرنسا على حسابك .. طبعاً .. طبعاً (صارخاً) أنا لا أمد أخى بالمال إذا لم أكن على ثقة من ربحه أضعافا . لست ممن يعقدون السلفيات بفائدة الصداقة .. أنا لم أحسن لفقير عمرى ولن أكون غبيا إلى هذا الحد .. أما زواجى فسيتم .. انها راضية . أسامع ؟

حسن خشناً — وأنا ؟ ..

حلمى آمرا - تسافر !

حسن فى عينيه _ تذكر أنى أحبها ؟

حلمى — ماذا يهمنى ؟

حسن بقوة مضغوطة — وإنى قد أرتكب جناية ..

حلمى بنظرة حقدطويلة - مغفل ؟

حسن — أو أنتحر !

حلمى — كلام روايات !

حسن والعزم يدوى فى صوته — تجاه موقفنا هذا. تجاه شبحك بينى وبينها لا أكاد أبصر عقلى ! ها أنا أستنجد بأفكاري ومبادئى ولكنها تماص منى برغمى وتتبعثر فى نفسى مستقرة في مجاهل غريبة عنى . ها أنا والدم يتصاعد إلى رأسى أبحث عنها لاغل بها يدى عنك فلا أجدها . كأن يدك الغليظ اقتلعتها من حقل نفسى! وكأنى خلقت وسأموت أجوف الروح من كل فكرة أو مبدأ. الآن قد استكشفت عمق حبى !

حلمى ـ تصورات أديب .. تخيلات محموم ...

حسن ثائرا ـ أيجب أن ترانى جثة هامدة كى تصدق ؟ تؤثر شهوة ساعة على حياة ولدك ؟ (وبكل قواه) لماذا ؟ لماذا خلقتنى ؟

حلمى ـ ألا تنتهى ؟

حسن مندفعا ـ لماذا خلقتنى ؟ وكيف خلقتنى ؟ خلقتنى وأنت تفكر فى جسمك لا غير ؟ .. جميعكم لا تفكرون إلا فى أجسامكم تقذفون بنا إلى الحياة فى نضح الشهوة أبناء اللذة زائلين بزوالها منطفئين معها . . .

حلمى ـ ألا تسكت ؟

فوزية ـ حسن ..

حسن مسترسلا ـ أأنت أبى ؟ أنت ؟ لم أشعر أبدا أنك كنت يوماً ما أبى ... أأعرفك أنا ؟ وهل تعرفنى أنت ؟ أحادثتنى يوما فى أى موضوع ؟ أناقشتنى ؟ أعولت على فكرى ؟ أشغل بالك وجودى لحظة ؟ الوالد أعنى الشهيد أتفهم لوظيفته معنى ؟

حلمى ـ والنهاية ! وبعد ؟

حسن ـ لست أبى . . أنا مدين لك بهذا الجسم . أما روحى فانا الذى خلقتها . لذلك لا أستطيع أن أعترف لك باى جميل .

لست منك فى شىء ! لسنا منكم ولستم منا ؟ نعم نحن الشباب وأنتم الشيوخ نحن الحياة وأنتم الموت . نحن من طينة غير طينتكم . نحن نكره بيوتكم . اننا ولو أننا نقضى شبابنا كله في القهاوى والبارات ودور الملاهى الا أننا نستقبل الحياة حرة من كل قيد ومصطلح ؛ أولع ما نكون بحيرتنا وقلقنا وضجرنا وفوضانا التى تتغذى منها كحمى هائلة ولا نبالى اذا ما أجهزت علينا وقتلتنا .

نحن نكره بيوتكم . بيوتكم هذه المشادة على سلطة الزوج الجاهل المستبد رياء لزوجة وخوفها ودسائسها . نكره بيوتكم لانها قذفت بنا الى الحياة دون

علم وتبصرة وخلقت فيناشهوات احد من شهواتكم تكاد تتكسر اعمارنا فى سبيل كبحهاوتجميلها بشىء بسيط من النبل والكرامة ومعنى الانسانية .

نحن ابناء الفوضى الرائعة المشرقة فى سعيها المطرد نحو الحياة والحرية وأنتم رجال النظام النخر المتهالك المتداعى. ماذا يهمنا إذا كنا ما نزال فى الواقع مخلوقات كسيحة : لاتصلح لالبناء الاسرة ولالتشييد الوطن ولالخدمة الانسانية أنتم أردتم ذلك . ماذا يهمنا إذا كنا نجهل فضيلة الواجب وعظمة المسؤولية ماذا يهمنا إذا كانت حياتنا القصيرة تنقضى فى الشوارع والبارات مع رجال مثلنا لاهم لهم الا الضحك والتنكيت ومطارحة الغرام بعضهم البعض انتم أردتم ذلك . ولكننا نعيش وسنعيش . نحن أحياء . نحن أحياء برغمكم أيها الاموات . الحرية ! . . حريتى ! . . سأظفر بها فى النهاية !

حلمى هائلا ـ فاخرج إذن . . ماذا تنتظر . ! أخرج

حسن ـ متى اطمأن عليها بالى . . نعم .

حلمى ـ تريد أن تحرجنى ! تشل يدى ؟ تضيق على الخناق ؟ ترغمنى على الاذعان ؟ أقف لديك موقف الاضطرار والمحاكمة ؟ أنا ؟ (ويضرب بيده المنضدة) ولكنى سأنفض يدى . . أسامع . . . سأنفض يدى سأحل هذا المشكل .. سأفض المسألة .. وستتفرج بعدئذ على مولدات خيالك ..انهالك .. خذها . . خذها . . أنا لا أريدها .. خذها . . ولكنى لا أدفع ! . لا أدفع .. لا أدفع . . فليفتش الباشا لابنته عن عريس غيري .

فوزية تتقدم مسرعة وفى صرخة فرح ـ ماذا تقول؟ تتركها ولا تدفع ؟

حلمى ـ ولا مليما واحدا

فوزيه بقوة ـ اذن ؟ اذن ؟ أدفع أنا !

حسن ـ عمى ؟ !

حلمى - ايه ؟!.. (يصفر)

حوريه تقبل يدها - اختى !!..

فوزية - نعم أدفع من مالى ! أقرض سرى باشا مايريد فى سبيل راحتنا جميعا ! أجل ياباشا أعيد اليك قلب ولدك دون أن أحملك انفاق أى مبلغ، أفيرضيك هذا لتصفح عنى ؟ أفيكفيك هذا برهانا على اخلاصى، أفتصدق الآن حبى ؟

حورية لحلمى متوسلة - كلمة واحدة منك ويصبح بيتنا فى تسبيح و نور.. وه بيتنا وما أسرتى وما كل أهلى بجانب حياة ولدك. انك تحبه، نعم، تحبه أكثر من الجميع مهما أساء الظن، مهما قال، تحبه وتشفق عليه، وهو، هو أيضا ! اليس كذلك ياحسن.. لا. لاتنفر. انه طيب القلب. انه يحبك. انه أبوك !.

(يتقدم حسن متأثرا فيلوى حلمى بوجهه)

حسن يبكى - أبى !

(يسرح حلمى بصره فيهم جميعا فتبدو عليه علامات الحيرة فيتراجع ثم يقول فى صوت أجش)

حلمى - يكفى ؟

(يحدق الباشا فى ابنه ثم يمشيان إلى مقدمة المرسح)

- فلتذهب بسرعة الى أبيها ولتخبره بما كان !

حسن - أجل

حلمى - اما أنت فسترحل بعد غد ؟

حسن - نعم

حلمى - على اللوتس ؟

حسن - هو ذاك

حلمى - مع فؤاد بك ؟

حسن ـ نعم

حلمى ـ وسأرسل اليك ما اتفقنا عليه

حسن ـ أشكرك

حلمى ـ لا داعى ! (وباستكانة واستسلام وقوة في امتلاك شعوره) أما أنا فسأسافر الى البلد ! . . . لفورى . . . بى حاجة للهواء الطلق ! . . نعم سأسافر . وقد لا أعود إلا بعد أسبوعين أو شهر . فليعدوا لى حقائبى ! . .

فوزية تتقدم اليه وفي التماس ـ وأنا ؟ . .

حلمى يتأملها ـ من انت ؟ (وتجيش فيه عوامل انكساره فتتضام عضلات وجهه ويقول فى حقد كانه يريد أن يصب عليها جام غضبه) انت ؟ . . (ثم ينظر اليها فيحس بها ضئيلة مسكينة غير مسؤوله) فيشفق فيترك هذه الجملة تقع من فيه)

تنتظرينى هنا ! . (ويخرج مسرعا)

حوريه ـ بفرح عظيم و هى خارجه وراءه لتعد له حقائبه ـ أنه لى ! .

(المشهد السابع)

(حوريه ـ وحسن)

(يتقدم حسن من حورية ببطء وهى تنظر اليه فى أسى)

حسن ـ أوريفوار حوريه

حوريه ـ أوريفوار حسن . (بعد ثانية) سامحنى !

حسن ـ يكاد يبكى ـ اذهبى . . اذهبى . .

حوريه ـ هكذا ؟ !

حسن يغالب عواطفه جهده ولكنه لايستطيع ـ كنت عشيقته! .. كنت تحبينه ! .. كنت تخدعينى ! ياللخسارة!

حورية ـ كلا ! كلا !

حسن ـ لا تكذبي ونحن فى ساعتنا الأخيرة ! كنت له؟! لذلك الوحش !

حوريه صائحة ـ أبدا مازلت لك ... كيف أقول ؟ كيف أعبر .. كان ذلك مجرد طيش ... محض عواطف ... ألاعيب أطفال ... ولكني لم أكن له ... أبدا . أبدا . إنى لاكاد أمزق نفسى . انى عذراء

حسن ـ كيف أصدقك الآن ؟ كيف أثق ؟ (وفى ألم فظيع) كيف فعلت ذلك ! كيف استطعت اخفاءه عنى ، كيف كنت تعيشين وقتئذ ؟ (ودموعه تسيل) باى ضمير ؟ ..بايه ابتسامة ؟ باية عيون ؟ بالعيون التى احببتها ؟ . . نعم ! يا لشقائى .. يا لشقائى السخيف !

حوريه ـ كنت ادافع عن حبنا

حسن ـ حبنا أين هو الآن . . لقد هدمت معتقدى فى الحب وهو مادة شبابى فشاخت نفسى على يدك بدل أن تزهر ! . . هناك زاوية فى قلبى فتحتها للنور ثم أغلقتها الى الابد !

حوريه ـ لا . لاتغالط نفسك

حسن صائحا ـ رسائلك معى ! ! هاهى ؟ هاهى ؟ (يخرجها)

حوريه ـ هاتها ؟ هاتها ؟ امزقها ، احرقها

حسن ـ خذيها ؟ خلصينى منها ؟ لاأريد أن أسافر بها لاأريد أن أحمل المرض في جسمى ؟ يكفينى انى راحل بلا عزم ولاقوة وأنى اذا فكرت فيك طويلا فقد أموت فى الطريق

حوريه ـ بل تحيا !..أريد ذلك !.. أريد أن تعود إلى .. سأنتظرك سنة أو اثنتين أو ثلاث .. سأكفر عن هفوتى كما يحلو لك .. ولكنك اذا عدت وفى نفسك بقية من الشك فى قلت لك أنت حر أما أنا فسأظل مقيدة بك حتى أموت

حسن متهدجا ـ من يدرى . من يدرى . لقد علمتنى الحياة أن الوجوه

تتغير بتغير الساعات وأن القلوب التى لا تزي لابد أن تكون أشد تحولا من لوجوه . اذهبي .ليس بي حاجة للخلوة .

حوريه ـ لاتعذبنى . كفي . أنا ذاهبة . ولكني أريد أن اراك غدا قبل الرحيل . فى بيتنا . لابد أن تأتى . أتوسل اليك. التمس منك . أريد أن أبدد مخاوفك . أن أستعيدك الى . أن أسهر على حبنا حتى تعود . أريد أن أحمل عنك ألمك وأودع فى نفسك الايمان والسلام . أريد (وتجهش بالبكاء) أريد أن أضمك الى ذراعى والقي برأسي على صدرك وأقبلك وأضمك وأبكى ! . .

(وهى خارجة)

أريد . أريد . . .

حسن ـ حدقا فيها ـ الوداع ياحوريه ! . .

حوريه ـ بالباب وهى باسطة ذراعيها ـ لا . بل الى الملتقي ياحبيبى . الى الملتقي ! . (تخرج)

ستار ١٢ فبراير سنة ٩٢٢